ملحمة

الهروب إلى الموت

"رواية"

حسن بريغش

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

ملحمة

الهروب

من الموت

ملحمة

الهروب

من الموت

رواية

حسن بريغش

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2017م - 1438 هـ

ردمك 978-614-01-2150-8

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: ياسر الصيقلي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

إهداء

إلى كل من ثار من أجل الحرية.

حسن

معاناة البقاء تحت القصف في حمص

– «يا الله ويا الله... ما لنا غيرك يا الله...».

صوت هادر يسمعه زياد وهو جالس في بيته البسيط في حي «الخالدية»[1] في وسط مدينة «حمص»[2] السورية. يحاول احتضان أولاده الأربعة قدر استطاعته، تمرُّ به عشرات الأفكار، دون أن يعرف أياً من هذه الأفكار يعتبر أملاً، وأيها يعتبر خوفاً من المستقبل، ينقل نظراته بينهم بعدم تركيز، بناته الثلاث فاطمة وهبة وزهرة، وأخوهم الصغير أحمد، وأمهم سعاد.

«يا بشار ويا جبان... ويا عميل الأمريكان...».

في الوقت نفسه، تنظر سعاد إلى زوجها زياد بشكل مباشر لتبحث في عينيه عمّا يدور في خلده، حوار الأعين لا يخطئه المحبون. تنقل بصرها بين وجه زوجها وبين أبنائها الأربعة، فاطمة ذات الثلاث عشرة سنة، وهبة ذات العشر سنوات وزهرة ذات الثماني سنوات وأحمد الصغير ذي الست سنوات. زهرات لم تعرف من الدنيا بعد غير البيت والمدرسة واللعب. أي خوف يعصف بقلب سعاد على أبنائها وهي تستمع لهذه الأهازيج.

«يا بثينة ويا شعبان... الشعب السوري مو جوعان...».

يتململ زياد في جلسته ويتنحنح، لم يعد يطيق هذا الصمت أمام نظرات زوجته، يطرق برأسه للأرض قائلاً:

– سعاد، لن أستطيع البقاء، أرجوك أن تفهمي ما أقول، أُحس أن هناك أمراً ينتقص من كرامتي، ينتقص من رجولتي، أسمع هذا الصوت الهادر من رجال وضعوا أرواحهم على أكفهم، وأنا أجلس كالنساء في بيتي. أرجوك يا سعاد، كوني عوناً لي، أُحس بأني أموت من داخلي.

أجابته سعاد ومسحة من الحزن تلف وجهها الناعم:

– مهما تكلمت يا زياد، لن أقتنع. لا أستطيع التفكير بعيداً عن أطفالنا. زياد، الفكرة بحد ذاتها ترعبني، أفقد السيطرة على نفسي مباشرة بمجرد تفكيري بالخطر الذي يحيط بهم. وجودك مع هذه الجموع لن يقدم أو يؤخر. لِمَ تجلب الخطر علينا وعلى أبنائنا؟

أجابها بتذمر واضح:

– يا سعاد، كفّي عن الضغط عليَّ بهذه الطريقة، أنا منهار من داخلي، لم أكن في يوم من الأيام جباناً أو خانعاً. لِمَ ترضين لي هذا الهوان والذل؟ هل تسمعين ما يقولون؟ «هيهات منّا

الذلة» يصرخون بوجه العالم أجمع، وأنا أجلس كالنساء في البيت، لا، لست كالنساء، فحتى نساء البلد صرن يشاركن في هذه المظاهرات. سأرتدي ملابسي وأنزل لأشارك. لم أعد أطيق، ادعي لي بالتوفيق والسلامة. ولن أتراجع.

أمسكت بيده محاولة منعه وهي تقول:

- زياد، زياد... أرجوك زياد، هذه الخطوة لا تراجع بعدها، ولا سلامة.

أفلت يده من يدها بهدوء وهو يقول بحزم واضح:

- سعاد، السلامة من الله، لن أتراجع.

نزل زياد من بيته متوجهاً إلى أحد التجمعات القريبة في حي «الخالدية»، لم يكف عن ترداد الأهازيج في طريقه، يدندن بها بلا وعي أو إرادة، يسير وفكره مشغول بكثير من الأمور التي مرت معه في حياته، كل كلمة يسمعها ويرددها تنقله إلى مواقف وذكريات مؤلمة، بِدءاً من مرحلته الدراسية وصولاً إلى يومه هذا. كيف ينسى أن ابن مدير «شعبة التجنيد» كان يُعتبر الآمر الناهي في المدرسة، حتى على مدير المدرسة نفسه، كان يسير في وقت «الفرصة» في أنحاء المدرسة محاطاً بمجموعة من الطلاب وكأنهم موكب رئاسي، والمغضوب عليه من يعترض طريقه أو ينظر إليه نظرة لا تليق بفخامته، كم كان يكره هذا المنظر ويشعر بالظلم. كيف ينسى حرمانه من التعليم الجامعي أو حتى المعاهد المهنية، لمجرد أنه لا ينتمي للحزب الحاكم[3]، وبالتالي يفقد الأولوية والدرجات المساندة التي تؤهله للقبول في أي جامعة أو معهد. كيف ينسى ما عاناه في بداية عمله في تجارة الخردوات من التسلط والقهر لدفع الرشى لمدير البلدية ولعناصر التموين الذين يقتاتون كالطفيليات على سرقة أرزاق التجار.

«الله... سوريا... حريييية وبس».

ومع كل خطوة يخطوها، يزداد إصراره وتتعاظم عزيمته. لا، لن يتراجع عن قراره، لم يعد يرى سوى أمر واحد، لا يريد لأولاده أن يعيشوا ضمن هذا الظلم والقهر، لا يريد لهم الذلة والمهانة التي كان يشعر بها ويراها في كل وقت، لم يعد هناك مبرر لها، لم يبقَ أحد في حارتهم لم يخرج في هذه المظاهرات، أمّا عن نتائجها، فهي بيد الله، لن يفكر في المستقبل بأكثر مما يحيط به، الجميع يهتف، «هي لله... هي لله».

من هنا، بدأت مع زياد وعائلته رحلة الهروب إلى الموت، رحلة لم تدخل ضمن حساباته في يوم من الأيام.

كانت فصول الأحداث المتعلقة بالثورة السورية تسير بتسارع أمام ناظري زياد، لا يكاد يخلو يوم دون أن يسمع بأحداث مؤلمة تشيب لها الولدان، فمن جهة امتدت الثورة لتعمّ معظم مدن سوريا، ولم تعد قاصرة على مدينتي «درعا» و«حمص»، فها هي مدن «الريف الدمشقي» تثور، ومدن الشمال الشرقي السوري بكل نواحيها، لم يبقَ سوى مدينتي «دمشق» و«حلب» ومدن الساحل لم يخرج شبابها بشكل واضح بعد. من جهة أخرى يمارس النظام الحاكم العنف غير المسبوق في القمع، فلم يتوانَ عن استخدام الرصاص الحي وحتى القناصة لقمع المتظاهرين،

والاعتقالات باتت أمراً طبيعياً مقبولاً يتحدث فيه الناس بشكل عام. ومع كل يوم يمرّ يزداد خوف زياد من المستقبل ويزداد معه إصراره في الوقت نفسه، إصرار على عدم التراجع في أي خطوة للخلف، هي لله ولن يجعلها لغيره. صارت المشاركة بالمظاهرات روتيناً يومياً وحدثاً مألوفاً بالنسبة إليه، حتى زوجته سعاد لم تعد تضغط عليه كما كانت تفعل من قبل.

بدأت الأمور تتغير بشكل دراماتيكي متسارع في «حمص»، وكل التحركات التي تحدث تنذر بأمر عظيم سيقدم عليه النظام لمحاربة هذه الثورة، ولا يوجد ما يبشر بخير من ناحية المجتمع الدولي.

في أحد الأيام القريبة، والتي لم تختلف وتيرتها عن غيرها، سمع زياد بأن هناك تجمعاً كبيراً في «ساحة الساعة»[4] وسط «حمص» عقب جنازة مهيبة مشى فيها أهل «حمص» تشييعاً لثلاثة عشر شاباً استشهدوا برصاص عناصر النظام. توجه زياد حيث كان التجمع حتى وصل للساحة، لم يكن يعلم بأن العدد مهول إلى هذه الدرجة، فلقد جاوز المجتمعون عشرات الآلاف من رجالات «حمص» ونسائها وشبابها وشيبها، عندما أصبح بينهم أحس بخفقان شديد في قلبه، كان إحساساً بالعزة والقوة والتمكين يشعر به للمرة الأولى في حياته، فجميع من يراهم ويهتف معهم على قلب رجل واحد، يبحثون عن الحرية والعزة والكرامة. كان الوقت قريباً من العصر وما زال الكثير من الرجال والنساء يتوافدون، لم يبقَ أحد لم يشارك في هذا الاعتصام، فلقد رأى زياد الرجل والمرأة، الشاب اليافع والعجوز الهرم، المسلم والمسيحي، أهل المدينة وأهل البادية. كانت «ساحة الساعة» تكتظ بكل فئات مجتمع مدينة «حمص»، حتى رجالات الدين بمختلف أديانهم وأطيافهم وصلوا إلى هذا التجمع، راقب زياد ما حوله بعين فاحصة يسجل في ذهنه كل ما يرى، وكأنه يريد أن يوثّق حدثاً تاريخياً يغير صفحات التاريخ وهو حاضر في هذا الحدث.

بدأت الأهازيج تأخذ رتماً انسيابياً منظّماً، وعلا صوتها بمكبرات صوت عمّت المكان كله، وما زال الناس يتوافدون على الساحة حتى امتلأت عن بكرة أبيها، وصار الكثير يقفون في بعض الطرق الفرعية المؤدية إلى الساحة بعد امتلائها، رأى مجموعة من الشباب بدأوا بتنظيم الحضور، ومجموعة أخرى يقفون على مداخل الطرق الفرعية يفتشون كل من يرغب بالدخول، ورأى في مكان آخر مجموعة من الشباب والنساء يوزعون بعض الأطعمة على الجموع. علا صوت أذان المغرب من مكبرات الصوت فعمَّ الهدوء والخشوع الساحة بمنظر مهيب، فلكلمة «الله أكبر الله أكبر» أثرها في هذه اللحظات، صلى المحتشدون المغرب يحرسهم الشباب المسيحي، كانت لوحة تعايش حقيقية من أبدع اللوحات، واستمر الحضور يزداد حتى انتصف الليل، بعدها استغرب زياد من خفوت صوت الأهازيج والهتافات وترنيماتها، وكثر الهمس والأحاديث الجانبية بين المحتشدين، وما هي إلا دقائق حتى وصل الخبر إلى زياد من أحد الذين كانوا يقفون بجواره مذ وصوله الساحة، فهناك تأكيدات من بعض الشباب بأن النظام سيعمل على فض هذا الاعتصام بالقوة قبل الفجر. بدأ البعض ممن كانوا في الاعتصام يتوجهون إلى الطرق الفرعية عائدين من حيث أتوا، لكن الأهازيج عادت بقوة فجأة وكأن القائمين على تنظيمها يدعون الحضور إلى عدم الانسحاب، بدأت الأعداد تقل شيئاً فشيئاً، لكن الكثير أيضاً استمروا في اعتصامهم. أما زياد فبقي في الميدان إلا أنه غيّر موقعه ليقف قريباً من شارع «عبد المنعم رياض»[5] كي يجد مخرجاً إن نفّذ النظام تهديده.

ما إن حلّت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حتى سمع زياد صوت أول طلق ناري، أعقبه صوت تكبيرات مرتفعة، ثم وبأقل من خمس دقائق هاجت الدنيا وماجت حوله وكأن القيامة قد قامت. أصوات الطلقات من أسلحة نارية مختلفة، أصوات صراخ وعويل وتكبيرات، أناس يهربون في كل اتجاه، دماء متناثرة في كل مكان، جرحى يئنون وهم يحاولون الاحتماء بأي شيء كان، آخرون ينزفون وهم محمولون على الأكتاف، أجساد ملقاة على الأرض تلفظ أنفاسها الأخيرة، نساء يبكين وهن يهرولن دون تركيز. ذهل زياد من هذا الكم الرهيب من الخوف والألم، فاقداً الحس بالخطر من هول الصدمة، متسمراً في مكانه وكأنه يشاهد فيلماً سينمائياً لا يمت إلى الواقع بصلة، بقي على هذا الوضع لعدة دقائق، وعقله يعمل كمسجّل يوثق ما يدور حوله دون ارتباط مباشر به، انتبه فجأة للخطر الذي يدور حوله إثر اصطدام أحد الشباب به بقوة كاد أن يسقط أرضاً على إثرها، كان الشاب يحمل طفلاً ينزف بغزارة، ويبدو عليه بأنه فقد الحياة إثر رصاصة اخترقت رأسه، نظر زياد لما حوله باندهاش ثم تفحص ثيابه التي امتلأت بالدماء إثر اصطدام الشاب به.

وبشكل لا إرادي أخذ يخطو خطوات مترددة خائفة للخلف حيث يمكنه الهرب، أدار وجهه حيث ينوي الهرب وانطلق مسرعاً وهو شبه غائب عن الوعي، أخذ يجري حيث تحمله قدماه وعيناه تفيضان بالدمع، استمر بالجري لما يقارب ثلاثة كيلو مترات عابراً شارع «عبد المنعم رياض» ثم شارع «الكورنيش» إلى أن وصل حيث يسكن في «الخالدية» بجوار «مسجد التقوى»، أخذ يقرع باب منزلهم بشكل جنوني مع أنه يحمل في جيبه مفتاح المنزل، ما إن فتحت له زوجته الباب وعلامات الإرهاق والقلق بادية على وجهها حتى صرخت صرخة مكتومة من هول المنظر الذي رأته، فمنظر الدماء التي ملأت ملابسه بالإضافة إلى الإنهاك المرسوم بشكل واضح على معالم وجهه وجسده جعلاها تظن بأنه مصاب، لم يلتفت إلى صرختها، بل أزاحها من طريقه بعنف ودخل مباشرة إلى حمام منزلهم وأغلق الباب خلفه، تبعته سعاد حتى وقفت أمام الباب تحاول مخاطبته لتطمئن على حاله، كان الخوف على زوجها يكاد يفقدها صوابها، أخذت تطرق الباب عليه بهدوء محاولة إخفاء جزعها وخوفها وهي تقول له:

- زياد، ما الذي حدث لك؟ هل أنت مصاب؟ هل أستدعي أحداً لمساعدتك؟

أنصتت قليلاً علّها تسمع منه أي جواب، أكملت طرقها للباب بهدوء خوفاً من أن يستيقظ أبناؤها قائلة:

- أرجوك يا زياد، أكاد أفقد عقلي خوفاً عليك، أرجوك قل لي ماذا حدث لك؟ سأدخل إن لم تجبني.

عادت لصمتها علّها تجد أي تجاوب من زياد، اقتربت أكثر من الباب واضعة أذنها عليه بشكل مباشر لتسمع حينها صوت بكاء زياد. لم تتمالك نفسها، فتحت الباب، ودخلت لتجده جالساً متكوراً على نفسه في حوض الاستحمام، كان يضع رأسه بين كفيه ويجهش ببكاء مرير لا يكاد يتنفس من مرارته، اقتربت منه والألم والخوف يعتصران قلبها، احتضنت رأسه إلى صدرها بكلتا يديها وهي تواسيه قائلة:

- استحلفتك بالله يا زياد أن تخبرني بما حدث معك، ما كل هذه الدماء التي تملأ

ملابسك؟ هل أصابك أي مكروه؟ أخبرني أرجوك.

وكأن كلماتها هذه أزاحت الستار عن مشاهد لم تكن حاضرة في ذهنه، علا صوته بالبكاء وتشبّث بها بقوة، وكأنه يحتمي بها من خطر شديد يحس به. تشبّث بها كطفل يتشبّث بالحياة. بقيت على هذا الوضع لدقائق، اطمأنت بأن ما يبكيه أمر حدث معه أو أمامه، وليس بسبب إصابة يعاني منها. عادت لسؤاله قائلة:

- ألن تخبرني بما حدث معك يا زياد؟ ألم تتعود بأن ترمي همومك عليّ؟ أنا سعاد، أنا التي تشاركك أفراحك وآلامك. بكاؤك هذا يذبح قلبي، أزح هذا الهم عنك وعني وتكلم.

عند هذه الكلمات، أبعد زياد رأسه قليلاً ونظر بشكل مباشر إلى عيني سعاد وعيناه ما زالتا ممتلئتين بالدموع، تكلم بصوت خافت متقطع يملؤه الخوف قائلاً:

- قتلة، قتلة مجرمون، وحوش، لا يمكن أن يكونوا من فصيلة البشر.

نظرت سعاد إليه بخوف ووجل وقد اتسعت عيناها لما سمعت وقالت له:

- ماذا تقول يا زياد! من تقصد بالقتلة؟ لم أفهم شيئاً مما تقول.

سكت قليلاً وهو يحاول أن يستجمع شتات أفكاره ويستعيد شيئاً من رباطة جأشه قبل أن يرد عليها قائلاً:

- ألم تتابعي ما حدث في «ساحة الساعة» على شاشات التلفاز؟

فأجابته على الفور:

- تابعت قليلاً بعد صلاة العشاء، ثم انصرفت لأعمالي وأنا أدعو الله بأن يحفظك ومن معك. لكني كنت مطمئنة عليك عندما رأيت هذا الحشد الكبير من الناس.

فقال لها وقد أطرق برأسه للأرض مرة أخرى مع عودته /للبكاء:

- لقد هاجم الجيش هذا التجمع مطلقاً الرصاص عليهم بشكل عشوائي، كان الناس يتساقطون على الأرض وكأنهم أحجار «دومينو»، كان الأمر مرعباً من غزارة الرصاص الذي انهال علينا، أطفال ونساء وعجائز لم يسلموا من الاستهداف، في غضون دقائق باتت الدماء تملأ المكان والجثث تغطي أرض الساحة، حتى أن من يحاول إنقاذ أحد المصابين يسقط بجانبه مباشرة، صار الهروب من الساحة مؤلماً بقدر البقاء فيها لكمية الأجساد المتناثرة التي من الممكن أن تطأي إحداها وأنت تلوذين بالفرار، وباتت أصوات الصراخ والألم أعلى من صوت الرصاص. أشعر بأن عقلي سينفجر من شدة المناظر المروعة المهولة.

ثم انهار باكياً وسعاد تحاول احتضانه والخوف يملأ قلبها. فاليوم زياد قد نجا، لكن هل سينجو مما بعدها، بل هل سينجون جميعاً؟ هل هي مواجهة للموت عليهم أن يستعدوا لها؟ أحست أنها عاجزة تماماً عن مواساته حتى ولو بكلمة. كانت تتمتم مسترجعة الله وفي تمتمتها ألم وخوف

وحسرة. أخذت تساعد زوجها بخلع الجزء المتسخ من ملابسه والذي امتلأ بالدماء دون أن يقوى على الوقوف، كانت الدموع تملأ وجهيهما وهما يتحركان بصمت كامل، وبشكل لا إرادي فتحت صنبور الماء على زياد وهو جالس مكانه، فلربما يغسل الماء شيئاً مما أصابه، ابتعدت عنه قليلاً وجلست على الأرض تراقبه تاركة لدموعها المجال لتملأ وجهها بلا إرادة أو تحكّم منها، بعد دقائق عدة أشار لها زياد كي تساعده على الوقوف بعد أن هدأت نفسه قليلاً، توضأ وخرج إلى مجلس بيتهم بعد أن غيّر ملابسه، صلى ركعتين لله ثم تبعها بركعتي الفجر وخلد إلى النوم.

كل ما بعد هذا اليوم أصبح مختلفاً عمّا قبله، حتى مفهوم الحياة والموت أصبح أكثر وضوحاً وواقعية لدى زياد وعائلته، لم يكن زياد وعائلته سوى رقم من ضمن العدد الإجمالي للعوائل التي دخلت ضمن الفئة المستهدفة في أحياء حمص القديمة، والذين قرروا وبشكل واضح أن يظهروا أمام العالم بأنهم يرفضون هذا النظام القمعي المجرم. مرت أيام عدة بعد هذه المجزرة كانت رائحتها وهويتها الموت، خرج زياد مع أهل «حمص» يدفنون شهداءهم، أو بشكل أدق من استطاعوا أن يحصلوا على جثامينهم، وكانت رحلات التشييع والدفن مغامرة بحد ذاتها، فلم تعد تخلو جنازة من استهداف القناصة لتفريقها إلاّ ما ندر، حتى أصبح الشهيد يصلي على شهيد سار في جنازة شهيد كان قد دفن شهيداً في يوم سابق.

بدأت حملات اعتقالات واسعة تطال رجالات الحي بشكل عشوائي، وكأن جيش النظام يخطط لسحب رجالات هذه الأحياء منها ليسلبها قدرتها على القيام بأي مقاومة أو اعتراض. فرض بعدها حصاراً على الحي، فلم يعد يستطيع أحد التحرك إلا في جنح الظلام وضمن أزقة الحي وحواريه دون أن يستطيع الخروج منه أو الدخول إليه.

في إحدى الأمسيات بينما كان زياد جالساً يقلب بين القنوات التلفازية الناقلة لأحداث الثورة السورية، مستغلاً وجود التيار الكهربائي الذي بات وجوده نادراً، وإذ به يسمع صوت انفجارات ليست بالبعيدة، فزع لها قلبه، فلم يكن متأكداً هل هو صوت انفجار أو صوت قذائف، وفي أقل من عشر ثوانٍ سمع الصوت يتكرر مرة أخرى، أصابه شلل لحظي وهو يتابع الصوت، وما هي سوى ثوانٍ أخرى حتى أحس باهتزازات عنيفة جداً في بيتهم. هاجت به الدنيا وهو يسمع صرخات أبنائه وزوجته وهم يهرعون إليه مستنجدين به، كان الرعب يسيطر عليهم جميعاً وبخاصة سعاد وفاطمة، صرخت سعاد وهي تحاول احتواء أبنائها:

- ما الذي يحدث يا زياد؟ ما هذه الأصوات، ما هذه الانفجارات؟

كان زياد في الوقت نفسه يحاول أن يستجمع قواه ويفكر فيما عليه أن يفعل، أجاب برد فعل متوتر:

- يبدو أن الأنجاس بدأوا بقصف المنازل بالأسلحة الثقيلة، علينا أن نحتمي بأي شيء بسرعة، لا بد أن نترك المنزل الآن مباشرة، ارتدي أنت وفاطمة ما يستركما والحقا بي إلى خارج المنزل مباشرة.

وبلا تردد حمل أحمد وأمسك بيد زهرة وخرج مسرعاً من البيت، وابنته هبة تلحق به. نزل على الدرج وهو يسمع خطوات فاطمة وسعاد تلحقان بهم. كانت اهتزازات المبنى تتزايد مع استمرار

استهدافه. وقف عند باب عمارتهم ليتأكد من إمكانية خروجهم بسلام، أنزل ابنه أحمد إلى الأرض قائلاً لسعاد بعد أن لحقت بهم:

- أمسكي بهم حتى أتأكد من إمكانية خروجنا.

ولم يكد يطُل برأسه من باب العمارة حتى لمح قذيفة ترتطم بجدار عمارة تبعد عنهم بضعة أمتار، عاد إلى الداخل بلمح البصر والأحجار والأتربة تنهار أمامه مباشرة من أثر القذيفة، كان الصراخ شديداً من أبنائه مختلطاً بالبكاء والدعاء. تلت هذه القذيفة عدة قذائف مستهدفة مبناهم والمباني المجاورة له، بدأ جيرانهم في الشقق المجاورة لشقتهم يتزاحمون عند المدخل مع زياد وأولاده، عندها خطر لزياد خاطر قام على أثره بتوجيه الأطفال والنساء للتوجه أسفل الدرج والاحتماء به تحسباً لأي انهيار قد يحدث للمبنى جراء هذا السيل من القذائف، استمر الوضع على هذا الحال لما يزيد عن النصف ساعة، هدأت بعدها الأصوات وتوقف القصف، كان الأطفال والنساء ما يزالون في خوفهم وبكائهم ودعائهم، أما الرجال فزادت جرأتهم وخرجوا بحذر من باب العمارة كي يستطلعوا الأوضاع بعد هدوئها. عندما اطمأن الجميع بأن القصف قد هدأ، بدأوا يعودون أدراجهم إلى شققهم ليستكشفوا ما حلّ بها، كان زياد حريصاً على تجنب أي خطر محتمل إن عاد القصف فجأة، قال بصوت خافت لجيرانه وهم يهمون في الصعود إلى شققهم:

- احرصوا على عدم استعمال الإضاءة، وبخاصة في الغرف المطلة على الشارع مباشرة، لا نريد إثارة هؤلاء الكلاب كي لا يعاودوا استهداف العمارة مرة أخرى.

توجه لشقته في الدور الأول، وعند وصوله إلى باب الشقة، وبحركة حازمة أشار لسعاد وأبنائه بأن يبقوا خلفه مباشرة وهو يقول:

- ابقوا خلف أمكم، وإياكم أن تضيئوا أي شيء، وإن سمعتم صوت قذائف كالتي سمعناها قبل قليل، ارتموا أرضاً عند أقرب باب مباشرة.

نظر إليهم بنظرة خاطفة ليرى في أعينهم الرعب والدموع تملأ وجوههم جميعاً باستثناء أحمد الذي بدا له أنه لا يعي ما يحدث معهم. فتح باب شقتهم ودخل بهدوء وهو يسمع أصوات جيرانه وردود أفعالهم على ما رأوا من أثر القصف في شققهم، كانت حركته متأنية حريصة، يحاول أن يتلمس طريقه من خلال إنارة خفيفة صادرة من جهاز هاتفه المحمول. أول ما قام به هو التوجه إلى الغرف المطلة على الشارع حيث كان الاستهداف، أغلق الأبواب بإحكام وعاد إلى صالة المنزل التي كانت أبعد منطقة عن الشارع، جلس على الأرض وأشار لأبنائه بالجلوس بجواره، أحاط بهم هو وسعاد وعمّ المكان صمت تام تقطعه بعض التنهيدات والشهقات من وقت لآخر، استمر الأمر على هذا الحال حتى الفجر. صلى زياد فرضه هذا اليوم في المنزل وانتظر حتى بدأت شمس الصبح بالبزوغ، توجه لأبنائه ولزوجته بالكلام قائلاً:

- الحمد لله أن سلمنا من هذه المحنة، علينا أن نحمده ونشكره دائماً، وأن ندعوه بأن يرحمنا ويلطف بنا دائماً، وأن نبقى حذرين ومستعدين في كل وقت، لا نخاف من قضاء الله، لكن علينا أن نكون حريصين دائماً.

قام بعدها هو وسعاد ليتفقدا المنزل، عندما دخلا الغرفة الأولى التي استُهدفت بالقصف، شهقت سعاد شهقة عالية وهي تحاول كتمان صوتها، كانت الغرفة شبه مدمرة، بالإضافة لوجود فتحة كبيرة في الحائط إثر قذيفة اخترقته، احتضنها زياد وهو يقول:

– احمدي الله يا سعاد أن سلمنا الله ولم يصب أحدنا بسوء، أما الممتلكات فيعوضنا الله عنها خيراً.

ردت عليه بصوت باكٍ:

– الحمد لله، ما يرعبني يا زياد، ماذا بعد؟ وهل سنسلم في المرات القادمة؟ زياد، علينا الرحيل وبأسرع وقت ممكن، لا يهم إلى أين وكيف، لن أحتمل العيش وأنا أنتظر أن أفقد أبنائي أمام عيني، لن أحتمل يا زياد.

عاد زياد لتهدئتها وهو ينقل بصره بين أبنائه الذين ما زالوا يقفون بالقرب منهما وهو يقول:

– لن يحدث لنا شيء يكرهه الله لنا، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، توكلي على الله ولا تجزعي من رحمته.

التفتت سعاد لأبنائها، احتضنت فاطمة إلى صدرها واضعة يدها حول هبة وزهرة، أما أحمد فكان متمسكاً بفخذ والده بشكل عفوي.

بدأت سعاد باستخراج ما يمكن استخراجه من تحت الركام والأتربة في الغرفة التي استهدفت، وفاطمة تساعدها بصمت. أما زياد فنزل إلى الشارع ليستكشف نتائج القصف الذي تعرضوا له بالأمس وما آلت إليه الأمور مع بعض أصدقائه وجيرانه. بدأ رجالات الحي وشبابه يتجمعون حول المباني التي تم قصفها على شكل مجموعات صغيرة وهم يحاولون الاستتار بمداخل هذه المباني خوفاً من استهدافهم من قبل القناصة، كان هناك ما يزيد عن العشرة مبانٍ التي تم استهدافها بما فيها مسجد الحارة، كان الضرر الأكبر يقع على الطوابق العليا من هذه المباني لانكشافها بشكل مباشر لطلقات الهاون والمدفعية ولسهولة استهدافها، وكانت معظم أسئلة المجتمعين تدور عن الإصابات والضحايا.

بدأ الرجال بالتنقل بشكل تسلسلي بين المباني ليتأكدوا من عدم وجود ضحايا للقصف، وليقدموا المعونة لمن يحتاجها إن وجدت. بعد أن تفقدوا منازل عدة ورأوا ما هالهم من تدمير نتيجة القصف، وصلوا إلى منزل الحاج أبو شادي، كانت شقته قد استهدفت بطلقات عديدة تركت آثاراً واضحة جداً على الجدران الخارجية للشقة، حتى أن رجال الحارة هرعوا جرياً إلى الشقة يطرقون بابها بعنف لِما رأوه من تدمير واضح للشقة من الخارج، الجميع يعرف الحاج أبا شادي وزوجته الحاجة أم شادي، فهما «بركة الحارة» كما يسميهما أهل الحارة، يعيشان لوحدهما في هذه الشقة منذ زمن بعيد، ويعتبران أبناء الحارة وبناتها أولادهما، فهما لم ينجبا أبناءً. استمر طرقهم لباب الشقة لبعض الوقت، صرخ أحد الرجال طالباً من الآخرين اقتحام البيت وكسر الباب للاطمئنان على من في الشقة، كانت تصرفات الرجال عفوية وفيها تلقائية وحرص وتكاتف وثقة لم يعرفوها

سابقاً فيما بينهم، وبالفعل قام أحد الشباب بكسر باب الشقة وبالدخول إلى المنزل وهو ينادي بصوت عالٍ على العم أب.ي شادي، كان زياد يقف خارج الشقة مع البعض دون أن يتجرأ على الدخول منتظراً ما يسمعه من الآخرين. ما هي سوى لحظات حتى بدأ الصوت يعلو بشكل كبير من الداخل، وزاد الصخب والهرج وصارت التكبيرات تملأ المكان، حاول زياد أن يتبين من الرجال ما الذي وجدوه في الداخل قبل أن يدخل ليرى بعينيه ما الذي جعل الأصوات تعلو بهذا الشكل، كان المنظر مؤلماً بشكل كبير، كان العجوزان أو ما بقي منهما ينامان على سريرهما، الجسدان متقاربان، والأيادي متشابكة، كانت الحاجة أم شادي بكامل حجابها وكأنها مستعدة لهذه اللحظة، أما أبو شادي، فكان ما بقي من جسده يلبس البياض بشكل كامل.

لم يستطع زياد إطالة النظر إلى هذه الصورة، خرج مسرعاً بعد أن ثبتت في ذاكرته كل المعالم، قذيفة اخترقت الجدار لتصيب العم أبو شادي بشكل مباشر ما أدى لبتر جزء كبير من جسمه، ويبدو أن قذيفة أخرى لحقت بها جعلت أجزاء كبيرة من الجدار الخلفي ينهار على أم شادي لتلحق بزوجها.

لم يحتمل زياد ما رأى، أحس بألم يعتصر قلبه وبضعف ووهن كبير في جسده، كان يظن في نفسه الشدة والثبات أكثر من ذلك، ما الفرق بينه وبين الآخرين؟ فمعظمهم نشأ في البيئة والمفاهيم والقناعات نفسها، حتى ضمن المتغيرات المحيطة نفسها، لِمَ يشعر بكل هذا الخوف؟ يرى الجرأة والإقدام من أقرانه وأصحابه بينما هو يفزع ويُحجم، كان يُحس برعشة شديدة في قدميه وكأنهما لم تعودا قادرتين على حمله، انزوى بجوار أحد الجدران وجلس القرفصاء واضعاً رأسه بين يديه وهو يحاول إخفاء دموعه، كان يسمع الأصوات من حوله دون أن يعي ما هي أو ما تعني، أحس باستسلام مطلق لفكرة أنه لن يكون قادراً على مواجهة هذا التحدي، وعليه أن يأخذ قراره بشكل عاجل بالخروج من هذا الأتون، فالقادم ربما يكون أسوأ. حاول الوقوف على قدميه مرة أخرى ليهرب من هذا الوضع الذي هو فيه فلم يستطع، خارت قواه بشكل كامل، أخذ ينظر إلى من هم حوله بيأس وعلامات الإعياء تصرخ من وجهه، رآه أحد الشباب وهو على هذه الحال فاتجه إليه مباشرة وهو يخاطبه قائلاً:

- ما بك يا أبا أحمد؟ لِم كل هذا الفزع؟ يكاد وجهك يخلو من الحياة يا أخي، هات يدك وقم معي كي أوصلك إلى منزلك.

استجاب له زياد دون أن ينطق بأي كلمة، استند إلى كتف هذا الشاب وسار معه سير العاجز عن الحركة، لم يستغرق الأمر سوى دقائق حتى وصل زياد إلى بيته، دخله بعد أن شكر جاره على معونته، بقي واقفاً عند المدخل بضع دقائق. تائه البصر مستغرقاً في تفكير عميق. كان شريطاً مرعباً يمر في مخيلته وكأنه يحدث معه الآن، اختلطت في هذا الشريط الدماء بالأشلاء بشخصيات يعرفها وبأخرى لا يعرفها، ومع كل مشهد يستحضره كانت تتغير معالم وجهه أكثر فأكثر، حتى جالت في مخيلته أفكار لم تحدث بعد، بدأ يرى أطفاله جثثاً متناثرة أمامه، عندها وبشكل لا إرادي صرخ صرخة عالية فزع لها جميع من في البيت، هرعت إليه سعاد وهي تذكر اسم الله وتدعوه بأن يفرج الهم ويلهمهم الصبر والقدرة على تجاوز هذه المحنة.

جلس زياد على الأرض وبجواره سعاد، وأبناؤهما الأربعة يقفون حولهم فزعين من منظر

أبيهم المنهار.

كانت هذه الحادثة كفيلة بأن تجعل زياداً مرابطاً معظم وقته في بيته مع أولاده في الفترة التي تلت هذه الحادثة، باستثناء بعض الأوقات القليلة التي يخرج بها لأداء صلواته في مسجد الحي.

استمر القصف على الحي لما يزيد عن الأسبوعين، رافقه حصار خانق حال دون دخول أو خروج أي شخص أو أي بضائع مهما كانت أهميتها، تلى ذلك انقطاع شبه تام للماء والكهرباء.

لم يكن لدى زياد أي أمر يقوم به بعد أن فرض الحصار على الحي الذي يسكنه سوى أن ينتظر كغيره من العوائل المحاصرة، صارت كل الأفكار التي تدور في خلده تدور حول الأمور التي تحفظ حياته وحياة أبنائه، كم هي صعبة تلك الأفكار التي تدور في فلك البقاء والهروب من الموت، بعدما مرّ بهم من ضربات من قِبل جيش النظام الهمجي بمختلف أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة والثقيلة، وما خلّفت وراءها من شهداء ومصابين، كان هذا الحصار الذي فُرض عليهم متوقعاً من البعض، لكن البعض الآخر من سكان الحي كانوا يستبعدونه لمعرفتهم بأن أخبارهم باتت تصل إلى العالم أجمع لحظة بلحظة بسبب انتشار مواقع التواصل الاجتماعي على الإنترنت، ولظنهم واعتمادهم على مفاهيم كانوا يصدقونها ويؤمنون بها من قدرة منظمات حقوق الإنسان والمجتمع الدولي أو الغربـي الذي لن يسكت أبداً على هذه التجاوزات الوحشية، حتى تيقنوا بعد مرور فترة طويلة بأن الإنسان المسلم لا يعني أحداً من المجتمع الدولي.

مرت أسابيع والضغط يزداد على سكان الحي، فانتشار القناصة فوق أسطح المباني المرتفعة صار أمراً معروفاً، وصارت أخبار الشهداء اليومية لا تتجاوز في مشاعرها عن أسماء يتبعها رقم يتزايد لعدد شهداء الثورة السورية. كان القصف خلال هذه الفترة متقطعاً، لكنه لا يكاد يمر يوم إلا ويسمع أهالي الحي دوي انفجارات ناتجة عن صواريخ وقذائف هاون وقذائف مدفعية، تطور الأمر بعدها ليصبح استهداف الحي أكثر تنظيماً وترتيباً من خلال البراميل المتفجرة، فلقد أصبحت الطائرات المروحية تمرّ فوق مناطق معينة وتستهدف المباني بشكل مرتّب حتى تدكها دكا، كانت أخبار البراميل المتفجرة وما رآه زياد من أثرها هي أكثر الأمور رعباً بالنسبة إليه، فلقد رأى بأم عينه كيف أن المبنى المكون من عدة طوابق ينهار بشكل شبه كامل على من يسكنونه بمجرد سقوط أحد البراميل المتفجرة عليه، ليهرع بعدها أهالي الحي لينقذوا ما يمكن إنقاذه من تحت الأنقاض.

أخذت المواد الأساسية للحياة بالاختفاء شيئاً فشيئاً، حتى أن الأهالي بدأوا ببرامج تخزين وتوفير ومشاركة ليضمنوا كفايتهم أكبر فترة ممكنة، أصبح هذا الحصار أول لبنة لبناء مجتمع متكاتف متكافل بمعنى الكلمة، وبصورة لا يمكن أن تصل به إلى الكمال تحت أي ظرف مغاير لما هم فيه، ربما يحتاج الإنسان لهذا الكم من الآلام ليستعيد إنسانيته.

تحت وطأة الحصار ومحدودية التنقل بين حارات الحي، بدأ شباب الحي بشق طرقهم الخاصة تحت الأنقاض حيناً، وبين الجدران حيناً آخر، وتحت الأرض من خلال أنفاق قاموا بحفرها أحياناً أخرى، فالتنقل تحت غطاء السماء صار من الحماقة لما يترتب عليه من احتمالية الاستهداف من قبل القناصة بأي لحظة.

لم تمضِ فترة طويلة حتى سمع زياد بتشكيل «الجيش الحر»، والذي تكوَّن بداية من مجموعة من الضباط المنشقين عن النظام بعدما أدركوا ماهية «العقيدة القتالية» لجيش هذا النظام.

سمع زياد كغيره عن تحركات لجيش النظام بآلياته الثقيلة، كان يحدث نفسه في كل يوم، «ماذا ينوي أن يفعل هذا النظام بهذا البلد وبهذا الشعب الذي لم يطلب شيئاً سوى جزء من حريته وكرامته؟ تحرك آليات ثقيلة من الجيش يعني أن البلد مقدم على حرب حقيقية بين فريقين، والتركيز في هذه التحركات على أحياء حمص القديمة تحديداً».

صارت الجلسات العائلية الليلية مرهقة نفسياً، فبهدوء الليل وتلاقي نظرات العيون، تبدأ الحوارات المخيفة من المستقبل الذي يرونه مرعباً بكل دلالاته. التنقل بين القنوات التلفزيونية عند توفر الكهرباء ومتابعة أحداث سوريا – من غير قنوات النظام – تنقل لهم بعض المشاهد والأخبار التي تبث رعباً حقيقياً من المستقبل، عنف ووحشية غير متوقعين أو مبرّرين مقابل صدور عارية وهتافات رافضة للبقاء تحت كل هذا الظلم. أبناء «حمص» يُقتلون بالعشرات يومياً بأسلحة نارية مختلفة وقناصة، كان الألم يعتصر قلب زياد ويحس بكره شديد في الوقت نفسه تجاه هذا النظام، ويعود ليحدث نفسه: «لِم كل هذا القتل؟ أَوَليسوا بشراً؟ أوليس من حق هذا الشعب أن يعيش بكرامة وحرية وسلام؟ ولِم كل هذا الصمت من عالم الحقوق؟ هذا العالم الذي صدّع رؤوسنا بحق كلب في الحياة، أو حق سمكة بالبقاء والتكاثر. ما بِهم اليوم لا يرون للإنسان قيمة؟ لكنه بات واضحاً أن إنسانهم غير إنساننا، حتى إنسانيتهم لها تصانيف». كل هذه الأفكار باتت كورِد مسائي لا ينام دون أن يسترجعها زياد وهو يسمع الأرقام الجديدة للشهداء. ولا تنتهي الجلسة من غير أن يدور حوار بينه وبين سعاد حول الأوضاع.

في أحد الأيام قالت سعاد لزوجها وهي تنظر إلى البعيد:

– زياد... ماذا بعد؟ أين ستنتهي الأمور؟ ومتى؟ لم أعد أشعر للراحة طعماً، حتى نومي صار مرهقاً، زياد لم أعد أستطيع النوم إطلاقاً، أي حركة أو صوت صغير يجعلني أنتفض فزعاً.

نظر إليها زوجها بحب وحنو ثم أشاح بنظره بعيداً وهو يهمس:

– توكلي على الله يا سعاد، لا أحد يعرف إلى أين ستؤول الأمور، لكن كوني متأكدة بأن كل قضاء من الله خير، حتى وإن لم ندركه. ليس علينا أن نفكر كثيراً فيما ستؤول إليه الأمور بقدر اهتمامنا أين سنكون حينها، ومع من سيحاسبنا الله، أمع الحق أم مع الباطل؟ أعرف تماماً أن ما تسمعينه يومياً يجعلك خائفة مضطربة من المستقبل، لكن ليس بيدي ما أطمئنك به سوى قوة إيماننا بأن الأقدار بيد الله تعالى وحده، وما كتبه علينا سنراه شئنا أم أبينا، اجعلي توكلك كله على الله لا غير.

أجابته بشيء من الاستسلام:

– آمنت بالله يا زياد، لكن الله أمرنا بأن نأخذ بالأسباب وألا نرمي بأنفسنا إلى التهلكة.

انتبه زياد لهذه الجملة بشكل واضح، عدّل من جلسته وأجابها بشيء من التركيز:

– استغفر الله وأتوب إليه، وهل تعتقدين حقاً بأن ما يفعله الناس الآن هو رمي للنفس إلى التهلكة، ألا تسمعين أهازيجهم ونداءاتهم، هم خرجوا طالبين حقوقهم وحريتهم، معتمدين على الله وحده. والله ما أراهم إلا على حق يا سعاد، لا تجعلي خوفك يضعف إيمانك بالله أو يغير مبادئك التي طالما تفاخرنا بها.

عادت لاستسلامها وهي تجيب:

– أستغفر الله وأتوب إليه، معك حق يا زياد، لكني لا أستطيع التحكم في خوفي، فأنا أراه في هذه الوجوه البريئة التي تعيش بيننا، أطفالنا يا زياد، لا أستطيع إبعاد شبح الموت والدمار عن مخيلتي وهم في المشهد نفسه، قلبـي يؤلمني جداً يا زياد.

أطرق بنظره إلى الأرض وهو يتمتم:

– وهل تعتقدين بأني لا أفكر بهم مثلك تماماً، ولربما أكثر، لكن إيماني بالله وبقدره أكبر بكثير من أن أيئس من رحمته.

عاد زياد لهدوئه ولمتابعة الأخبار على جهاز المذياع الصغير الذي يملكه والذي ورثه عن أبيه، لتعود أفكاره المضطربة بالاسترسال بصور أقلها يوصف بالمرعب.

لم يعد زياد قادراً على إيجاد أجوبة لأبنائه عندما يسألونه عمّا ستؤول إليه أوضاعهم، يحس بانكسار في كل لحظة وهو يراهم يتضورون جوعاً وعطشاً. أي قهر وذل أكثر من ذلك، أن تكون عاجزاً عن توفير أبسط مقومات الحياة لأطفالك، أن تراهم يذبلون أمامك ولا تستطيع أن تقدم لهم أي شيء، أي بؤس أكثر من ذلك؟ ثم يعود لنفسه ليقول «هي لله»، ويدعو ربه أن يرزقه الصبر والثبات، وألا يفجعه بأحدهم.

مرت أشهر وهم يرضخون تحت وطأة هذا الحصار الخانق، لا أدوية ولا غذاء ولا ماء، كل سبل الحياة انقطعت عنهم، بالأمس رأى بعينه بعض الأطفال يبحثون عن أوراق خضر بين ركام المباني المهدمة ليسدوا بها بعضاً من جوعهم. (لا بد لليل أن ينجلي... ولا بد للقيد أن ينكسر)[6]، كان ينتظر عتمة الليل ليستتر بها في تنقله، فلقد كان على موعد مع بعض الإخوة في حارتهم ليتباحثوا أمر توفير الغذاء والماء لمن حوصروا معهم، وفيما هو جالس يسبح الله وهو غائب عن واقعه بادرته زوجته بسؤال لم يخطر على باله:

– زياد، لو خيروك بالتضحية بأحد أبنائك، من ستختار؟

نظر إليها فزعاً، اتسعت عيناه واحمر وجهه، وبدأ العرق يتشكل شيئاً فشيئاً على جبينه، انعقد لسانه، وتوقف عقله عن التفكير، تسارعت دقات قلبه، نظر إلى السماء تائهاً، ثم أطرق بنظره إلى الأرض، حاول منع دمعة تحاول الهرب من عينيه دون فائدة، ذكر الله عدة مرات قبل أن يجيبها قائلاً:

– لِم تفعلين ذلك بـي يا سعاد؟ بل لِم تفعلين ذلك بنا؟ ألا يكفي ما نعانيه من ويلات هذا الحصار؟ أليس الأولى أن نكون عوناً لبعضنا البعض؟ ما الفائدة من هذا الكلام؟ لن يغير شيئاً في واقعنا.

أجابته وهي تمسك بيده وقد بدأت دموعها بالانهمار بشكل غزير:

– بل أنا الآن أكثر واقعية منك، كنت أتحين الفرصة منذ أسبوعين أو أكثر كي أطرح ما يدور في ذهني أمامك، لكني لم أجد فرصة مناسبة أخلو بها معك. الموضوع يا زياد يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وقد نجد أنفسنا قريباً أمام هذا الخيار، سأكون حينها في أشد لحظات ضعفي، وسيكون الخيار صعباً جداً، والمفاضلة ستكون بين الحياة والموت، صدقني يا زياد بأني أموت ألف مرة وأنا أفكر بهذه اللحظة، والآن أحس بأن روحي بعيدة كل البعد عن جسدي وأنا أحدثك بهذا الموضوع، لكني مقتنعة تماماً بأنه علينا التفكير جدياً في خياراتنا إن صادفنا هذا التحدي، لن أسمح بأن أخسر جميع أبنائي، عليّ أن أضحي بأحدهم ليسلم الآخرون، ماذا أفعل يا زياد، أكاد أُجن.

انهارت عندها سعاد باكية، صارت تبكي بحرقة وهي تردد أسماء أبنائها واحداً تلو الآخر:

– فاطمة يا روح أمك ويا ربيع عمرها، هبة يا نسمة البيت، زهرة يا نبض قلبـي، أحمد يا أمل عمري. آه يا قلبـي وروحي وعمري وحياتي، آه يا فلذات كبدي، أي قلب سأحمل إن ضاع مني أحدكم، أي عمر سأعيش بدونكم، يا رب ارحم ضعفي، يا رب ارحم عجزي، يا رب خذني إليك قبل أن تفجعني بأحدهم.

احتضنها زياد بقوة ودموعه تغسل همه وألمه، احتضنها وهو يشهق باكياً واضعاً يده بحنو حول رأسها وهو يهمس في أذنها:

– اذكري الله يا سعاد، اذكري الله وتوكلي عليه، فلا رحمة أكبر من رحمته، ولا فضل بعد فضله، ألا تؤمنين بأن الله أرحم الراحمين؟ وأن قضاءه ماضٍ، وأن الخير كل الخير فيما قضى، أين إيمانك وصبرك يا سعاد؟

تمتمت وهي تمسح بيدها دموع زياد التي لم تشأ أن تراها ممن تعتبره سندها في هذه الحياة، ثم أجابته:

– ونعمى بالله، صدقت، لكن الإنسان ضعيف، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الولد مبخلة مجبنة»[7]. لكني صادقة وجادة في حديثي إليك يا زياد، نحتاج أن نوطن أنفسنا على قبول الأمر وسرعة اتخاذ القرار، فلربما حينها نكون عاجزين عن التفكير. أعرف أن الأمر صعب على كلينا، لكني كلما فكّرت فيه أجد نفسي بحاجة إلى أن أزيد اهتمامي بمن سيقع عليه خيارنا حينها، أريد أن أمنحه كل حنان الأرض لأني قد أفقده قبل إخوته.

همس لها وهو يحتضن رأسها لصدره:

– توكلي على الله، وأزيحي هذه الأفكار عن رأسك، واتركي الأمر لله ليقضي فيه كيفما شاء، وأعدك أنني سأفكر بالموضوع ولكن بطريقة مختلفة عنك، فقط أرجو أن تزيحي هذه الفكرة من رأسك، وأن تستعيذي بالله من الشيطان الرجيم عندما تخطر على بالك.

أجابته بشكل حاد وواضح، وهي تحدق بعينيه بشكل مباشر:

– أرجوك يا زياد، لن أحتمل أن أحدثك بالأمر مرة أخرى، أريد أن أخلص إلى نتيجة واضحة نكون متفقين عليها، بعدها أعدك أن أحاول قدر إمكاني أن ألغي الفكرة من بالي تماماً. ولكن بما أننا تحدثنا به، أتمنى منك أن تنهيه الآن. أكاد أجن لعدم مقدرتي على وضع أي معيار أبني عليه قراري حينها، وأنا على يقين أنك ستكون حينها مثلي إن لم يكن أشد، وستكون حينها أنت متخذ القرار، فمن الضروري أن نكون متفقين من الآن على خيارنا، لن أحتمل اللوم ووطأة الشعور بالذنب بعدها، صدقني سأموت ألف مرة بعدها إن لم نكن مقتنعين بأن هذا كان قرارنا جميعاً.

سكت زياد قليلاً قبل أن يجاوبها بصوت هادئ وواثق:

– تأكدي يا سعاد أن ظروف اتخاذ القرار حينها سترشدنا إلى أفضل الخيارات، من المستحيل أن أضع الآن أي تفضيل بين أبنائي، إن ابتلانا الله هذا الابتلاء، فأنا على يقين أن رحمته ستشملنا وتكون عوناً لنا في اتخاذ الأنسب، وهذا الجواب الذي لدي ولن أجيبك بغيره أبداً، ولن أفترض السيئ، ولن أشترط على ربي طرق امتحاني أو ابتلائي، فإن صادفنا هذا الامتحان فسيكون الله خير معين لنا على أن نفعل الأصوب، أرجوك كفي عن التفكير في هذا الأمر، وعديني أن تلغي الفكرة من بالك تماماً، وأن يكون إيمانك بالله وابتلاءاته والرضا بها أمراً يقينياً لا شفهياً، «إذا أحب الله قوماً ابتلاهم»[8].

صمتت لبعض الوقت وهي مطرقة الرأس، ثم أجابته قائلة:

– نعم صدقت، أعدك أن أحاول قدر إمكاني أن أتجاهل هذه الأفكار، ولعل الله أن يكتب لنا الفرج من عنده. سأذهب لأطمئن على الأطفال.

قبّلت يده ثم رأسه وتركته في عالمه الخاص.

خلال الأسابيع القليلة التالية، استمر القصف العنيف مع الحصار، وزاد عليه اقتحامات متفرقة مع ما رافقها من اعتقالات وتصفيات ميدانية مباشرة ومجازر جماعية.

في هذه المرحلة، أحس زياد بأن إدراكه لحقيقة الموت أصبح موجوداً عند أهالي الحي أيضاً، فباتوا يعرفون حقيقته واقعياً وليس نظرياً، حتى تعاملهم وتقبلهم للموت وما يرافقه في بعض الأحيان من مناظر يعجز اللسان عن وصفها أصبح أكثر انضباطاً ورباطة في الجأش، فلم يعد الخيار قائماً في التهرب من مواجهة الموت وآثاره، هي لعبة بقاء على قيد الحياة والتعامل مع معطياتها، ففي كل مرة يحدث فيها قصف وهدم، لا بد له من مشاركة الأهالي في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وإخراج الجثث من تحت الأنقاض لدفنها، صار التعامل مع هذه المشاهد واقعاً لا بد منه.

خلال هذه الفترة سمع بأن عناصر «الجيش الحر» قرروا الانسحاب من أحياء «حمص» القديمة، لم يكن يهتم كثيراً بمثل هذه الأخبار، فلقد تكونت عنده قناعة أكيدة بأن هذه التحركات لا تعني أي شيء على أرض الواقع، فالمشهد الذي يعيشه كان أصدق من أن يتأثر بأي خبر يتناقله الناس وعن نتائجه المتوقعة، كان يقينه بأن النظام يقوم بتدمير ممنهج لهذا الجزء من «حمص» ويقوم بتهجير أهله كي يصبح أرضاً خربة خالية ممن ينتمون إليها.

لم يكن لانسحاب عناصر «الجيش الحر» ذاك الأثر الكبير على إجرام النظام تجاه أهالي الحي ومبانيهم، سوى أنه أصبح هناك أمل أكبر في إمكانية الهروب من «حمص» إلى خارجها، فالاتفاقيات العلنية وغير العلنية بين ضباط جيش النظام وبين بعض الأهالي أصبحت متداولة، وإمكانية الهروب من الأحياء المحاصرة صار ممكناً.

كان زياد كمن بقي من أهل حارتهم، قد جعل جزءاً من بيته هو المأوى لهم في أوقات القصف والاستهداف، وبخاصة بعد أن تم تدمير أجزاء كبيرة من الطوابق العليا للمبنى، فاستهدافه مرة أخرى أصبح أقل احتمالية، ولم يعد في عمارتهم سواهم مع إحدى العوائل التي تسكن معهم في الطابق نفسه.

بعد سماعه الكثير مما يتم تداوله من إمكانية الهرب مع ضمانات بعدم الاستهداف، اتخذ قراره، لكنه كان يريد أن يتأكد أن الطريق التي سيسلكها للخروج من الحي والأشخاص الذين سيتعامل معهم ممن يوثق بهم، فلن يخوض أي مغامرة باختياره الشخصي للخروج من الحي، فإن كان قضاء الله واقعاً عليه أو على أهله، فليكن هذا القضاء وهو يجلس بينهم في منزلهم.

لم يمضِ وقت طويل حتى وجد زياد من يثق به في مسألة ترتيب خروجه مع أولاده، ليس من الحي فقط، بل إلى خارج «حمص» كلها حيث الأرياف، والتي يمكن التنقل فيها تحت جنح الظلام بشيء من الأمان.

كانت خطة الخروج تشمل التحرك تحت الظلام بين المباني المهدمة للوصول إلى طرف الحي، من ثم الانتقال إلى الحركة في أنفاق حفرها الأهالي لِما بعد الحواجز الأمنية إلى خارج «حمص»، وبالاتفاق مع بعض ضباط النظام لضمان عدم الاستهداف حتى البعد عن أطراف «حمص» لما يزيد عن العشرة كيلومترات.

عقد زياد العزم وطلب من الرجل الذي اتفق معه على خطة الهرب بأن يمهله يومين أو ثلاثة حتى يقوم بترتيب أموره مع عائلته، ركّز زياد حينها على أن يكون متأكداً أن خروجه من «حمص» مع عائلته سيكون بشكل منفرد وليس ضمن مجموعة، كانت لديه قناعة أن الخروج الجماعي سيكون أكبر خطراً وأكثر إمكانية للابتزاز أو الاستهداف، مع إيمانه الداخلي بأن السير ضمن مجموعة بعد الخروج من قبضة الحصار سيكون أكثر أمناً وفائدة.

عند عودته إلى منزله، أشار إلى سعاد فور دخوله بأن تتبعه، قامت من فورها تسير وراءه وعيون أبنائها تتابع حركتها، ما أن خلا بها حتى قال لها:

- سنغادر خلال اليومين القادمين، سنخرج من «حمص»، يجب أن نكون مستعدين

لهذه الرحلة.

وجمت سعاد قليلاً قبل أن تجيبه، لم تكن تعرف ما هو إحساسها في هذه اللحظة، هل هي سعيدة أم خائفة؟ بقيت على هذه الحالة لعدة ثوانٍ، أحست بيد زياد تمسك يدها وهو يكمل حديثه:

- سعاد، ربما تكون رحلتنا هذه طويلة، أطول مما نظن أو نخطط له، لكن بات علينا أن نبدأها مهما كانت النتيجة، البقاء هنا صار نوعاً من الانتحار، لم يكن لديّ الوقت كي استشيرك بالأمر قبل أن اتفق مع الذي سيساعدنا في هذه الرحلة، لكني أثق تماماً بأنه الخيار الأفضل الذي أمامنا الآن، وأنا الآن بحاجتك بشكل كبير جداً، لن أستطيع أن أخطو أي خطوة دون مساعدتك بشكل كامل، فأي حركة لنا الآن ستؤثر بشكل كامل على أبنائنا وعلى بقائهم ومستقبلهم.

عند هذه اللحظة وكأن ذكر زياد لأولادهم أحيا فيها نبضاً كاد يخبو، تفاعلت بشكل أكبر وأجابته على الفور:

- توكل على الله يا زياد، أنا معك في أي أمر تراه الأنسب لنا، ولن أطرح عليك أي رأي يريبك قراراتك، قل لي فقط ما هو المطلوب مني الآن، وسأفعله على أكمل وجه.

قبَّل جبينها بحنو وهو يقول:

- أعاننا الله على ما نحن مقدمون عليه، أولاً علينا أن نحزم ما يمكننا حمله معنا من مال وما قمنا بتوفيره من ذهب ومصوغات، وأن تقومي بتجهيز البنات نفسياً لهذه الرحلة، وبالذات فاطمة، فإخوتها يستمدون القوة منها في كثير من الأحيان. أما أمور هذه الرحلة، فسأقوم بترتيبها بأفضل شكل بإذن الله.

أومأت له وهي تتجه حيث تركت أولادها وهي تقول:

- لا عليك، دع أمر الأولاد لي، واهتم أنت بترتيب الرحلة.

خرجت متجهة لأولادها وهي تفتح ذراعيها بابتسامة تشع من وجهها وهي تقول:

- لديّ خبر سار لكم جميعاً، من منكم يبادرني باحتضانه حتى يكون أول من يسمع هذا الخبر.

كانت فاطمة أول القافزين إلى حضن أمها وهي تصرخ بفرح ودمعة من عينيها قد خرجت وهي تقول:

- وأخيراً يا أمي سنرحل، وأخيراً سنخرج من هذا الجحيم الذي لا يطاق.

ضحكت سعاد وهي تحتضن فاطمة وتقبل رأسها قائلة:

– نعم، سنرحل بإذن الله، سنرحل من هنا وستشعرون بالأمان مرة أخرى، سنستعيد حياتنا إن شاء الله بعيداً عن هذا الجحيم.

التف الأولاد جميعاً حول أمهم وهم يتصارخون فرحين. وزياد يقف في إحدى الزوايا يراقب هذا المشهد وقلبه ينزف من فرط التأثر.

بدء الرحلة

– حان وقت الرحيل... بسم الله توكلنا على الله.

هذا ما قاله زياد لعائلته الصغيرة موجهاً كلامه بشكل مباشر إلى زوجته. فما كان من سعاد إلا أن بدأت تتنقل نظراتها بينه وبين أبنائها الأربعة وفيها عشرات الكلمات، كان هناك ضجيج خافت يدور في ذهنها، «هل حقاً سنترك أرضنا؟ سنترك حارتنا؟ سنترك بيتنا؟ سنترك ذكريات الطفولة والشباب؟ سنترك ذكريات زواجنا؟ سنترك طموحاتنا وآمالنا؟ سنبتعد عن تاريخنا وكل ما يعنينا في هذه الحياة؟ آه من هذا القلب الذي لم يعد يطيق هذا الكم من الخوف والألم».

أمّا زياد فكان يفكّر بشكل مختلف تماماً، لم يكن في حالة تسمح له باجترار عواطفه والخضوع لها، فخوفه مما هو مقدم عليه ومسؤوليته عن زوجته وأبنائه الصغار كان هو الشعور الوحيد المسيطر عليه، كان مدركاً أن بداية الرحلة هي أصعب مرحلة، وهي المكروه الذي لا بد منه، فانتقالهم من حارتهم إلى طرف الحارة المجاورة لحارتهم هي أكبر مخاطرة سيقوم بها هو وعائلته، والمنطقة هذه باتت مكشوفة بسبب الهدم الذي وقع فيها. لكن لا مهرب من تجاوز هذه المسافة، فسلسلة الأنفاق التي سيسلكونها ليخرجوا بعدها باتجاه قرية «خربة السودا»[9] شمالي غرب «حمص» تبدأ من بيت جارهم «أبو رامي» في الحارة المجاورة، لينتقلوا بعدها بين المزارع إلى «قرية رام جبل»[10] ثم إلى «مدينة حديدة»[11] ومن بعدها إلى قرى لبنان حيث يتيسّر لهم. كانت هذه هي خطة المسار الذي سيسلكه مع أبنائه، كما أنها كانت تشمل الاتفاق مع بعض ضباط النظام المجرم بعدم التعرض لفترة محددة مقابل مبلغ مالي كبير جداً، والوقت الذي أمامهم محدود، وعدم التزامهم بالجدول الزمني الموضوع لهم يعني عدم التزام ضباط جيش النظام بعدم التعرض لهم، كانت الخطورة تكمن في وجود قناصة يتربصون بأي حركة في الحارة على مدار الساعة، يطلقون النار على أي شيء يتحرك حتى وإن كان دابة هائمة، ورغم أن المسافة لا تتجاوز المائة متر، لكن اجتيازها مع أبنائه يعتبر كابوساً مرعباً بالنسبة إليه، لكنه استخار الله وقرر اجتيازها مهما كانت النتائج، وسيستتر بظلمة الليل، فهو ستاره الوحيد المتوفر، وإن كان أجله أو أجل أحد أبنائه في هذا اليوم فلا مهرب من قضاء الله.

توجهت سعاد نحو أبنائها لتتأكد من جاهزيتهم لهذه الرحلة مع كل ما قد يصاحبها من مشقة وخوف وتعب. كانت قد أعدت كل واحد منهم بشكل كامل، ألبستهم ثلاثة أطقم من الملابس، ووضعت لكل واحد منهم مجموعة من الملابس الداخلية وبعضاً مما قد يحتاجه داخل قطعة قماش مناسبة، وربطتها بإحكام على ظهورهم كي لا تشكل لهم عائقاً في الحركة، وأحكمت أطرافها حول خصرهم وأكتافهم. أما ما يدخرون من مال وقطع ذهبية بسيطة، فقد وزعتها بينها وبين ابنتها فاطمة، وخبأتها بصرّة صغيرة ربطتها حول بطنها تحت الملابس خوفاً من أن يهاجمهم أحد بغرض سرقتهم. وبقي بعض النقود التي قد يحتاجونها في تصريف أمور رحلتهم مع زياد. توجهت بكلامها لأطفالها قائلة:

- هيا يا أبنائي، نتوكل على الله، من منكم سيقول لنا دعاء السفر؟

رد أحمد بشكل مباشر:

- أنا ماما، أنا سأقوله، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنّا بعده... امممممم... آها... اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل. هل قلته بشكل صحيح أمي؟

أجابته سعاد وهي تحتضنه:

- صحيح، اللهم آمين، اللهم آمين.

نظر إليهم زياد بابتسامة صغيرة وكلّه خوف ورجاء بأن ييسر الله أمر خروجهم من تحت هذا الحصار دون أن يفجعهم بمصيبة لا يقدرون على تحملها.

كان زياد حريصاً على التأكد من جاهزية أبنائه وزوجته لهذه الرحلة، بِدءاً من اللباس الذي يلبسونه، فارتداء أحدهم لألوان فاتحة أو لامعة قد يودي بحياتهم جميعاً، وتعثر أحدهم في مشيه قد يكون له مخاطر كبيرة، بعد أن تأكد من كل شيء، وقف بينهم وأخذ يحدثهم بهدوئه المعهود قائلاً:

- انتبهوا جيداً لما سأقوله لكم، رحلتنا اليوم ليست كأي رحلة سابقة قمنا بها سوياً، أنتم اليوم يا أحبابـي كبار، وتعون ما نمر به، لذا عليكم الالتزام بما أقوله لكم حرفياً، إياكم أن تصدروا أي صوت أثناء مشيكم مهما كان السبب، إياكم أن تبتعدوا عنّي أو عن والدتكم، هل فهمتم ما أقول؟

كانت وجوه الأبناء صامتة، خائفة، باستثناء أحمد الصغير الذي أجاب والده بانفعال واضح:

- نعم يا أبـي، أنا فهمت، وأعدك بأن أكون معك دائماً، لا تخف عليّ.

احتضن زياد أبناءه الأربعة مستدركاً الضغط الذي شكله عليهم بتوجيهه وهو يقول لهم:

- لا أقصد إخافتكم يا أحبابـي، فالله معنا في كل وقت، وهو ولينا ونصيرنا، لا تكفوا عن ذكر الله والدعاء في كل وقت، هيا بنا الآن، سنخرج من البيت بهدوء، ونسير بمحاذاة المباني المهدمة حتى نصل لآخر الحارة، وسنقف هناك قليلاً حتى يمكننا الانتقال إلى الحارة المجاورة. بسم الله توكلنا على الله.

سار الجميع تحت جنح الظلام كما أوصاهم زياد، كانوا يسيرون خلفه كسرب صغير من البط يسبح خلف أمه بحثاً عن الطعام، لم تمض سوى دقائق عدة حتى وصلوا لنهاية الحارة، عندها دخلوا إلى أحد المباني المهدمة يسبقهم زياد، ساروا بين الأنقاض إلى الطرف الآخر من

المبنى، كان زياد يساعد أبناءه وزوجته في تجاوز الأنقاض حتى وصلوا إلى باب شبه مدمّر من جراء القصف، عندها أشار لأبنائه بأن يخفضوا رؤوسهم وأن يجلسوا صامتين بانتظار توجيهه.

تقدم زياد من الباب بهدوء مخرجاً رأسه بحذر ليتأكد من خلو الطريق من أي شيء، كان الظلام يخيم على كل شيء، والهدوء مخيف، لكنه الغطاء الوحيد الذي يعتمد عليه في تحركه لوجهته. عاد بجسده للداخل وبدأ يهمس لأولاده ولسعاد بشكل جاد وواضح:

- اسمعوني جيداً، سأجري مسرعاً أمامكم باتجاه منزل جارنا «أبو مروان»، وسأدخل منزله مباشرة، سأنتظركم عند باب المنزل، وستقوم أمكم بإرسالكم واحداً تلو الآخر، يجب أن تسرعوا في جريكم حيث أكون، وأن يكون جريكم متعرجاً قدر الإمكان كما سأفعل أمامكم، وإياكم والتوقف لأي سبب كان أو إصدار أي صوت مهما يكن، وحتى إن سمعتم أي طلق ناريٍ فلا تأبهوا به، فقط أسرعوا تجاه موقعي، هل استوعبتم ما أقول؟

أجابوه جميعاً بهمس:

- نعم فهمنا ذلك.

فاجأه أحمد بسؤال بريء:

- أب.ي، كيف سأجري تجاهك بسرعة وبشكل متعرج؟ أخاف ألا أعرف أو أن أسقط.

ابتسم زياد واحتضنه وهو يجيبه:

- أنت وأختك زهرة ليس عليكما أن تجريا بشكل متعرج، فقط أسرعا باتجاهي دون أي تردد، أما الباقون فعليهم ذلك.

سكت قليلاً وهو ينقل بصره بينهم واحداً واحداً، ثم نظر إلى زوجته بشكل مباشر وهو يقول لها:

- سعاد، بعد أن أصل لوجهتي، وعند إشارتي لك، سترسلين أول واحد أحمد، ثم هبة، ثم زهرة ثم فاطمة، ثم تلحقين بهم. هل هذا واضح؟ وإياكِ أن تخرجي جسدك كاملاً، فقط استرقي النظر حتى تري إشارتي لك، عندها تجعلينهم ينطلقون بشكل مباشر، ولا تطلقي الثاني حتى تتأكدي من وصول الأول حيث أكون.

ثم عاد ليوجه كلامه لأبنائه قائلاً:

- وحتى عندما تراقبوني وأنا أنطلق بعد قليل، كونوا حذرين جداً من إظهار أجسادكم من باب المنزل، فقط أخرجوا طرف رؤوسكم كي تراقبوا تحركاتي.

قالت له سعاد وهي تمسك بيده:

- لا عليك، توكل على الله.

عاد زياد لاختلاس النظر خارج المنزل، حاول النظر إلى البعيد حيث يتوقع وجود قناصة لعله يرى أي أثر يدل على وجودهم، عاد بجسده للخلف، أخذ بالاستعداد وهو يدعو الله بالتيسير، فتح الباب بشكل كامل ثم انطلق، انطلق لا يفكر بغير الوصول إلى الطرف الآخر من الحارة حيث منزل جارهم أبو مروان، أخذ يجري بشكل متعرج، يجري ولا يكاد يسمع سوى أنفاسه، لم يستغرق الأمر منه سوى أقل من دقيقة حتى وصل إلى مبتغاه، وجد من يستقبله عند باب بيت جاره أبو مروان، إنه ابنه مروان، أدخله بشكل سريع إلى المنزل وهو يقول له:

- الحمد لله على سلامتك، ليتك أجّلت انتقالكم ورحلتكم للغد أو أي يوم آخر. فما زال أمامنا متسع من الوقت.

أجابه زياد وعلامات الإرهاق والخوف بادية عليه:

- لِم تقول هذا يا مروان، ألم نتفق على كل شيء؟

فقال له مروان وهو يربت على كتفه:

- القناصة الأنذال موجودون اليوم، رأيتهم قبل قليل وأنا أراقب موقعهم من سطح منزلنا، وحاولت أن أنبهك لوجودهم لكنك كنت قد تحركت، الحمد لله أنك وصلت سالماً، لكني أخشى على الأولاد ألا يتمكنوا من قطع هذه المسافة دون أن يصابوا.

اصفرّ وجه زياد، وكادت أنفاسه أن تنقطع وهو يستمع إلى مروان، تخيل أن يقتل أحد أبنائه أمامه، سكت قليلاً وهو مغمض العينين، ثم قال:

- لن أتراجع، لقد استخرت الله، وسأكمل ما بدأت به، زوجتي في الطرف الآخر تنتظر مني الإشارة كي تبدأ بإرسال الأولاد واحداً تلو الآخر، لنتوكل على الله، لكني أرجوك أن تبقى بجواري لنتحرك سوياً في حال حدوث أي طارئ لا سمح الله.

ربَّت مروان على كتفه وهو يقول:

- توكل على الله، قم بمتابعة الأطفال أثناء حركتهم وأنا سأراقب الجهة الأخرى زيادة في الحرص.

أخرج زياد طرف رأسه ليراقب باب بيتهم، وعندما رأى رأس سعاد يظهر، أعطاها الإشارة بإرسال أحمد، ثوان قليلة وإذ به يرى أحمد ينطلق باتجاهه بسرعة عالية، أخذ يراقبه وقلبه ينبض معه في كل خطوة يخطوها، يدعو الله ويصلي على رسول الله، يراقب تخلجات وجه هذا الملاك الصغير، رأى أحمد يحاول أن يتعرج في خطواته بشكل مضحك، مرّت هذه الدقيقة بشق الأنفس، ما إن اقترب أحمد من المنزل حتى قفز زياد خارج المنزل ليلتقطه ويدخله إلى المنزل، احتضنه وهو يقول له:

- أحسنت يا أحمد، أحسنت يا بطل، الحمد لله على سلامتك.

أجابه أحمد وهو يلهث:

- هل رأيتني بابا وأنا أتعرج في جريي، لا أريد منهم أن يقنصوني.

احتضنه مرة أخرى وهو يفكر، «يا رب لطفك بنا، كيف لهذه الطفولة أن تفكر بالموت بهذه الطريقة وهذا الشكل»، انتبه لوضعه وهو يسمع همس مروان في أذنه قائلاً:

- زياد، انتبه في المرة التالية من تكرار ما فعلت، من الخطر جداً أن تخرج بجسدك خارج المنزل بهذا الشكل، فهو يلفت الأنظار بشكل كبير، ولو أن القناصة كانوا مستعدين لأصابوك بسهولة.

أجابه زياد:

- معك حق، لكني لم أتمالك نفسي يا مروان.

أظهر رأسه مرة أخرى من طرف الباب ليعطي سعاد الإشارة لإرسال ابنته، وما أن أعطاها الإشارة حتى رأى هبة تجري باتجاهه بشكل هستيري، كانت علامات الرعب بادية على وجهها بشكل كبير جداً، أرعبه منظرها وهي تجري، كان يخاف عليها من أن تتعثر أو أن تصدر صوتاً ينبه الأنجاس إليها، كان يراها تجري بلا تنفس، كان جسداً آلياً يتحرك بشكل سريع تجاهه، عند وصولها للباب مدّ يده وجذبها بشكل عنيف للداخل، ثم احتضنها وهو يقبلها ويمسح على رأسها ليهدئ من روعها، كانت تلهث وتهمهم بشكل غير مفهوم، حاول أن يصغي أكثر ليستمع لما تهمهم به، وإذ بها تقول وبأحرف متقطعة يملؤها الرعب:

- الحمد لله لم أمت، الحمد لله لم أُقتل.

احتضنها بقوة وهو يتمتم في أذنها:

- لا يا أبـي، أنت تحبين الله، والله يحبك، لا تخافي يا صغيرتي.

تناولها مروان منه وهو يقول له:

- لا تضيع الوقت يا زياد، هيا لاستقبال البقية.

أطل زياد بطرف رأسه ليراقب الطريق ويعطي الإشارة لسعاد بعد أن أدخل ابنته إلى داخل المنزل، وقبل أن يعطي الإشارة انتبه لمروان وهو يقبض على كتفه بقوة إشارة على التوقف، عاد للداخل مستفسراً من مروان، فقال له مروان:

- أرى أثر ضوء في موقع القناصة، انتظر لدقائق بسيطة، لا نريد أن نلفت انتباههم أبداً، لا مجال للخطأ هنا.

صبر زياد لبضع الدقائق حتى تلقى إشارة من مروان باستدعاء الباقي، أعطى الإشارة لسعاد بالطريقة السابقة نفسها، رأى زهرة تجري بخطوات واثقة وبشكل خفيف ومتعرج، كان يرى في عينيها الثقة والإصرار، أحس بشيء من الطمأنينة لشجاعتها ونظراتها، وصلت لأبيها ودخلت دون مساعدته بخفة وهي تقول:

- الحمد لله، لا تقلق يا أبي، فالله يحمينا، أخشى ما أخشاه على فاطمة، فهي مضطربة جداً، يا رب سلمها.

أقلقته هذه العبارات من زهرة، لم يضيع وقتاً، أشار لسعاد إشارة الانطلاق لكن فاطمة تأخرت بالخروج، في هذه اللحظة كانت سعاد تحتضن فاطمة وهي تقول لها:

- لا تخشي شيئاً يا ابنتي، ها هم إخوتك وصلوا بسلام، لا يوجد أحد من القناصة يا حبيبتي، اعتمدي على الله، ولا تفكري بشيء، فقط انطلقي باتجاه أبيك دون تفكير بأي شيء.

أجابتها فاطمة وهي تبكي بصوت مخنوق:

- أنا خائفة جداً يا أمي، لا أريد أن أموت، لا أريد أن أقتل بهذا الشكل، لا أريد أن يتعفن جسدي بالشارع، أنا خائفة جداً يا أمي.

احتضنتها أمها مرة أخرى وقالت لها وهي تنظر إلى عينيها بشكل مباشر وبعبارات فيها الإصرار:

- ليس مقبولاً منك هذا الكلام يا فاطمة، أنت أشجع من ذلك، وأنت مؤمنة ومدركة بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لن أنتظر كثيراً، هيا يا ابنتي، استجمعي قواك وانطلقي بشكل مباشر دون تفكير بأي شيء سوى بالله، فهو الرحمن الرحيم.

أخذت فاطمة نفساً عميقاً استجمعت فيه ما تملك من قوة ثم انطلقت باتجاه والدها لا تلوي على شيء.

أخذ زياد يراقب خطواتها المتعرجة وقلبه يكاد أن يقفز من مكانه من فرط الخوف عليها، لم تمض سوى لحظات حتى رآها تتعثر وتكاد تسقط، شهق شهقة أوقفت أنفاسه، أحس بيد مروان تقبض عليه بشدة لتمنعه من الحركة وهو يهمس في أذنه:

- ستصل، لا عليك، إن شاء الله ستصل، لا تتعجل.

ما أن انتهى مروان من كلماته حتى رأيا فاطمة تهوي على الأرض وهي تطلق صرخة كانت مدوية في السكون البهيمي الذي كانوا فيه، نظر مروان باتجاه موقع القناصة ليرى إضاءة واضحة تدل على انتباههم لما يجري، فقال لزياد وهو يدفعه بقوة:

- الآن أحضرها بسرعة.

قفز زياد باتجاه ابنته قبل أن ينهي مروان كلماته، وفي غضون ثوانٍ كان قد حمل ابنته على كتفه وعاد بها بشكل سريع وهو يسمع طلقات أعيرة نارية ولا يعرف هلْ أصيب أم أصيبت ابنته، ما إن دخل المنزل حتى أنزلها وهو يراها مغمى عليها من فرط الخوف، قال لمروان وهو يلهث:

- هل أصابوها بطلق ناري؟

طمأنه مروان وهو يجيبه:

– لا تخف يا زياد، الطلقات كانت من مسدس وليست من بندقية القناصة، أي أنه لن يصل لكم أثرها، هي الآن فاقدة لوعيها من فرط الخوف، أدخلها وسيقوم النسوة بالاهتمام بها.

عاد زياد إلى الباب بعد أن أدخل فاطمة ليكمل المهمة مع مروان، نظر إلى مروان وهو يسأله:

– ما العمل الآن يا مروان، هم الآن يراقبوننا، وفرص نجاح سعاد في قطع هذه المسافة أراها صعبة جداً، ما رأيك؟

أجابه مروان والقلق يتملكه:

– الخيارات التي أمامنا محدودة، وكلها خطرة، خيارنا الأول أن نؤجل انتقال زوجتك لحين هدوء الوضع، وهذا قد يستغرق أياماً، لأنهم أنجاس، وبما أنهم رأوا حركتنا، فإنهم سيستمرون بمراقبتنا بشكل متواصل، وهذا يعني عدم استطاعتكم اللحاق بالآخرين في خروجهم من الحصار ضمن الاتفاق المبرم، أما خيارنا الثاني أن نقوم بالمغامرة بما نستطيع من تضليل وإشغالهم حسب قدرتنا، القرار بيدك، لكني متأكد الآن من جاهزيتهم للقنص، وربما كانوا أكثر من واحد، ها أنا أضع الأمر كله أمامك، والقرار لك.

سكت زياد للحظات وهو يفكر في ما قاله مروان، وإذ به يحس بيد ابنه أحمد تمسك بيده، التفت له ليسمعه يقول:

– بابا، ألن تأتي ماما، هل سنسافر من دونها.

ارتعب من هذه الجملة، مسح على رأس ابنه وهو يقول له:

– ستأتي الآن يا ولدي إن شاء الله، ادعُ لها بالتيسير، ادخل الآن.

نظر إلى مروان وفي عينيه تحدّ مع رجاء وهو يقول له:

– مروان، سأخرج راكضاً بالجهة الأخرى لأضلّلهم وأشغلهم، وأعطِ أنت الإشارة لزوجتي وساعدها في الوصول.

فأجابه مروان بحدة:

– بل انتظرها أنت هنا، وأنا من سيقوم بتضليلهم. توكل على الله يا أخي، وان سقطت على يد القناصة، فلا تنسَني من دعائك.

رفض زياد طرح مروان قائلاً:

– لا يمكنني قبول ذلك يا مروان، لن أسمح لك بأن تعرض نفسك للخطر من أجلي أو

من أجل أبنائي، ما أتمناه منك وأرجوه أن تساعدني باستقبال سعاد ومساعدتها على الوصول إن احتاجت إلى المساعدة.

قابله مروان بابتسامة صافية ووضع كلتا يديه على كتف زياد وهو يجيبه:

– يا أبا أحمد، فيما نحن فيه، كلنا أسرة واحدة، ولن أعتبر نفسي مضحياً بأن أحمل عنك هذا الأمر، القضاء بيد الله، والمنطق يقول إن الأنسب أن أضلّلهم أنا وأن تساعد أنت زوجتك، ولن أقبل بغير هذا، فلا تضيع الوقت، هيا يا أخي توكل على الله.

احتضنه زياد وهو يجيبه:

– إذاً أحضر ما استطعت من أدوات لتضليلهم قبل خروجك، وأنا سأنتظر إشارتك وسماع صوتك.

استغرق الأمر من مروان لحظات حتى سمعه زياد يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

– الله أكبر.

في اللحظة نفسها أعطى زياد الإشارة لسعاد لتنطلق بشكل مباشر من بيتهم متجهة نحوه بأكبر سرعة تملكها، في هذه اللحظات ضجت الحارة بالتكبير من كل جهة وبصوت عالٍ، كان هذا الأمر متعارفاً عليه بين سكان الحارة لتضليل القناصة عند عبور أحدهم، كان مروان قد أخذ معه وعاءين من التنك فارغين في كلتا يديه، رمى أول واحد بعيداً عنه بالجهة المعاكسة لمنزل زياد عندما صرخ مكبراً، انطلق مسرعاً في الوقت نفسه بشكل متعرج في الحارة بين جوانبها، سمع طلق عيار ناري من بندقية القنص، حمد الله أنها لم تصبه، بعد لحظات توقع أن المسافة التي قطعها كافية لوصول سعاد، أدار ظهره راجعاً من حيث انطلق، وهو يرمي وعاء التنك الثاني بعيداً عنه ليشغل بها القناص، كان يراقب وصول سعاد لبيتهم، سمع طلقاً نارياً ثانياً، وكان ذلك آخر شعوره بهذه الحياة.

راقب زياد عودة مروان بعد أن أدخل سعاد المنزل، رأى استشهاد مروان أمام عينيه، رأى رأسه ينفجر، رأى جسده يهوي على الأرض بعيداً عن بيتهم بضعة أمتار، صرخ بقوة:

– يا لله، يا الله.

سمع ترديداً في الحارة للكلمة، فلقد فهم الجميع أن أحدهم قد استشهد على يد قناص.

احتضن زياد أبناءه وسعاد بعد أن ملأت الدموع عينيه، فلقد نجوا بلطف من الله أولاً، وبنجاتهم استشهد مروان، كانت فاطمة قد استعادت وعيها على صوت التكبيرات التي سمعتها إثر سقوط مروان، أحس زياد بيد حانية تربت على ظهره، فالتفت ليرى أبا مروان يبتسم في وجهه ودمعة تسيل على خده وهو يقول له:

– حمداً لله على سلامتك يا ولدي، هيا أكملوا طريقكم، لعلّ الله يجعل لكم فرجاً من عنده.

احتضنه زياد بقوة وقبل جبينه وهو يقول له:

- لا أعرف بما عليّ أن أجيبك يا عم أبو مروان، لو أني منعته من مساعدتنا لكان مروان الآن يقف بيننا، لكنه أصرّ على أن يقوم هو بالتضليل، هو قضاء الله يا عم، وليس عندي ما أقوله سوى عظم الله أجركم وألهمكم الصبر والسلوان، وتقبل مروان عنده في عليين.

ابتسم أبو مروان ابتسامة كلها ألم وهو يجيب زياد قائلاً:

- لا تقل ذلك يا ولدي، أحسب أن ولدي مروان كان صادقاً مع الله، فلقد تمنى الشهادة، وهي اصطفاء من الله، وها هو ينالها بإذن الله، أرجو من الله أن يتقبله وأن يجعله شفيعاً لنا، لا عليك يا ولدي، أكمل طريقك، ولكن عدني أن تدعو لمروان بالمغفرة والرحمة والقبول في كل وقت.

أومأ له زياد واتجه لأبنائه ليرى الدموع قد غسلت وجهي سعاد وفاطمة، كانت فاطمة قد أدركت الوضع التي هي عليه بعد أن استعادت وعيها، أخذت تهمس بكلمات غير مفهومة ونظرات هائمة تسيطر عليها، اقترب منها زياد ليساعدها على النهوض فسمع همساتها وهي تقول:

- أنا السبب، أنا من قتل مروان، لن تسامحني أمه، أنا السبب.

قبَّل رأسها وهو يهمس في أذنها بعد أن استوى وقوفها بجوار أمها:

- بل هي مشيئة الله يا ابنتي، مروان شاب مؤمن، وقد اصطفاه الله بالشهادة بإذن الله، فهنيئاً له.

عاد بنظره إلى باقي أبنائه بعد أن ارتسمت علامات الجد على وجهه مرة أخرى وخاطبهم قائلاً:

- هيا، علينا أن نكمل رحلتنا مباشرة، فما يزال أمامنا وقت طويل نقضيه في قطع المسافة بين الأنفاق والمباني المهدمة حتى نخرج إلى أطراف حمص، لا يمكن أن نتأخر أكثر من ذلك.

كان هناك شاب يافع لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ينتظرهم، وهو دليلهم للوصول إلى مدخل الأنفاق التي ستقودهم للخروج من «حمص». ودّع زياد أبا مروان بعد أن قبّل رأسه وأشار للشاب بالسير ممسكاً بيدي أحمد وزهرة، أما سعاد فبقيت ممسكة بفاطمة تساعدها على السير، وهبة تلحق بهم.

قطع الشاب أول المسافة بهدوء وهو يراقب سير زياد وعائلته الذين يتبعون خطواته بشكل دقيق، قطع مباني عدة من خلال فتحات بين جدرانها تم تغطيتها بشكل متقن بألواح خشبية أو خزائن متحركة، وفي أحدها، توقف الشاب مصغياً ومترقباً لما حوله بعد أن أشار للجميع بالتزام الصمت، وبعد أن تأكد من عدم وجود أي حركة أو صوت حوله، اقترب من إحدى الزوايا التي امتلأت بقطع أثاث مكسرة، طرق عليها طرقات بشكل متتابع ومميز، وبعد ثوان سمع طرقات

شبيهة لها، قام بعدها بإزاحة الركام والقطع المكسرة بشكل احترافي حتى وصل إلى حصيرة ممدودة على الأرض، أزاحها ليكشف عن لوح حديدي ذي مقبض، رفع اللوح بهدوء، فظهر بصيص نور خافت من تحت اللوح، كان الغطاء الحديدي يخفي تحته مدخلاً لسلسلة الأنفاق التي سيسلكها زياد وأبناؤه، ظهر شاب آخر من باطن الأرض ماداً رأسه وهو يسلم عليهم قائلاً:

– السلام عليكم، هيا علينا بالتحرك مباشرة، سأنتظركم بالأسفل، انتبهوا لخطواتكم على السلالم الخشبية أثناء هبوطكم، ولتكن أنت أول النازلين عم زياد.

نظر زياد إلى سعاد وهو يهمس لها:

– بالترتيب السابق نفسه، سأنزل أولاً، وأرسلي الأولاد تباعاً.

هبط زياد داخل النفق الذي كان بعمق يقارب الثلاثة أمتار، ثم بدأ يستقبل أبناءه واحداً تلو الآخر حتى أصبحوا جميعاً في أسفل النفق بشكل متزاحم، نظر زياد إلى فتحة النفق ليرى الشاب الذي رافقهم يشير له بيده مودعاً، شكره زياد بإشارة من يده ليرى بعدها بأن الفتحة أغلقت مرة أخرى بشكل كامل، عندها سمع زياد الشاب الذي استقبلهم في النفق يكلمه قائلاً:

– عم زياد، المسافة التي سنقطعها ليست بالقليلة، وسنستغرق بالمشي بين الأنفاق ما يقارب الأربع ساعات، لكن لا تقلق، فسيمكننا أن نرتاح قليلاً كل ساعة تقريباً، علينا أن نسير بشكل متتابع، وهناك بعض المشقة في بعض الأماكن لضيقها، وقد نشعر بشيء من ضيق التنفس في بعض الأماكن الأخرى لزيادة الرطوبة فيها، ما أرجوه منكم إن أحس أحدكم بالإعياء ليخبرني مباشرة، فأنا أحمل معي اسطوانة أكسجين صغيرة في حال اضطررنا لها لا سمح الله، ولا داعي لأن أذكركم بأن الهدوء والصمت ضروريان في رحلتنا هذه، لنتوكل على الله.

نظر زياد إلى وجوه أبنائه واحداً واحداً ليتأكد من فهمهم لما قيل أمامهم، وليشحن عزائمهم في قطع هذه المسافة، ما أقلقه هو الخوف الذي رآه في عيني زهرة، فهو يعلم أن لديها رهاباً تجاه الأماكن المغلقة، والذي قد يصيبها بالإغماء أو الصرع أحياناً. لذا قرر أن يغير ترتيب سيرهم، فأشار لأحمد بأن يكون أول اللاحقين بالشاب، تتبعه سعاد، ثم هبة ففاطمة فزهرة، وأن يكون هو آخر من يسير خلفهم.

بدأت رحلتهم في هذه الأنفاق، كان أحمد الصغير يتصرف بعفوية ويلعب بجدران النفق أثناء سيرهم ليرى آثار الأتربة المتعلقة بيده، أما فاطمة فكانت تضع يديها على كتفي هبة طوال الوقت، والتي بدورها كانت ممسكة بطرف رداء أمها، أما زياد، فلقد بقي طوال الوقت يداعب زهرة أثناء مشيهم، يقبّلها من رأسها حيناً، ثم يفرك كتفيها حيناً آخر، كان حريصاً جداً على عدم تركها لمخاوفها ولا لحظة واحدة، وصورة استشهاد مروان ترافقه في كل لحظة، يراها في ظل الضوء وفي غبار الأتربة البسيطة، يراها في انحناءات النفق المتعددة.

بعد سيرهم لما يقارب الساعة، وصلوا إلى مكان فيه شيء من الفسحة والسعة، أشار إليهم الشاب بالتوقف، واتجه إلى إحدى الزوايا وفيها صندوق خشبي صغير، أخرج منه قنينة ماء ممتلئة، قدمها لزياد وهو يقول لهم:

- سنأخذ قسطاً من الراحة لبضع دقائق، لا تكثروا من شرب الماء، فلا مكان لقضاء الحاجة هنا سوى هذا النفق، خذوا الحد الأدنى من حاجتكم وما يرطِب صدوركم.

جلس الجميع والتعب باد عليهم، كانت سعاد وزياد يراقبان حركات ابنتهما زهرة ونظراتها بشكل مستمر، ويدعوان الله سراً بأن ينهي هذه الرحلة بخير وسلام.

وقف الشاب بعد دقائق وهو يقول لهم:

- لنتوكل على الله ونكمل المسير، لكني أريد أن أنبهكم لأمر مهم، بعد حوالى النصف ساعة، سنمر بمنطقة ضيّقة، سنضطر للمشي بها منحني الظهور، وقد تحسون بشيء من الضيق في التنفس، علينا أن نقطع هذه المرحلة بهدوء شديد، وأن يكون تنفسنا طبيعياً جداً حتى وإن أحسسنا بضيق، فالفزع يعني مزيداً من المعاناة للجميع. المرحلة هذه ليست بطويلة، يمكننا أن نقطعها بأقل من نصف ساعة إن مشيناها بهدوء.

قال هذه الكلمات وبدأ الشاب بالتحرك، بينما كان زياد يراقب الفزع الذي بات واضحاً جداً على وجه زهرة، احتضنها إلى صدره وهمس في أذنيها قائلاً:

- لا عليك يا حبيبتي، أنا معك ملتصق بك في كل لحظة، ولن أتركك أبداً، لا تخشي شيئاً، ولا تتوقفي عن الدعاء لله بأن يكون عوناً لك.

أومأت له باستسلام ووجهها يكاد يخلو من الحياة.

شرع الجميع في السير كما السابق، وعند اقترابهم من المنطقة التي أخبرهم عنها الشاب، التفت إليهم وأشار لهم بأن ينتبهوا لرؤوسهم وأن يحنوا ظهورهم دون أن ينطق بأي كلمة. بدأ السير بهذه الانحناءة والضيق يزداد شيئاً فشيئاً، لم يعد يُسمع شيء سوى أنفاس الأولاد اللاهثة، صار التصاق زياد بزهرة أشد، لم تمضِ بضع دقائق حتى بدأ زياد يُحس بارتجافات متكررة في جسد زهرة أثناء مشيها، ومع كل ارتجافة يحس بها، كان قلبه يزداد خوفاً واضطراباً من انهيار مفاجئ لقوى زهرة. صارت يده لا تكف عن فرك كتفيها ووجهها ورأسها، زاد الضيق في الممر، حتى أن الشاب صار يسير حبواً في بعض الأمتار تلحقه سعاد وهي تحاول استراق النظر لوجه زهرة بين خطوة وأخرى، دقائق أخرى مرت ليتفاجأ زياد بانهيار كامل لزهرة مع إغماءة يصاحبها صعوبة في التنفس، فزع زياد أيما فزع، وأطلق صرخة مكتومة لينبه الشاب لما حدث، كان الشاب متمرساً عارفاً لما يفعل، فما كان منه إلاّ أن حاول الرجوع في بعض الخطوات بهدوء تام، قال لسعاد بصوت واضح:

- استمري بالسير يا خالة أنت والباقين على نفس الطريق، ولا تتوقفي حتى تصلي لفسحة شبيهة بالتي كنا قد توقفنا عندها سابقاً، ولا تقلقي من شيء، سنلحق بكم أنا والعم زياد والصغيرة.

أعطت كلماته الواثقة دفعة كبيرة من العزم لسعاد، تمدد الشاب بشكل كامل على الأرض على بطنه طالباً من سعاد بأن تتجاوزه هي وأبناؤها ليستطيع الوصول إلى زياد وزهرة، وهذا ما فعلته سعاد بعد أن أشار لها زياد بالانطلاق، تبعها الشاب بنظره بعد أن تجاوزوه جميعاً وقال لها:

– إياك أن تقفي يا خالة، وراقبـي الصغار عن كثب، لم يبق أمامكم سوى دقائق قليلة.

عاد الشاب ليواجه زهرة وزياد، قام بتمديد زهرة على ظهرها بشكل كامل وطلب من زياد بأن يرفع قدميها قدر الإمكان، ثم أخرج من حقيبة ظهره اسطوانة أكسجين صغيرة، أدار مفتاحها بشكل بسيط ووضعه على وجه زهرة، بعد دقيقة أو أكثر بدأ تنفس زهرة ينتظم أكثر، وبدأت الحمرة تعود إلى وجهها، عندها أغلق أسطوانة الأكسجين ثم قام برش وجه زهرة بشيء من الماء الذي كان يحمله معه، استفاقت زهرة والخوف ما زال بادياً على وجهها، رأت وجه أبيها يقابلها بشكل مباشر، ابتسم زياد في وجهها وهو يقول لها ممازحاً:

– لا وقت للنوم الآن يا حبيبتي، إخوتك وأمك بانتظارنا، ما رأيك بأن نكمل السير؟

كانت هذه الكلمات البسيطة وما رافقها من ابتسامة كفيلة بشحن همتها، أدارت جسدها بعد أن اعتدلت واستعدت لإكمال الطريق وكأن أمراً لم يحدث. لم يمضِ أكثر من ربع ساعة حتى وصل زياد وزهرة يسبقهما الشاب حيث كانت تنتظرهم سعاد وباقي أبنائهم، كان الرعب يملأ وجهها خوفاً على ابنتها، ما أن رأتها حتى همّت إليها واحتضنتها وهي تدعو الله لها بالسلامة والبركة.

استمر جلوسهم دقائق عدة، تأكد الشاب فيها أن الجميع قد استعاد بعضاً من قواه، أشار لزياد بأن يباشروا حركتهم مرة أخرى، عاد الجميع لتحركهم بالترتيب نفسه الذي بدأوا به.

بعد أن مضى على بدء رحلتهم ما يقارب الثلاث ساعات، وفي أثناء أخذ استراحتهم الأخيرة، كان الشاب ينظر إلى الجميع محاولاً معرفة مدى الإعياء الذي أصابهم، أو بالأحرى مدى الطاقة المتبقية لدى الجميع، كانت نظراته تراقب ملامح الوجه وانتظام الأنفاس التي يأخذونها، قبل أن يباشروا سيرهم مرة أخرى توجه إلى زياد قائلاً:

– عم زياد، ستكون هذه محطتنا الأخيرة بإذن الله، ولن نقف بعدها حتى نصل لوجهتنا في الطرف الآخر من النفق.

ابتسم زياد لما سمع من الشاب، ثم أخذ ينقل بصره بين أبنائه وزوجته كي يعطيهم دفعة من الطاقة والتحفيز. أكمل الشاب حديثه قائلاً:

– علينا أن نحاول قطع المسافة المتبقية بسرعة أكبر من السابق، لا أريد أن أبعث فيكم الخوف ولكني أريد منكم أن تساعدوني في الأمر، المنطقة القادمة من الأنفاق مرتفعة نوعا ما، ومكشوفة في بعض الأماكن لتعرضها للقصف في وقت سابق، لكن ندعو الله أن يسلم وأن نستطيع العبور بشكل سليم. لنتوكل على الله.

كانت هذه الكلمات كفيلة بأن ترعب زياد وسعاد، فهما يدركان حقيقة أن تعرّضهم للقصف وهم في داخل هذه الأنفاق، يعني أن يُدفنوا جميعاً أحياء. التقت نظرات سعاد بنظرات زياد يجمع بينها الخوف من القادم القريب، وجّه زياد نظره للسماء وكأنه يقول لسعاد: توكلي على الله.

شرع الجميع بالسير خلف الشاب بخطوات أسرع من السابق، وبدأ الخوف يزول شيئاً فشيئاً مع استمرار السير في النفق، كانت كل خطوة تعني اقتراباً أكثر للفرج، لم تكف سعاد عن

الذكر طوال الوقت، وما زالت صورة مروان وهو يسقط أمام عينيها لا تفارقها، كان صوتها في بعض الأحيان يبدو واضحاً بالتسبيح والدعاء، بدأ الجميع يشعر باقتراب نهاية هذه الرحلة، حتى زهرة صارت خطواتها واثقة وكأنها تخلصت تماماً من رهابها تجاه الأماكن المغلقة، في أثناء سيرهم كانوا يشعرون بمدى اقترابهم من سطح الأرض ويرون أحياناً شيئاً من نور الفجر الذي تسلل إليهم من بعض فتحات التهوية، وفجأة توقف الشاب وأشار للجميع بالثبات، أخذ يصغي بارتياب وقلق واضحين، ثم صرخ بهم قائلاً:

- أسرعوا خلفي الآن مباشرة، إياكم أن تتوقفوا مهما حدث.

سأله زياد باضطراب وهو يسرع بالسير خلفه دافعاً أبناءه دفعاً أمامه:

- ما الذي حدث يا ولدي، لم هذا التغير المفاجئ؟

قال له الشاب وقد بدأ بالفعل بالسير بشكل سريع أشبه بالهرولة:

- هناك مروحية تحلق فوقنا، وقد يرمون براميل متفجرة تصيب النفق فينهار ونحن بداخله، المخاطرة كبيرة، ولا يمكن الاستهانة باحتمالية وقوعها.

كان لهذه الكلمات الأثر الكبير في دفع سعاد وزياد والأبناء بالهرولة بشكل مباشر خلف الشاب، كانت أجسادهم ترتطم بأطراف النفق دون أن يكترثوا لذلك، صار زياد يلهج بالدعاء بصوت مرتفع وهو يهرول دافعاً أبناءه أمامه دفعاً قاسياً، وما توقعه الشاب قد حدث بالفعل. فلقد سمع الجميع صوت انفجار كبير، اهتزت له الأرض اهتزازاً عنيفاً مما دفع الشاب للارتماء أرضاً على بطنه وهو يصرخ بهم:

- استلقوا جميعاً على الأرض واحموا رؤوسكم.

كانت ردة فعل الجميع تلقائية فطرية، فالهروب من الموت لا يحتاج إلى تفكير أو خطة أو إرشاد، هي فطرة الله في خلقه، هي غريزة البقاء. ارتمت سعاد بشكل مباشر فوق ابنها أحمد واضعة يدها فوق رأسها، وكذلك فعل زياد بعد جمع بناته الثلاث بين يديه اللتين أحاط رؤوسهن بهما، في اللحظة نفسها بدأت الأتربة تملأ النفق، شعر زياد ببعض الألم في قدمه لكنه لم يعره أي اهتمام، مرّت اللحظات ثقيلة والجميع متشنج مشدود الأعصاب، لا يُسمع سوى أصوات أنفاس مرتعبة، وبعد أن هدأت الأمور، قام الشاب من فوره وقال لهم:

- علينا الإسراع بالتحرك، لا يمكننا التوقف لأي سبب.

عندما قام الجميع أحس زياد بألم في قدمه مرة أخرى، عرف حينها بأن صخرة قد أصابت قدمه وسببت له جرحاً حسب ظنه، توقف قليلاً ليرى أثر الجرح فانتبه له الشاب، فحصه بشكل سريع وقال له بشكل مباشر:

- يمكنك علاجه عند الخروج، علينا أن نوقف النزيف الآن، المهم أنه لا يوجد كسر يعيق حركتك.

وبالفعل قام الشاب بوضع شاش كان يحمله في حقيبته على رجل زياد ليوقف نزيفها، ثم أمرهم جميعاً باللحاق به بسرعة.

استمر الجميع بالسير لما يقارب النصف ساعة والخوف والإعياء يسيطر عليهم جميعاً، وفجأة عند أحد منحنيات النفق، توقف الشاب وهو يبتسم ويقول لهم:

– الحمد لله على سلامتكم جميعاً، لقد وصلنا بفضل الله، أرجو أن تبقوا صامتين تماماً. انتظروني هنا قليلاً حتى أعود إليكم.

امتثل الجميع لما طلبه منهم، واقترب زياد من أولاده وزوجته ليحتضنهم بين ذراعيه قائلاً:

– حمداً لله على سلامتكم، سييسر الله لنا ما بقي من طريقنا بإذنه تعالى.

عاجله أحمد بقوله:

– كانت رحلة ممتعة يا أبـي، لم أكن خائفاً أبداً.

مدت فاطمة يدها لتحتضن رأسه وتقبله وهي تقول:

– طبعاً لن تخاف، أنت رجلنا يا أحمد بعد أبـي أطال الله في عمره.

أما سعاد فكانت تراقب وجه زياد لتقرأ فيه مدى الألم الذي يشعر به جراء الجرح الذي أصاب قدمه.

في هذه الأثناء كان الشاب قد ذهب ليتأكد من جاهزية الخروج من النفق بالطريقة نفسها التي دخلوا بها في أوله، دقائق قليلة وعاد بعدها ليطلب من زياد وأبنائه اللحاق به قائلاً:

– المخرج جاهز الآن، اتبعوني بهدوء، سنخرج من النفق بالطريقة نفسها التي دخلنا بها، واحداً تلو الآخر.

كان مخرج النفق وسط كوخ مهدم مهجور في داخل مزرعة مهملة تماماً. عند خروجهم كان هناك شاب آخر ينتظرهم. ودّع زياد الشاب الذي رافقهم في رحلتهم في الأنفاق وهو يدعو له بالتوفيق والحماية من الله.

أما الشاب الذي استقبلهم، فبادرهم بالاطمئنان على صحتهم وهو يقول لهم:

– حمداً لله على سلامتكم جميعاً، هل ترغبون في أخذ قسط من الراحة الآن، أم نكمل المشوار حتى نصل إلى قرية «خربة السودا»، بعدها سيكون طريقكم هيّناً إن شاء الله.

سارع زياد بالرد قائلاً:

– علينا أن نأخذ قسطاً من الراحة، كما أنه يجب عليّ أن أفحص الجرح الذي أُصبت به، وأتأكد من سلامته، بعدها نكمل السير.

أجابه الشاب وهو يقترب من رجله ليفحص جرحه قائلاً:

– حسناً كما تحب يا عم، دعني أساعدك بفحص جرحك ووضع الضماد المناسب له حسب ما يتوفر لديّ، بعدها سأترك لكم المجال كي تقوموا بتنظيف ملابسكم جميعاً بشكل كامل كي لا يبدو عليها أي غبار أو أتربة، من الضروري ألا يلاحظ أحد أنكم عبرتم الطريق عبر أنفاق تحت الأرض.

بدأت سعاد من فورها بتنظيف أحمد مشيرة إلى فاطمة كي تساعدها، أما الشاب فشرع بفحص جرح زياد، ثم قام بإحضار حقيبة إسعاف بسيطة وقام بتنظيف جرح زياد بالماء والمعقم، ثم قام بلفها بشاش جديد وهو يقول له:

– لا عليك يا عم، الجرح بسيط بإذن الله، المهم ألا يتعرض لأي تلوث، لأن إمكانية الخياطة غير متوفرة، أنصحك بأن تهتم به وأن تقوم بتعقيمه قدر المستطاع في كل وقت يسنح لك ذلك، سأنتظركم بالخارج الآن، هذا ماء صالح للشرب، ويمكنكم استخدامه في تنظيف أنفسكم أيضاً.

خرج الشاب وشرع الجميع في تنظيف وجوههم وأيديهم وملابسهم بشكل دقيق، كان زياد يراقبهم وهو يهتم بنفسه وبملابسه في الوقت نفسه. استغرق الأمر منهم دقائق عدة حتى انتهوا، خرج زياد من الكوخ بعد أن ترك الجميع ينالون قسطاً من الراحة، ليجد الشاب منزوياً تحت إحدى أشجار الزيتون وهو يمسك بعود صغير في يده يرسم به بعض الأشكال على الأرض، وقف الشاب مباشرة عند رؤية زياد، فأشار له زياد بيده كي يبقى مكانه، اقترب منه وجلس بجواره وهو يقول له:

– أخبرني يا أخي عن خط سيرنا القادم، فالأولاد منهكون تماماً، ويحتاجون إلى طعام وشراب وراحة، ولا يمكنني أن أحمّلهم ما لا يطيقون، معرفتي بخط السير سيجعل أمامي فكرة أوضح عمّا عليّ فعله.

أجابه الشاب بهدوء:

– كما تريد يا عم، أمامنا على بعد ساعة تقريباً قرية «خربة السودا»، أقترح أن نسير إليها الآن بشكل مباشر، يمكنكم بعدها أن تنالوا قسطاً من الراحة، ستجدون من يساعدكم هناك، ومن الأفضل أن تبقوا في القرية حتى يخيم الظلام مرة أخرى، فالدوريات تنشط في النهار لسهولة رؤية الحركة. بعدها يمكنكم التوجه جنوباً إلى قرية «رام جبل» مستترين بظلام الليل، لن يستغرق الأمر معكم أكثر من أربع ساعات، والمشي فيها سهل ميسر بين المزارع، إن وصلتم إلى «رام جبل» سيبقى عليكم الخروج منها غرباً باتجاه مدينة «حديدة» وتجاوز آخر الحواجز الأمنية، وهناك يبقى عليك السير إلى لبنان لما يقارب الثلاث ساعات. أما عني، فسأرافقكم إلى أن أطمئن عليكم في «رام جبل».

صمت زياد قليلاً قبل أن يسأله مرة أخرى:

– وكيف سننتقل من «رام جبل» إلى «حديدة»؟ هل سنسير أيضاً بين المزارع، وهل تم

التنسيق مع الحاجز الأمني؟

عاجله الشاب بالرد قائلاً:

- سيُقلكم أحد الشباب بسيارته الخاصة، ويتأكد من تجاوزكم الحاجز الأمني الذي تم التنسيق معه سابقاً.

أحس زياد بالراحة لجواب الشاب وثقته في الرد، ثم انتبه لأمر كان يخشاه سابقاً، همّ واقفاً وهو يقول له:

- ماذا تقصد بكلمة «سيُقلكم»، هل هناك غيري أنا وأبنائي سيرافقنا في هذه الرحلة؟

اعتدل الشاب في جلسته وأجاب بهدوء:

- نعم على ما أظن، سيكون هناك مجموعة معكم، وهو أمر اعتيادي، فالشاب الذي سينقلكم له علاقات مع ضباط نقطة التفتيش الأخيرة، ويقوم بمساعدة الكثير من العوائل للنزوح من المناطق التي تتعرض للقصف، وبخاصة النساء والأطفال، ولا أرى أن هناك داعياً للقلق يا عم.

سكت زياد قليلاً قبل أن يجيبه:

- حسنا يا ولدي، سنسير خلال خمس دقائق بإذن الله.

عاد زياد إلى الكوخ ليتأكد من جاهزية أبنائه لمواصلة المسير، عند دخوله إلى الكوخ، وجد أبناءه يحيطون بأمهم والإعياء بادٍ عليهم، لم يشأ أن يرضخ لعاطفته في هذه اللحظات، فقال لهم بصوت هادئ:

- هيا يا أحبابـي، لم يبقَ أمامنا سوى ساعة واحدة فقط إن شاء الله، بعدها سنجد مكاناً مناسباً للراحة ولتناول الطعام، ويمكننا عندها النوم إلى الليل.

جاوبته هبة ببراءة:

- ألا يمكننا أن نبقى هنا قليلاً يا أبـي، وأن نجد شيئاً نأكله، لقد خرجنا من تحت الحصار الآن، يعني أنه يمكننا أن نجد ما نأكله، أي شيء، حتى الماء الذي شربته يا أبـي يجعلني أحس بالإعياء في معدتي.

أرخى زياد رأسه للأرض متألماً من كلمات ابنته، ما جعل فاطمة تسارع بالرد على أختها هبة قائلة:

- هبة، كلنا نحس بالإعياء والجوع مثلك، علينا أن نصبر قليلاً يا حبيبتي حتى نصل إلى المكان الذي حدثنا أبـي عنه، الوقت الآن غير مناسب للتذمر، هيا قومي وسأساعدك في المشي.

قفز أحمد من جوار أمه باتجاه أبيه وهو يقول:

- سأمسك بيد أبـي أولاً.

كان لحركة أحمد أثر جميل على باقي إخوته، فلقد وقفوا بشكل مباشر واستعدوا للسير وسعاد تعاونهم. عندما خرجوا من الكوخ وجدوا الشاب بانتظارهم وهو ينظر إلى البعيد وإلى السماء بين لحظة وأخرى، اقترب منهم بهدوء عندما رآهم وقال لهم:

- سنتوكل على الله، أريد فقط أن أنبهكم إلى أمر واحد، علينا أن نسير بشكل متفرق كي لا نلفت الانتباه.

نظر إليه زياد باهتمام وكأنه يحفزه ليعطيهم مزيداً من الشرح، أكمل الشاب كلامه قائلا:

- أقصد بألا نسير بجوار بعضٍ كمجموعة، بل نترك مسافة بيننا لا تقل عن عشرين متراً بين كل شخص وآخر، أما الصغير فأُفضّل أن يبقى مع والده. ويجب على الجميع أن يكون متيقظاً ومنتبهاً لجميع من حوله، فلا يمكن قبول أي حالة ضياع في هذه المنطقة.

فهم زياد مقصد الشاب وأخذ يوجه أبناءه كيف يسيرون، طلب من زهرة وهبة وفاطمة أن يسرن أولاً خلف الشاب بمسافات متباعدة، ويلحق بهن هو وسعاد على مسافات مناسبة، وأشار لسعاد بأن تتابع بنظرها فاطمة الأقرب لها، وهو سيقوم بمتابعة هبة وزهرة بنظره، أما أحمد فبقي ممسكاً بيد أبيه. اطمأن الشاب لهذا التوزيع، وبدأ السير بعد أن أومأ لزياد بأن يبقي نظره عليه أيضاً ويراقب تحركاته.

كان سيرهم هادئاً سلساً، حتى أنهم بدأوا لوهلة يشعرون بالاستجمام مع الهواء العليل أثناء سيرهم، باستثناء زياد، فكان هذا الهدوء مناسباً ليتذكر مروان وما فعله من أجل إنقاذ زوجته، لم يمضِ على سيرهم أكثر من ربع ساعة حتى تفاجأ زياد بالشاب يرفع يده صارخاً وهو يركض باتجاههم:

- استلقوا جميعاً على الأرض الآن أو اختبئوا في ظل أقرب شجرة حولكم، الآن بسرعة، إياكم أن تتحركوا.

كانت لصرخاته الفزعة أشد الأثر على الجميع، لكن ردة فعلهم كانت تناسب توجيهه، فالبنات احتمين كل واحدة منهن تحت شجرة قريبة منها، وكذا فعلت سعاد، أما زياد فبقي واقفاً ليتأكد من احتماء أبنائه بشكل مناسب، ثم استلقى بجوار صخرة كبيرة واضعاً ابنه أحمد في أحضانه وهو ينظر إلى الشاب كي يفهم منه سبب هذا التوجيه المفاجئ، أشار له الشاب إلى نقطة بعيدة في السماء، نظر زياد ولم يفهم ما يقصد الشاب، بعد أن هدأت الأمور قام الشاب بتحريك إصبعه للدلالة على وجود طائرة مروحية، فهم زياد مقصده والرعب يجتاحه، فهذا الذي يختبئون منه هو آلة الموت، بدأ زياد يدعو الله في قلبه أن يسلمهم وهو ينظر إلى سعاد والبنات خلسة من وراء مخبئه، بدأ صوت الطائرة يعلو شيئاً فشيئاً مع اقترابها، ويعلو معه خفقان قلب زياد وسعاد، صارت الطائرة فوقهم تماماً ومعه صار صوت زياد يعلو أكثر وأكثر بالدعاء، كان يحس بحركة

ابنه أحمد الذي يحتضنه وهو يحاول أن ينظر إلى السماء ليرى آلة الموت التي طالما سمع عنها وشعر بآثارها مرات عدة. استمر الوضع على هذا الحال لما يقارب الخمس دقائق حتى خبا صوت المروحية تماماً، ومع اختفاء صوتها، أحس زياد بأن ابنه أحمد ساكن تماماً، حاول أن ينظر إلى عيني ابنه ليرى سبب هدوئه التام، وإذ به يراه يداعب بإصبعه وريقات زهرة برية صفراء نبتت بين الصخور بشكل ملفت للنظر، أخذ زياد يتأمل هذا المنظر لثوانٍ قليلة، هذه الزهرة كابنه أحمد، نبتت وترعرعت بين الصخور، لكنها مع ذلك رسمت جمالاً مختلفاً للحياة.

وقف الشاب مرة أخرى وأشار للجميع أن يكملوا المسير على حالهم التي كانوا عليها قبل مرور الطائرة فوقهم. لم تمضِ دقائق حتى سمع الجميع دوي انفجار قوي جداً، ورأوا أعمدة النيران والدخان تعلو للسماء حيث ألقت المروحية ببراميلها المتفجرة، أشار زياد لأبنائه بأن يستمروا بالسير وهو يدعو الله بأن يهلك الظالمين وعلامات الألم تصرخ من وجهه.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصل الجميع إلى أطراف القرية، سار الشاب بهم بعد أن اجتمعوا ثانية حتى وصل إلى أحد البيوت القديمة، طرق الباب وانتظر قليلاً حتى فتحت له امرأة عجوز الباب، ما أن رأته حتى هللت ورحبت وهي تفتح الباب أمام الضيوف، دخل الشاب مباشرة إلى المنزل وكأنه من أصحابه وهو يدعو زياد وأهله للدخول وراءه، دخل الجميع إلى غرفة صغيرة قريبة من باب المنزل، وقف الشاب أمام زياد وهو يشير إلى المرأة العجوز قائلاً:

- ستبقون في ضيافتنا حتى المساء بإذن الله، هذه والدتي أم أيمن، ستعمل على توفير ما تحتاجون قدر المستطاع، يمكنكم الاستراحة الآن فالمكان هنا آمن، وسأعود لكم مساءً بحول الله.

قال هذه الكلمات وخرج من البيت مباشرة، جاءت المرأة العجوز تسلم على سعاد وهي تدعو لهم جميعاً بالفرج والسلامة قائلة:

- حمداً لله على سلامتكم جميعاً، سأعمل على إعداد وجبة طعام لكم حسب المتوفر لدينا، يوجد بجوار هذه الغرفة دورة المياه، خذوا راحتكم واقضوا حاجاتكم، فلا يوجد أحد في المنزل سواي بعد أن خرج ابني خالد، فهو الوحيد الذي بقي من أولادي، خالد هو الذي أوصلكم إلى هنا رضي الله عليه.

قالت هذه الكلمات ودخلت من فورها المنزل.

قضت عائلة زياد الساعات التالية بين استحمام ونوم بعد أن تناولوا ما قُدم لهم من طعام.

مضى الوقت سريعاً دون أن يشعر الجميع بدقائقه أو ساعاته، فزع زياد على صوت طرقات خفيفة على الباب، قام من فوره ليجد خالد وأمه يقفان عند الباب. بادره خالد قائلاً:

- هل تحب أن نكمل مسيرنا إلى قرية «رام جبل»، الوقت مناسب الآن، ويمكننا أن نصل هناك قبل أن ينتصف الليل.

أومأ له زياد قائلاً:

- أمهلني فقط عشر دقائق ليجهز الأولاد ونصلي المغرب والعشاء.

بدأ الجميع رحلتهم التالية بهمة ونشاط أكبر بكثير من رحلتهم السابقة، فالإحساس بالأمان أصبح أكبر، والوجبة التي تناولوها عند أم أيمن أعطتهم طاقة لم يحصلوا عليها منذ أشهر طويلة. لم يمضِ أكثر من ثلاث ساعات حتى وصلوا إلى وجهتهم قرية «رام جبل»، والتي سينطلقون منها إلى «حديدة» لتجاوز نقطة التفتيش الأخيرة. عند دخولهم القرية توجه خالد بهم بين الأزقة حتى وصلوا إلى بيت تقف أمامه شاحنة قديمة متوسطة الحجم، طرق خالد باب المنزل طرقات مميزة، فُتح الباب خلال ثوانٍ عديدة وأطلّ منه رجل ثلاثيني العمر، أشعث الشعر حاد الملامح، أسرع بفتح الباب بشكل كاملٍ وهو يقول:

- أهلاً خالد، تفضلوا بالدخول.

دخل الجميع وراء خالد إلى صالة كبيرة ليجدوا عدداً من الأشخاص موجودين فيها، بينهم رجال ونساء وأطفال، بعضهم كان جالساً والآخر يقف مستنداً إلى أحد الجدران، ودّع زياد خالد وشكره على مرافقته في رحلته.

بعد أن أُغلق الباب خلفهم، انتبه زياد للرجل الثلاثيني وهو يخاطب الجميع قائلاً:

- اكتمل العدد الآن، وسنتحرك خلال دقائق، من كان له حاجة يريد أن يقضيها فليتوجه إلى دورة المياه مباشرة، وبخاصة الأطفال، لا يمكننا التوقف في رحلتنا هذه حتى نتجاوز حاجز الجيش.

بدأت الحركة بين الموجودين على الفور، وبدأت الأصوات الخافتة المحفزة للإسراع تكثر. أكمل الرجل كلامه بصوت أوضح قائلاً:

- سأقوم بذكر الأسماء التي سترافقنا في هذه الرحلة، ولا يمكنني أن أضيف أي شخص على هذه القائمة مهما كان السبب، من سأذكر أسماءهم هم من تم الاتفاق مع ضابط الحاجز الأمني على عبورهم اليوم بعد دفع المبلغ المطلوب لعبورهم، عدم الالتزام بالقائمة سيعرض الجميع لخطر كبير.

قام الرجل بعدها بإخراج ورقة مطوية بعناية من جيبه استعداداً لقراءة الأسماء، وقبل أن يبدأ بذكر الأسماء قال للجميع:

- سنستقل الشاحنة التي تقف عند باب المنزل، انتبهوا جيداً عند صعودكم للحوض الخلفي منها، وليقف الرجال على أطرافها، يليهم النساء، ثم ليكن الأطفال في وسط الشاحنة. كما أرجو منكم جميعاً التزام الهدوء أثناء خروجكم، لا نريد أن نلفت الأنظار إلينا.

كان زياد يمسك بيد زوجته سعاد طوال الوقت وهما يحيطان بأبنائهما، لم يكن قادراً على تمييز مشاعره أو أفكاره، بل كان الاستسلام لكل ما يجري حوله هو السمة الأوضح عليه حينها. بدأ الرجل بقراءة القائمة التي لديه، كان يذكر الأشخاص كمجموعات، ومع كل اسم يذكره كان يذكر عمر الشخص ثم ينظر إليه بتمعن ليتأكد من صحة معلوماته. بعد أن ركبت عوائل عدة،

ذكر اسم زياد وعائلته وأعمارهم، فسارع زياد للخروج بهدوء واستقل الشاحنة كما طلب منهم الرجل تماماً، بعد ما يقارب الربع ساعة كانت الشاحنة قد امتلأت تماماً، أصبح مجموع من صعد إلى الشاحنة اثني عشر رجلاً بين شباب وشيوخ وعشرين امرأة ومعهم ثلاثون طفلاً بين رضيع وصغير لم يتجاوز العشرة أعوام. قام الرجل بعد الانتهاء من عدّ الموجودين في حوض الشاحنة برفع الباب وإغلاقه بشكل كامل، بحيث لم يعد بالإمكان رؤية من في الشاحنة سوى من الأعلى. وقبل أن يصعد بدوره وراء المقود، خاطب من يركبون معه قائلاً:

– ستستغرق رحلتنا ما يقارب الساعة، لأننا سنسلك طريق المزارع، الطريق وعرة بعض الشيء فانتبهوا وتمسكوا بأطراف الشاحنة قدر الإمكان، وعند وصولنا للحاجز الأمني لا تصدروا أي صوت، وإن طلبت منكم النزول، فعليكم النزول والاصطفاف كل عائلة مع بعضها، وإن طلب الضابط من أحدكم أن يقف جانباً فليمتثل ولا يعترض أبداً، فاعتراضه لن يؤدي لأي نتيجة، بل قد يسبب الضرر للآخرين بلا أي فائدة.

سكت قليلاً قبل أن يكمل قائلاً:

– إن قام الضابط باستثناء أحد من إكمال رحلته معنا، سيمكننا من تدارك الأمر لاحقاً بعد انتهاء مشوارنا بإذن الله، وهذا الكلام موجه للجميع.

سارع أحد الرجال العُجّز بالسؤال قائلاً:

– وهل هذا الاحتمال وارد يا ولدي؟ هل حدث معكم قبل ذلك، وهل حقاً تم تداركه؟ كنت أظن أن المبلغ الذي دفعناه كان خاصاً بتجاوز الحواجز الأمنية.

أجابه الرجل بهدوء وطمأنينة قائلاً:

– نعم الاحتمال وارد يا عم، وقد حدث مرات عدة، لكن والحمد لله تم تدارك الأمر بشكل مباشر في جميع المرات سوى مرة واحدة، حاول الشاب الذي أمره الضابط بالترجل والهرب، مما أدى لإصابته بطلق ناري، ثم القبض عليه، ولم نعد نعرف عنه أي شيء. سنتوكل على الله الآن.

ركب الرجل الشاحنة، وأدار محركها، وانطلق بهدوء في عتمة الليل، وخلال دقائق أصبحت الشاحنة تسير في منطقة غير ممهدة شديدة الوعورة، واهتزازاتها كانت قاسية على الجميع ما سبب بصدور بعض الأصوات المتألمة وخاصة من بعض النساء، كان زياد يقف سانداً ظهره على أحد جوانب حوض الشاحنة، يمسك بيده اليسرى أحد أطرافها، وباليد الأخرى يمسك بكتف ابنته فاطمة التي كانت تجاور أمها تماماً بالوقوف أمام زياد. انتبه زياد لوجه ابنه أحمد الذي صارت ابتسامته تتناسب مع اهتزازات الشاحنة وكأنه يستمتع بركوب لعبة كبيرة في إحدى الملاهي. كان زياد يحاول استراق النظر من بين الفتحات الصغيرة التي تملأ أطراف حوض الشاحنة، لم يستطع أن يرى سوى الظلمة القاتمة حوله، وانتبه بأن سائق الشاحنة يقودها في العتمة دون أي إنارة. بعد ما يقارب النصف ساعة، وبعد أن تعوّد معظم الركاب على اهتزازات الشاحنة، تفاجأ الجميع بانحراف شديد في الشاحنة ما دعا معظم الأطفال والنساء إلى إصدار صرخة رعب،

بعد هذا الانحراف هبطت الشاحنة بقوة ثم دخلت بين بعض الأشجار الكثيفة التي تساقطت أوراقها على من في الشاحنة، وفجأة عمّ السكون المكان تماماً بعد أن أطفأ الرجل محرك الشاحنة وهو يصرخ بهم بصوت حازم قائلاً:

- اخفضوا رؤوسكم جميعاً ولا تأتوا بأي حركة.

استجاب الجميع لتوجيه الرجل، وعمّ الصمت المكان بشكل كامل عدا بعض الهمهمات بالأدعية، لم يكن أحد منهم يعي ما يحدث أو سبب هذا التغير المفاجئ، دقائق ثقيلة مرّت على الجميع حتى فهموا سبب هذا الذي حدث مع الشاحنة، صوت إحدى آلات الموت بدأ يظهر شيئاً فشيئاً حتى صار فوقهم تماماً، إنها المروحيات المحملة بالبراميل المتفجرة، دقائق ثم أخذ صوتها يخفت بشكل تدريجي حتى اختفى مرة أخرى، سمعوا بعدها صوت محرك الشاحنة قد عاد للعمل بعد أن اعتذر منهم سائقها لاضطراره الاختباء فوراً في أقرب مكان وجده أمامه.

عاد الجميع للاصطفاف كما كانوا والشاحنة تسير كسابق عهدها، نصف ساعة أخرى مرت، بعدها أحس الجميع بأن الشاحنة أبطأت في سيرها حتى توقفت تماماً، وشعروا بإضاءة تملأ المكان الذي وقفوا فيه، بدأت أكف الدعاء تعلو من الجميع بأن يهوّن الله عليهم هذه المرحلة، فهي النقطة الأخيرة بالنسبة إليهم والتي سيشعرون بعدها بالأمان.

كان توقف الشاحنة حينها سببه وصولهم إلى الحاجز الأمني، أطفأ السائق محرك الشاحنة وترجّل منها حسب توجيه أحد أفراد الجيش المشرفين على نقطة التفتيش، اتجه حيث كان يجلس ضابط الحاجز، حين اقترب منه أدخل يده إلى جيبه ليخرج الورقة التي بها أسماء الأشخاص الذين يحملهم معه في شاحنته، لكنه انتبه إلى نظرات الضابط الحادة والتي توحي له بألا يقوم بأي أمر الآن، كما شاهد رجلاً كبيراً في السن بلباس مدني يجلس بجوار الضابط يراه للمرة الأولى، ما أن اقترب من الضابط حتى عاجله الضابط بالكلام بلهجة قاسية بالسؤال قائلاً:

- ما الذي تحمله معك في هذه الشاحنة؟

فهم سائق الشاحنة بأن الرجل الجالس بجوار الضابط قد يكون هو السبب في هذا التغير المفاجئ في المعاملة، فما تعوده ويقوم به بشكل شبه يومي منذ فترة قد اختلف الآن. لم يطل صمته، أجاب الضابط على سؤاله بكل هدوء وثقة قائلاً:

- سيادة الضابط، معي مجموعة من الأسر النازحة المتضررة من هجمات المجموعات الإرهابية، والذين لا يملكون أي وسيلة أو إمكانية للانتقال أو العيش في أي مكان، ومعظمهم من النساء والأطفال والرجال العُجّز.

عاجله الضابط بالرد وبعنف أكثر من السابق قائلاً:

- إذاً أنت تعمل في التهريب أيها الجبان، وما هي وجهتك، أين ستأخذهم؟

احتقن وجه الرجل، صمت قليلاً قبل أن يجيب:

- أبداً سيادة الضابط، لو كنت أفعل ذلك لما أخبرتك بشكل مباشر بمن يركب معي، ولما جئت بشكل طبيعي إلى هذه النقطة وأنا أعرف تماماً بوجودكم، كل الأمر أني أشفق على حالهم وأنا أراهم يهيمون بين الحقول، وعرضت عليهم أن أحملهم معي شرط أن أعرف أسماءهم جميعاً، أما وجهتي، فهي مدينة «حديدة» وسأعود في الصباح.

لم يجب الضابط هذه المرة، بل أخذ ينقل بصره بين السائق وبين الرجل الجالس بجواره. عندها تكلم الرجل الجالس بجوار الضابط بصوت خشن موجهاً كلامه للسائق وهو يقول:

- أعطني هويتك الشخصية، وأنزل جميع الركاب من الشاحنة وأحضرهم صفاً واحداً أمامي.

امتثل السائق بشكل مباشر، وتوجه إلى شاحنته يرافقه جنديان يشهران سلاحهما إلى باب حوض الشاحنة بعد أن أشار لهما الضابط بفعل ذلك بإشارة من يده. عندما فتح الباب، كانت الأعين مفتوحة تحدق بخوف على الباب، فجميع من في الشاحنة سمع الحوار الذي دار بين الضابط والسائق، وأخذ منهم الرعب كل مأخذ، فالجميع يعلم بأن القبض عليك في حاجز أمني يعني أن مصيرك أصبح مجهولاً، فلا أحد يمكنه أن يعرف أين ستصبح وإلام سيؤول مصيرك. سمع الجميع السائق ومن خلفه الجنديان يقول لهم:

- فلينزل الجميع من الشاحنة، ولتبقَ كل أسرة على حدة.

نزل الجميع من الشاحنة بكل هدوء، وبدأوا بالاصطفاف بشكل منتظم أمام الضابط حتى آخر واحد منهم. عندها طلب منهم الرجل بأن يذكروا أسماءهم واحداً تلو الآخر ذاكرين سبب تنقلهم بهذه الطريقة ووجهتهم. بدأت كل مجموعة بالتعريف بنفسها حسب توجيه الضابط، كان زياد وأسرته يتوسطون المجموعة مما أعطاه فرصة أكبر لترتيب أفكاره وتحديد إجاباته، كانت وقفة زياد مع عائلته مميزة عن باقي المجموعات، فلقد كان يقف في مواجهة الضابط جاعلاً زوجته وأبناءه خلفه تماماً. عندما أنهى الجميع التعريف بأنفسهم، بادر السائق بالاقتراب من الضابط والرجل الجالس بجواره بعد أن أخرج الورقة التي كتب فيها الأسماء من جيبه وقدمها لهم قائلاً:

- في هذه الورقة سيدي أسماء الجميع، قد تحب الاطلاع عليها أو الاحتفاظ بها.

أخذها الرجل الجالس بجوار الضابط، تأملها مطولاً، صار ينقل بصره بين الورقة وبين الواقفين أمامه، ثم قال للجميع:

- من سأذكر اسمه الآن يتقدم ويبقى هنا، وما عداهم ليعودوا للشاحنة.

ذكر اسم أربعة رجال، وكان خامسهم زياد، كان ثلاثة منهم معهم عوائلهم، بما فيهم زياد، أما الرجلان الآخران، فكانا عجوزين تفوق أعمارهما الستين سنة، توجه الباقون للشاحنة بهدوء، بينما كانت أُسر الرجال الذين طلب منهم الضابط البقاء تحاول استعطاف الضابط كي يسمح لرجالهم بمرافقتهم، حتى أن إحدى النساء انكبت على حذاء الضابط تحاول تقبيلها وهو ينهرها ويأمر الجنود بأن يأخذوها بعيداً عنه. تدخل هنا السائق وهو يساعد هؤلاء النسوة بالوقوف والتحرك معه باتجاه الشاحنة وهو يهمس بآذانهم بأن رجالهم سيلحقون بهم بالتأكيد. أما الجنود فكان لهم

الدور في سحب هؤلاء الرجال ووضعهم في إحدى سيارات الجيش القابعة عند الحاجز، أما زياد فبقي واقفاً في مكانه، وأسرته تقف خلفه، نظر إليه الرجل الجالس قرب الضابط طويلاً قبل أن يصرخ بوجهه قائلاً:

– ألم تسمع ما أمرتك به، هيا تحرك وقل لأهلك بأن يذهبوا من وجهي مباشرة، وإلا أمرت الجنود بأن يقبضوا عليكم جميعاً.

أدار عندها زياد وجهه ليقابل أبناءه وزوجته وقال لسعاد بصوت تملؤه الثقة:

– سعاد، انتبهي للأولاد، هم أمانة في عنقك، وأنتم يا أحبابي كونوا مع أمكم دائماً.

كان الموقف أشد عليهم جميعاً حتى من أن يعبِّروا عنه بالبكاء، كانت وجوه الجميع تكاد تخلو من الحياة، وأنفاسهم باتت باهتة لا تكاد تسعفهم، فَرد زياد ذراعيه محتضناً الجميع وهو يقبّلهم واحدة واحدة من رأسها، ثم حنى ظهره واحتضن أحمد وهمس في أذنه قائلاً:

– من الآن أنت رجل البيت يا أحمد، كن عوناً لأمك وأخواتك، عدني بذلك.

أجابه أحمد والاحتقان بادٍ على وجهه:

– أعدك يا أبي.

وقف زياد في مواجهة الضابط بعد أن أدار ظهره لعائلته وهو يقول لسعاد دون أن ينظر إلى وجهها مرة أخرى:

– هيا ارحلوا يا سعاد، ولا تنسي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

كان الضابط والرجل الجالس بجواره وبعض الجنود يتابعون هذا المشهد وكأنهم يشاهدون عرضاً سينمائياً لا يحرك في ذواتهم أي شيء، بدأت سعاد تخطو بعض الخطوات سائرة للخلف وهي تسحب بناتها وأعينهن معلقة بأبيهن، وبلحظة مفاجئة، قفز أحمد ليقف بشكل مباشر أمام والده مستقبلاً الضابط وهو ينظر إليه بحدة وعنف. اضطرب زياد من حركة ابنه، وما كان من سعاد إلا أن صرخت بصوت باكٍ على ابنها كي يعود إليها. أما أحمد فبقي ينظر بحدة إلى الضابط دون أن تطرف عينه، ابتسم الرجل الجالس بجوار الضابط لهذا الموقف بشكل غير متوقع، رفع يده باتجاه أحمد قائلاً:

– اقترب مني أيها الصغير.

استجاب أحمد للرجل بعد أن أزاح يد أبيه عن كتفه وتوجه للرجل وهو يسير بخطوات واثقة مفرود الصدر وعيناه تحدقان بحدة إلى الرجل. قال له الرجل عندما أصبح يقف بشكل مباشر أمامه:

– لِم تنظر إليّ بهذه الحدة؟ ولم وقفت أمام أبيك ولم تكمل السير مع أمك وأخواتك؟

أجابه أحمد بصوت طفولي ينطق خلفه رجل:

– لأنك تريد أن تحرمني من أبـي، وأنا أحبه جداً، وأيضاً أخواتي هبة وزهرة وفاطمة يحبونه، ووقفت أمامك لأن أبـي قال لي إني أصبحت رجل العائلة الآن، لذا عليّ أن أدافع عنهم.

قهقه الرجل بصوتٍ عالٍ لجواب أحمد وقال له:

– هل تعدني بأن تبقى رجلاً هكذا إن أنا سمحت لك بأن تأخذ أباك معك؟

فقال له أحمد على الفور:

– طبعاً أعدك، وأحلف لك بالله أيضاً إن لم تصدقني.

ضحك الرجل، ثم أشار لزياد بأن يذهب مع عائلته بعد أن قال لأحمد:

– حسناً اتفقنا، خذ معك أباك، لكن احرص على ألا أراكم هنا مرة أخرى.

أدار أحمد ظهره للضابط، وبدأ يخطو بالخطوات الواثقة نفسها وهو مفرود الصدر باتجاه أبيه وهو يقول له:

– هيا يا أبـي، تعالَ معنا، لقد سمح لك الضابط بذلك.

سار زياد وهو يمسك بيد ابنه محتضناً باقي بناته باليد الأخرى وهم يسمعون ضحكات الضابط والرجل الجالس بجواره. باشرت الشاحنة المسير في طريقها وعشرات المشاعر تعصف بالجميع، أحمد الذي تكاد الأرض باتساعها ألا تكفي فرحته واعتداده بنفسه، سعاد والبنات اللواتي عادت إليهن الحياة بعد أن قام أحدهم بمحاولة سلبها منهن، وزياد الذي أدرك لطف الله ورحمته، وبأنه القادر على إحياء بعض المشاعر الفطرية ولو للحظات حتى لدى حيوانات الغاب المفترسة، هو نفسه الله عزّ وجل القادر على خلق هذه العاطفة للحظات عند بعض وحوش البشر.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصلت الشاحنة إلى مدينة «حديدة»، أوقف السائق الشاحنة في أحد الأزقة وساعد الجميع في النزول من الشاحنة، بدأت الجموع تتحدث بصوت واضح، بعضهم أخذ يرمي عبارات التهنئة لسلامة الوصول واجتياز المحنة، والآخر يواسي أسرتي الرجلين اللذين تم حجزهما في نقطة التفتيش، أما السائق فقال للأسرتين بثقة:

– لا تقلقوا مما حدث، أعدكم بأن رجالكم سيكونون عندكم قبل المساء بمشيئة الله، هذا أمر يحدث عادة عندما يكون هناك أحد الضباط من الثكنة القريبة عند نقطة التفتيش بشكل مفاجئ. أعدكم بذلك وأنا متأكد مما أقول.

كان لكلماته وقع مريح على الجميع، صار البعض يسأله بعض الأسئلة عن أفضل الطرق التي عليهم أن يسلكوها إن أرادوا التوجه إلى مكان ما أو بلدة بعينها وهو يجيبهم بما يعرف. أما زياد، فقد اتفق مع ثلاثة رجال بأن يتوجهوا إلى لبنان مع عوائلهم وأطفالهم، وقررت

ثلاث نسوة مرافقتهم مع أبنائهن.

كان الصبح قد شارف، وعلا صوت تكبيرات أذان صلاة الفجر المآذن، افترق الجمع وبقيت كل مجموعة مع بعضها لإكمال رحلتهم. توجه زياد وصحبه إلى مسجدٍ صغير ليؤدوا صلاة الفجر وينالوا قسطاً من الراحة من عناء رحلتهم الأخيرة، اجتمعت النسوة في إحدى زوايا المسجد الخارجية، أما الرجال فحاولوا أن يتمددوا في أرضية المسجد بعد انتهائهم من الصلاة، بعد دقائق تقدم منهم رجل عجوز مُسّلِماً عليهم سائلاً عن وجهتهم، أجابه زياد بالنيابة عن صحبه في ما عزموا عليه مستأذناً منه أن يسمح لهم بالبقاء في المسجد حتى ينالوا قسطاً من الراحة، رحّب الرجل العجوز بهم بعد أن عرّف بنفسه بأنه مؤذن المسجد، وأخبرهم بأنه سيفتح باب الغرفة الخلفية ليرتاح فيها النسوة والأطفال، وأنه سيعود ليطمئن عليهم عند صلاة الظهر.

استغرق الجميع في نوم عميق لم يستيقظوا منه إلاّ مع سماعهم صوت أذان الظهر، أدى الجميع الصلاة وجلسوا يتباحثون بعدها في خطوتهم التالية، لم يمضِ وقت طويل حتى رأوا الرجل العجوز يدخل عليهم المسجد حاملاً معه مائدة طعام، ساعده الرجال من فورهم وهم يشكرونه على كريم صنعه، تركهم وانصرف إلى حال سبيله ليترك لهم الحرية في تناول طعامهم مع أُسرهم، عاد إليهم بعد ما يقارب الساعة ليرفع المتبقي من الطعام، طلب منه الرجال أن يجلس ليستشيروه في أمرهم بعد أن شكروه على كرمه، استجاب لهم الرجل العجوز وابتسامة صافية لا تكاد تفارق وجهه، ابتدره زياد بالكلام قائلاً:

- بداية أشكرك نيابة عن الجميع على ما قدمت لنا، نسأل الله أن يجزيك عنّا خير الجزاء، ما نريد استشارتك به يا عم هو التالي، فكما قلنا لك سابقاً، نحن عازمون على السير إلى لبنان، والأمر كما أظن ميسّر من هنا، لكنّا لا نعرف أيسر الطرق وأسهلها، وخاصة أن معنا نساء وأطفالاً، فإن أرشدتنا إلى طريق سهل وآمن فستكون قد خدمتنا خدمة كبيرة.

اتسعت ابتسامة الرجل العجوز وأغمض عينيه قليلاً قبل أن يجيبهم قائلاً:

- للأسف يا ولدي، ما تطلبه غير متوفر، فالطريق الآمن غير سهل، وبوجود النساء والأطفال يصبح الأمر أكثر صعوبة، وأما الطريق السهل فغير آمن.

سكت بعدها الرجل العجوز قليلاً وأخذ يتأمل في وجوه الرجال ونظراتهم المضطربة التي صارت تنتقل بينهم وبين زوجاتهم وأبنائهم، عاد لإغماض عينيه وكأنه يفكر في شيء ما، ثم عاد لإكمال حديثه:

- لكنني سأدلكم على طريق يمكنكم أن تسلكوه بأقل المخاطر، وهو آمن بالتأكيد، هذا الطريق لا يعرفه سوى أبناء القرية، ويعتبرونه أحد أسرارهم للانتقال إلى القرى اللبنانية وزيارة أقاربهم ولنقل بعض حاجياتهم من هناك، لذا عليكم أن تعدوني وعداً تقابلون الله فيه، بأن يكون سلوككم لهذا الطريق مرة واحدة فقط، وأن لا تفكروا بالإفصاح عنه لأحد أو أن تسلكوه مرة أخرى إن رغبتم في العودة إلى سوريا مهما كانت الأسباب.

نظر زياد إلى الرجال الثلاثة الذين كانوا معه وأجاب بثقة وثبات:

- أنا أعدك بذلك يا عم، وأُشهد الله على الالتزام بهذا الوعد، وأظن أن الشباب الذين معي سيفعلون ذلك.

ردّد الآخرون ما قاله زياد تماماً. عندها عاد الرجل العجوز لابتسامته وهمّ واقفاً وهو يقول:

- حسناً، سنتوكل على الله، سأعود إليكم بعد صلاة العصر لنتباحث في التفاصيل، وإن كنتم جاهزين، يمكنكم الانطلاق قبيل المغرب بإذن الله.

أحس الجميع بالراحة لما فعله وما أخبرهم به الرجل العجوز، كانت فرصة جيدة للجميع لتجتمع كل أسرة مع أفرادها، جلس زياد في إحدى الزوايا يحيط به أبناؤه وزوجته، أخذ يباسطهم الحديث ويسألهم عن صحتهم وعن رغبتهم في إكمال المسير مساء اليوم. كانت إجاباتهم متشابهة تقريباً سوى ما قالته ابنته هبة، فلقد نظرت ملياً إلى وجه أبيها ثم إلى وجه أمها وقالت ببراءة:

- لا شيء يشعرني بالخوف أو التعب أو الجوع يا أبـي سوى أمر واحد فقط، أرتعب جداً لمجرد التفكير أنه من الممكن أن أفقد أحدكما أنت أو أمي، ما دمتما حولي لا أخشى أي شيء ولا أحس بأي تعب.

كادت أن تفر دمعة من عيني زياد لفرط تأثره بكلمات ابنته، لكنه تمالك نفسه وأمسك بيدها الصغيرة وقبّلها وهو يقول لها:

- لا تخشي شيئاً يا ابنتي، فالله حامينا، ولا تنسي ما نقوله دائماً، قُل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

تدخلت سعاد وسحبت ابنتها لتحتضنها بقوة وهي تقبل رأسها. قفز أحمد عندها واقفاً وهو يقول مخاطباً أخته:

- ونحن يا سيدة هبة، ألا يهمك أن تفقدي أحداً منا، ألسنا إخوتك.

أجابته هبة بابتسامة وهي تنعم بحضن أمها لها:

- بلى، أنا قصدتكم جميعاً، لكن أبـي وأمي أولاً.

ابتسم الجميع لتصرف أحمد، واستمرت جلستهم على هذا الحال وهم يتحدثون بمواضيع مختلفة حتى حان وقت صلاة العصر.

اجتمع بهم الرجل العجوز بعد الصلاة وبادرهم بالحديث قائلاً:

- قبل غروب الشمس بساعة سنتحرك من هنا إن شاء الله، الساعة الأولى عليكم أن تمشوا بها بحذر، فالطريق وعرة، لذا من الأفضل أن تسيروا قبل مغيب الشمس لتكون رؤيتكم واضحة، المسافة التي تليها يمكنكم أن تقطعوها بسهولة ولكن بحذر، ستكون وجهتكم قرية «رجم خلاق»[12] في لبنان، فأهلها أهل جود وكرم، وأنا على يقين بأنهم سيستقبلونكم أفضل استقبال. ربما

تستغرق رحلتكم الأربع ساعات أو أكثر حسب مشيكم وتوقفكم لنيل قسط من الراحة، مما يعني وصولكم لوجهتكم بعد العشاء بإذن الله، هذا ما لدي الآن لأقوله لكم، فكونوا على استعداد للتحرك بعد ساعة من الآن بإذن الله.

بدأت سعاد وباقي النسوة بالاستعداد لرحلتهم القادمة، والتي يتوقعون أن تكون حياتهم أكثر أماناً بعدها، انقضت الساعة سريعاً دون أن يشعر الجميع بها، جاءهم الرجل العجوز وهو يحمل بعض الأكياس الصغيرة، سلّم على الجميع مبتسماً وهو يقول:

- سننطلق الآن إن كنتم جاهزين لذلك، لقد أحضرت لكم بعض الأطعمة الخفيفة والبسكويت للصغار، وبعض الماء والعصير التي ستعينكم على رحلتكم بإذن الله.

شكره الجميع وهم يقفون مستعدين للبدء في رحلتهم، رد عليه زياد بعد أن نظر إلى أبنائه وإلى باقي الرجال قائلاً:

- توكلنا على الله.

سار الجميع خلف الرجل العجوز بخطواته البطيئة المتأنية والصمت يلفهم، كان كل واحد منهم يفكر بأن الساعات القليلة القادمة هي ما ستفصله بين الحياة والموت، ولطبيعة هذا السير الهادئ الصامت، كانت الفرصة مناسبة جدا ليسبح كل واحد منهم في أفكاره وتأملاته. استمر سيرهم بين أزقة القرية بضع دقائق بشكل سهل، حتى صارت منازل القرية خلفهم وأصبح أمامهم جبل صخري لا يعرفون كيف سيجتازونه، عندما اقتربوا أكثر من الجبل التفت إليهم الرجل العجوز وقال لهم:

- سأوصلكم إلى الطريق التي عليكم أن تسلكوها بحذر، وسترون آثار أقدام واضحة أمامكم، اتبعوا هذه الآثار بشكل دقيق، وإياكم والاجتهاد، ستصادفكم بعض الصخرات المرتفعة، والتي عليكم أن تتعاونوا في اجتيازها، وبخاصة الأطفال والنساء، في منتصف طريقكم في هذا الجبل ستجدون طريقا محفورة بين الصخور، اسلكوها ولا تخافوا العتمة، فهي الطريق الوحيدة للعبور إلى الجهة الأخرى من الجبل، بعد أن تجتازوه سيصبح الأمر أسهل عليكم في الهبوط، ولكن احذروا الانزلاقات، وستتمكنون بإذن الله من إكمال الطريق في عتمة الليل، فقط اتبعوا آثار الأقدام التي ترونها أمامكم، أثناء سيركم سترون الأنوار أمامكم واضحة حيث قرية «رجم خلاق»، توجهوا إليها بشكل مباشر.

عندما أنهى الرجل العجوز كلامه كانوا قد وصلوا إلى بداية الطريق الكائن في سفح الجبل الذي أخبرهم عنه، توقف وابتسم في وجوههم جميعاً وهو يقول:

- رافقتكم السلامة يا أبنائي، أرجو من الله أن ييسر أمركم وينجح مساعيكم.

شكره الرجال بعد أن سلموا عليه وبدأوا في طريقهم يتصدرهم زياد ورجل آخر، وبقي الرجلان الآخران في آخر الركب. كان زياد حريصاً بشكل شديد على السير بخطوات ثابتة مقتفياً الأثر الذي يراه أمامه، وفي كل خطوة يخطوها كان ينظر إلى الخلف ليتأكد من أن الجميع يلحقون به دون زلل. كان يشرف على تجاوز الجميع لكل صخرة أو مرتفع يراه صعباً على النساء

والأطفال، ويتابع بنظره وجوه الجميع، بعد فترة بسيطة من سيرهم رأى التعب والإرهاق على وجوه الجميع من مشقة الصعود والسير في هذه الطريق الوعرة، لكنه آثر الإكمال في السير على أخذ قسط من الراحة لصعوبة التوقف في هذا الطريق، ولخوفه من أن يهبط عليهم الليل قبل أن يكملوا هذا الجزء من الطريق، تجاوز الجميع الجبل مع بدء عتمة الليل، وكما أخبرهم الرجل العجوز، مع ظلمة الليل بدأت أنوار منازل القرية تظهر من بعيد، ما أن انتهوا من هبوط الجبل حتى أشار عليهم زياد بأخذ قسط من الراحة معتذراً عن المشقة التي عانوا منها في السير وراءه دون راحة.

المعيشة في لبنان

اقترب زياد ومن معه من مشارف قرية «رجم خلاق» في منطقة «وادي خالد»[13] في لبنان، أدرك أنه أخيراً أصبح في الأراضي اللبنانية، باتت رؤية الأضواء الخافتة في عتمة الليل كرؤية الحياة بين الأموات. كان سيرهم على الأقدام لمسافات طويلة خلال الأيام الثلاثة الماضية مضنياً بشكل كبير جداً، وبخاصة على أحمد وزهرة، فصغر سنهما وضعف بنيتهما الجسدية لم تكن لتساعدهما على خوض هذه الرحلة بسهولة. توقف قليلاً والتفت إلى أولاده وإلى من كان يرافقهم من العوائل النازحة وهو يقول لهم مبشراً:

– الآن أستطيع أن أقول لكم إن الخطر قد زال، فها هي منازل «رجم خلاق» باتت واضحة، لم يبقَ الكثير حتى نصل إليهم، وبعدها سنرتاح من هذا العناء إن شاء الله.

سألته زهرة بصوت خافت يكاد يخلو من الحياة:

– لم يبقَ الكثير، ما معنى هذه الكلمة يا أبـي؟ لم أعد أقوى على الحركة نهائياً يا أبـي، دعنا نرتحْ قليلاً أرجوك.

حملها على كتفه وهو ينظر إلى زوجته وإلى بقية أبنائه قائلاً:

– لا يا حبيبتي، علينا الاستمرار بالسير، لم يبقَ أمامنا سوى نصف ساعة أو يزيد، علينا الوصول إلى القرية قبل أن ينام أهلها كي نجد من يستقبلنا أو يستضيفنا، إن توقفنا الآن سيتحتم علينا البقاء في هذا العراء للصباح.

سمع صوت إحدى النسوة من العوائل التي كانت ترافقهم وهي تقول:

– نعم، صدقت يا أخي، لنتحامل على أنفسنا قليلاً ولنكمل المسير، يمكننا أن نتساعد في حمل الصغار، لن نقوى على المبيت في هذا العراء ليلة أخرى، لعلنا نجد من يؤوينا أو يساعدنا من أهل القرية إن وصلنا مبكرين.

أكمل الجميع سيرهم بخطى بطيئة متثاقلة والتعب يكاد يهلكهم، ما أن اقتربوا أكثر من القرية حتى لمحوا طفلاً صغيراً يراقبهم من بعيد، ثم يجري راكضاً إلى أحد المنازل في القرية، وما كانت سوى لحظات حتى رأوا امرأة كبيرة بالسن منحنية الظهر تخرج من البيت الذي دخل إليه الطفل وهي تنظر حيث أشار إليها الولد الصغير، دققت النظر باتجاههم كي تتبين إن كانت تعرفهم أم لا دقائق عدة، ثم سمعوا صوتها يعلو بكلمات لم يتبينوا حقيقتها، وخلال دقائق بسيطة خرج العديد من الرجال والنساء من البيوت المجاورة لبيت المرأة العجوز يرافقهم بعض الأطفال، وأخذ بعض الرجال يسير باتجاه زياد وأهله ومن معه وهم يتصايحون، حين اقترب الرجال منهم سمعهم زياد يقولون:

- يا أهلاً بالضيوف، حمداً لله على سلامتكم، أهلاً وسهلاً بأهلنا وإخوتنا، لعن الله من كان سبباً في معاناتكم، أهلاً وسهلاً بين أهلكم وفي بيوتكم.

كان لهذه الكلمات أشد الأثر على زياد ومن كانوا معه، أخذ زياد ينقل بصره بين الرجال القادمين نحوه وبين زوجته ومن كانوا معه وعيناه تفيضان بالدمع، لم يستغرب زياد من رؤية الدموع تنهمر من أعين جميع من كانوا معه، فما مرّوا به في رحلتهم هذه كان أكبر من أن يوصف، وعبارات الترحيب هذه كانت كفيلة بأن تحرك مشاعرهم.

ما أن وصل رجال القرية لزياد ومن كانوا معه حتى أخذوهم بالأحضان، وحملوا ما كان معهم على أكتفاهم بما في ذلك الأطفال، ثم ساروا أمامهم وهم يرددون عبارات الترحيب بلا توقف، وعند اقترابهم من منازل القرية بادرت النسوة بالفعل ذاته من الترحيب والتأهيل بالقادمين والسلام على سعاد والنسوة اللاتي كن معها. وبادرت كل امرأة من أهل القرية بسحب إحدى النسوة إلى بيتها مع أبنائها وهم يواسونهن ويرحبن بهن، أما زياد ومن كان معه من الرجال فبقوا ينتظرون رجال القرية كي يوجهوهم حيث يشاؤون، وبالفعل قادهم أحد الرجال إلى منزلٍ أكبر من غيره مرحباً بهم في مضافة المنزل، ما أن دخلوا المنزل حتى رمى زياد وصحبه أجسادهم على كنب المضافة بتعب واضح. بادرهم بالكلام أكبرهم، وكانت تبدو عليه سيم الوقار قائلاً:

- مرحباً بكم بين إخوانكم وأهلكم، لكم صدر البيت ولنا عتبته، أنتم أهل المكان ونحن ضيوف عندكم، حمداً لله على سلامتكم، أنتم هنا في أمان إن شاء الله، تقاسمونا السكن والطعام، يصيبكم ما يصيبنا ولا يمنعكم عن طلب حاجتكم سوى ذكرها. أنا أخوكم أبو نصري، ولكم أن تعتبروني من الآن مسؤولاً عن تلبية كافة طلباتكم وحاجاتكم مهما كانت، وجميع رجال القرية ونسائها سيقومون بنفس هذا الدور بإذن الله، وهاهم شباب القرية ووجهاؤها ينتظرون بفارغ الصبر استضافتكم.

كان لهذا الترحيب من هذا الرجل كبير الأثر على زياد وأصحابه الثلاث، ردّ زياد على ترحيبه قائلاً:

- أعجز عن الرد على ترحيبك يا سيد أبا نصري، فوالله لو علمتَ ما عانينا منه في رحلتنا هذه لعرفت لما بكت أعيننا عندما وجدنا هذا الترحيب منكم.

قاطعه أبو نصري قائلاً:

- أستغفر الله يا أخي، هذا واجبنا، فأنتم أهلنا وإخوتنا، ووالله لو جئتم إلينا قبل هذه الأحداث لما وجدتم ترحيباً أقل من هذا الترحيب، هذا حقكم فلا تبخلوا علينا بإيفاء هذا الحق.

انتهى هذا الحوار الترحيبـي بين زياد وصحبه وبين أهل القرية، قام أهل القرية باستضافة المجموعة القادمة إليهم كلٌّ حسب مقدرته وإمكانياته، أما استضافة زياد وأسرته فكانت من نصيب كبير القرية أبـي نصري الذي حلف بذلك على رجالات القرية عندما بدأوا يتسابقون في استضافة المجموعة، بدأ الهدوء يعود إلى القرية وسكانها بعد أن توزعت العائلات على المضيفين.

وفرّ أبو نصري لزياد وأسرته غرفة مخصصة للضيوف قريبة من باب منزله وشبه منفصلة عنه، ويجاورها عند مدخل المنزل حمّام صغير مخصص للضيوف، تم تجهيز هذه الغرفة بالمفارش والألحفة بما يكفي زياد وأبناءه كي يناموا بطريقة افتقدوها أشهراً عديدة، قامت زوجة أبي نصري بإعداد وجبة عشاء غنية بما لذ وطاب وأدخلتها للمضافة حيث جلس زياد وأبناؤه، كانت ردة فعل الأولاد طبيعية عندما بدأوا عشاءهم بشكل نهم، فهم لم يتناولوا وجبة كهذه منذ فترة طويلة جداً، حتى أنهم كادوا أن ينسوا أسماء هذه الأصناف التي يرونها أمامهم الآن، حاولت سعاد أن تسيطر على أبنائها خوفاً عليهم من أن يصابوا بآلام في المعدة جراء حرمانهم الطويل ومن ثم أكلهم بشكل كبير، كانت تتابع كل لقمة يحاولون أكلها طالبة منهم أن يقسموها لأجزاء أصغر وأن يمضغوا بشكل أكثر، وأن يشربوا الماء بشكل مستمر، طوال فترة العشاء كان زياد يأكل لقيمات بسيطة وهو يحمد الله ويشكره، انتهوا من العشاء بشكل سريع لامتلاء بطونهم الصغيرة. نام الأطفال بشكل سريع دون أن يتحركوا من أماكنهم، أما سعاد فأخذت بمساعدة أم نصري في رفع المائدة. وبعد أن انتهت من ذلك، جلست بجوار زوجها ساندة رأسها على كتفه، ثم همست له وهي ترى صمته والإرهاق البادي على تفاصيل وجهه قائلة:

- هل سنشعر بالأمان مرة أخرى يا زياد؟

وضع يده حول كتفها وهو يجيب دون أن ينظر إليها:

- أتمنى ذلك، لكني لن أشعر بالأمان الحقيقي إلا بإحدى حالتين، إما أن نعود لأرضنا ولمنزلنا بعد أن يزول هذا النظام الغاشم، وإما أن نموت.

قبّلت يده وهي تقول بألم:

- لِم تقول هذا الكلام يا زياد؟ أرض الله واسعة، والأمان الذي نطلبه موجود في كل الأرض. منك نستمد قوتنا فلا تجزع ولا تضعف يا زياد. الحمد لله ها نحن نجلس الآن مع أبنائنا في ضيافة أهل الخير، تحت سقف واحد، لا قتل ولا قذائف ولا براميل، هل ترى كيف ينام أبناؤنا، كدت أنسى هذه اللوحة التي أراها الآن.

استلقى حيث يجلس وهو يجيبها:

- الحمد لله على فضله، أرجو من الله أن تكون رحلتنا هذه نهاية معاناتهم. وليكتب الله لنا الخير حيث كان.

بات الجميع ليلة لم يناموا مثلها منذ أشهر، كان الجميع ملتصقين بعضهم ببعض كما تعودوا في أيامهم الخالية، كانت سعاد تشعر بأحدهم يستيقظ فزعاً بين الحين والآخر، فتقوم بالتربيت على رأسه واحتضانه حتى يغفو مرة أخرى.

لم يستيقظوا جميعاً قبل ظهيرة اليوم التالي. اغتسل الجميع وغيروا بعضاً من ملابسهم، كانت هذه الليلة كفيلة بأن تعيد لهم الحياة وتغير من أشكالهم جميعاً، وكأن روحاً جديدة بُعثت فيهم.

اجتمع الرجال على وليمة الغداء في المضافة عند أبي نصري، أما النساء فاجتمعن في بيت أم العبد، المرأة العجوز التي رأتهم أول الأمر. كان أبو نصري يتوسط المجلس وبجواره زياد، وبعد أن انتهى الجميع من غدائهم وبدأوا يتجاذبون الأحاديث، رفع أبو نصري صوته موجهاً كلامه لزياد وصحبه قائلاً:

– يا إخواني، أعيد وأكرر عليكم ما قلته بالأمس، أنتم الآن أهلنا وإخوتنا، يجري عليكم ما يجري علينا، تأكلون مما نأكل وتنامون حيث ننام، لكم في رقابنا حقُ الضيافة والنصرة، وستسعكم قلوبنا قبل بيوتنا، ونحمد الله على أن نجاكم مما ألمّ بكم من كرب، ولقد بتم ليلتكم الأولى في أمان، أرجو من الله أن يتمّه عليكم ويطيل في أعماركم. من كان له حاجة فليعلن عنها لي شخصياً دون تردد.

شكره الرجال بهمهمات واضحة، ثم قال زياد:

– شكر الله لكم صنيعكم هذا يا أبا نصري وباقي الرجال. وأعاننا الله على أن نردّ لكم معروفكم، وسأقول عن نفسي وعن باقي الرجال إن أذنوا لي ذلك، بأننا لا نريد أن نكون عالة عليكم، فاستقبالكم لنا في بيوتكم نحن وأبنائنا كاف جداً، فإن كان هناك ما نقوم به لطلب الرزق أو لمعاونتكم في ذلك فسنكون شاكرين.

ابتسم أبو نصري لمبادرة زياد وردَّ عليه بعد أن ربّت على كتفه قائلاً:

– من المبكر الحديث في هذا الأمر يا أخي، فأنتم الآن ضيوفنا، ولن نسمح لكم بأن تقوموا بأي عمل قبل أن تأخذوا حق الضيافة، ثم إن أجسادكم ما زالت متعبة، وتحتاج إلى الراحة والغذاء حتى تستردوا عافيتكم، أشكرك على هذه النفسية الطيبة.

انفض المجلس وذهب كل رجل لشأنه، وبقي زياد عند أبي نصري، استغل زياد الأمر وقصّ على أبي نصري قصته كاملة منذ اندلاع الثورة حتى وصولهم إلى القرية، كان أبو نصري يستمع لحديث زياد بتركيز وتأثر واضحين، ولم يكفّ عن الحوقلة والاستغفار طوال الوقت، فما سمعه من زياد كان بشعاً لدرجة لا توصف. لم يشأ أبو نصري أن يدع زياد غارقاً في ذكرياته ومعاناته القريبة، قال له بهدوء:

– الحمد لله على سلامتكم، ولعلّي أرجو من الله أن يجعل ما عانيتم منه في ميزان حسناتكم، والحمد لله أن أنجاكم من هذا البلاء. ليس عليك الآن أن تفكر فيما مضى، فالتفكير فيه سيثقل كاهلك ولن يعود عليك بأي نفع، وها أنت الآن هنا مع أولادك سالمين معافين والحمد لله، هون عليك يا أخي واحمد الله.

حمد زياد الله ثم أكمل حديثه مع أبي نصري لبعض الوقت، انصرف بعدها أبو نصري تاركاً زياد ليدخل إلى الغرفة التي خصصت له ولأهله. جلس زياد بين أولاده وهو يراقبهم بصمت، أخذ يتحدث معهم واحداً واحداً ويسألهم عن صحتهم وعمّا يشعرون به الآن بعد أن استطاعوا النجاة من أهوال الحرب التي مروا بها، كان أشد تعليق أثّر فيه ما سمعه من ابنته هبة حين قالت ببراءة:

– هل هربنا من الموت يا أب.ي، ألن تلحق بنا القذائف إلى هنا؟

عندها احتضنتها سعاد بحنو وهي تجيبها:

– بل هربنا من ويلات الحرب يا ابنتي، الموت لا مفرَّ منه، وهو حق، لكن ليس عليك أن تخافي بعد الآن من أي شيء، نحن بأمان الآن والحمد لله. ألا تشعرين بذلك يا ابنتي؟

أجابت زينة أمها قبل أن تجيب هبة قائلة:

– لم أستطع النوم يا أمي، صور الدماء وأصوات القصف لاحقتني في كل لحظة وأنا نائمة، ما رأيته في نومي بالأمس كان مرعباً جداً.

رد عليها أحمد بأسلوبه الطفولي:

– هذا لأنك لم تقرأي المعوذات قبل نومك، أنا لم أرَ شيئاً في نومي، وأنا لا أخاف الموت، لكنني أخاف أن أفقد أب.ي وأمي أو أن أفقد إحداكن.

احتضنه زياد وهو يقول له:

– أحسنت يا ولدي، أنت رجل، والرجل لا يهاب أحداً سوى الله.

نظر بعدها زياد إلى فاطمة وصمتها المخيف ثم خاطبها قائلاً:

– فاطمة يا ابنتي، هل تحسين بالأمان الآن؟

لم تجبه فاطمة، فلقد كانت صامتة تستمع لما يقال حولها دون أن تبدي أي اهتمام أو تفاعل تجاهه. أعاد عليها زياد السؤال وانتظر منها الإجابة، كان يعلم يقيناً أن فاطمة هي الأشد تأثراً بكل ما يحدث معهم بسبب كبر سنها ووعيها لحقيقة ما يحدث، عدا عن شخصيتها القلقة بشكل عام. كرر عليها السؤال مرة ثالثة وهو يحثها على الكلام كي يخرجها مما هي فيه حتى سمعها تقول بصوت خافت:

– أتمنى أن نكون حقاً قد هربنا من الموت.

اقتربت منها أمها واحتضنتها واضعة رأسها على صدرها وهي تقول لها:

– ستكونون بأمان إن شاء الله، وستكون حياتكم هادئة بحول الله، أريحي عقلك من التفكير قليلاً، وليكتب الله لكم الراحة والطمأنينة بقوته وحوله.

قضى زياد أيامه الثلاثة اللاحقة يتنقل بين مجلس الرجال في اجتماعاتهم وبين غرفتهم الخاصة ينال فيها الراحة في هدوء وسكينة، كان يقضي جلَّ وقته شارد الذهن يتذكر كل ما مرّ به أثناء رحلة الهروب من سوريا، لم تغب عن ذهنه صورة مروان، كان يفزع أحياناً في جلوسه من فرط إحساسه بكل حدث مرّ به سابقاً، كان يرغب في الخروج مما هو فيه بأي وسيلة، ولم يكن

هناك طريقة سوى التفكير بالمستقبل بعد أن أصبح الهدوء والأمان واقعاً يعيشه بعد أن سيطر عليه فقدان الأمل إلا بالله قبل هروبهم من سوريا. وفي اليوم الرابع استغل فرصة اختلائه بأب.ي نصري مساءً بعد أن غادر جميع الرجال المجلس، اقترب أكثر حيث يجلس أبو نصري وقال له بصوت هادئ:

– أبو نصري، لي حاجة عندك أرجو أن تلبيها لي كي أخرج مما أنا فيه.

ابتسم أبو نصري وكأنه فهم ما يريد قوله زياد قبل أن يقوله.

أكمل زياد قائلاً:

– أنا رجل لم أعتد الجلوس بلا عمل يا أبا نصري، ولم أكن عالة على أحد حتى على والدي مذ كنت في المدرسة، أنتم أكرمتمونا باستضافتكم لنا أيما إكرام، لكن بقائي بهذا الشكل سيكون مرهقاً لي بشكل كبير، ولن أستطيع الصبر عليه طويلاً، أرجوك أن تدلني على أي شيء أقوم به كي أطلب رزقي وأعيل أبنائي، وأعدك بأني سأبحث عن سكن مناسب لي ولأولادي بأسرع ما يمكن.

هنا قاطعه أبو نصري قائلاً:

– يا أبا أحمد، أنت ضيفي إلى أن يشاء الله، ولن أقبل أن تنتقل للسكن في أي مكان في القرية خارج منزلي، وهذا أمر لا مناص منه. أما عن عملك فلا بأس أن نبحث سوياً عما يناسبك. أخبرني فيما تحب أن تعمل، وسأساعدك بذلك من فوري.

سرّ زياد لكلام أب.ي نصري، فقال له على الفور:

– أنا أجيد البيع والشراء، وكان لدي محل أبيع فيه الخردوات، كما أن لي علاقات جيدة ببعض التجار هنا في لبنان حيث كنت أبيع لهم وأشتري منهم بين وقت وآخر، أعرف أن هذا الأمر قد لا يكون مناسباً في القرية، فالبيع والشراء فيها محدود جداً، لكن لا بأس أن أعمل أي عمل آخر، ربما في الزراعة أساعد فيما أستطيعه، أو ربما في الحراسة أو حتى في البناء.

رد عليه أبو نصري بشكل مباشر:

– بل على العكس يا زياد، عملك في التجارة قد يساعدني أنا شخصياً، فهناك محل كبير بعض الشيء في ساحة المسجد، يعود لي، وأنا أديره بشكل مباشر، يعتمد عليه أهل القرية في حاجاتهم الرئيسية، ويسجلون طلباتهم أحياناً كي أحضرها لهم من «طرابلس»[14]، وجودك معي سيساعدني كثيراً، فإن لم يكن عندك مانع، أرجو منك أن تساعدني في إدارته، ونتقاسم وقت الجلوس فيه حسب ما تراه مناسباً، ونكون بذلك قد استفدنا وأفدنا أهل القرية كذلك.

ابتسم زياد وصافح أبا نصري بسعادة وهو يقول:

– بل سأكون شاكراً لك بالتأكيد، وسأذهب معك من الصباح الباكر. كم أنا عاجز عن شكرك يا أبا نصري، لكني متأكد من أن الله سيجزيك عنا كل خير.

سعد أبو نصري جداً لردة فعل زياد، متمنياً التوفيق للجميع.

كان زياد مبتسماً منشرح الصدر عندما دخل على أبنائه، لاحظ الجميع ذلك، اقترب من فاطمة وجلس بجوارها وهو يقول لها:

- كيف حال حوريتي الصغيرة؟

أجابته وهي ترخي بجسدها على صدره:

- الحمد لله يا أبـي، عندما أرى ابتسامتك، أُحس بالأمان، وهذا يكفيني.

قبّل رأسها وهو يحتضنها، ثم نظر إلى زوجته وهو يقول لها:

- الحمد لله، سأعمل مع أبـي نصري في إدارة محلّه من الغد، لا أريد أن نكون عالة على أحد أبداً.

أحس الجميع بالراحة لِما رأوه من سعادة على وجه زياد، وكانت ليلتهم هذه يشعرون فيها بصفو الحياة بعد ما عانوه سابقاً من ويلات الحرب.

انغمس زياد في العمل مع أبـي نصري بشكل مباشر، وصار يقضي جلّ وقته في المحل، ولا يعود إلى أهله إلا متأخراً، حتى أن أبا نصري عاتبه مرات عديدة على انهماكه الزائد في المحل على حساب راحته وجلوسه بين أولاده، مع سعادته الداخلية لما رآه من همة ونشاط من زياد في العناية بالمحل وبطلبات أهل القرية.

لم تمضِ فترة طويلة حتى أصبح أبا نصري يأخذ زياد معه إلى «طرابلس» لشراء البضائع وللتعرف على أهم المحلات التي يتعامل معها لتوفير ما يحتاجه المحل. أتقن زياد عمله وبدأ يبني علاقات جيدة مع تجار «طرابلس»، فلقد رأوا منه دماثة الخلق والاجتهاد والأمانة، وسمعوا الكثير عنه من أبـي نصري الذي صار يعامله كأخ أصغر له. ولم يكن الأمر بعيداً عن حال زوجته سعاد مع أم نصري التي باتت تعاملها كابنتها في البيت، فلم تكن سعاد ترضى بأن ترى أم نصري تقوم بأي عمل في المنزل دون أن تساعدها أو حتى أن تقوم بهذا العمل عوضاً عنها، حتى أولادهم باتوا جزءاً منسجماً مع أبناء القرية يلعبون معهم ويتزاورون فيما بينهم. فاطمة الوحيدة التي لم تجد لها مكاناً مناسباً في هذه البيئة، مع أن التصاقها بأمها جعلها أقرب لنساء القرية منه إلى من هم في سنها، كانت سعاد تراقب وضع فاطمة بحذر دون أن تضغط عليها، فهي أكثر من يدرك بأن فاطمة لها طباعها الخاصة، وأكبر أثر تركته الحرب في بلدهم كان على فاطمة.

ذات يوم بينما كان زياد عائداً من طرابلس يحمل معه بضائع للمحل مع أحد السائقين الذين يتعامل معهم أبو نصري لنقل بضائعه، إذ بحاجز أمني مؤقت يوقف جميع السيارات العابرة للطريق، أحس زياد بانقباض وقلق في صدره، فلقد صار يكره الزي العسكري حيثما رآه. بدأ يهمهم بأدعية وآيات كي يحفظه الله من عساكر هذا الحاجز، ما أن وصل السائق إلى جوار العسكري الذي يفتش السيارات حتى أشار للسائق بأن يطفئ محرك السيارة وهو يطلب منه الأوراق الثبوتية

له ولمن معه، امتثل السائق لأوامر العسكري وبدأ بإخراج أوراقه الثبوتية وأوراق سيارته، فقال له العسكري بصوت أجش:

- أريد أن أرى الأوراق الثبوتية للشخص الذي يجلس بجوارك.

نظر السائق إلى زياد وهو ينتظر منه أن يعطيه أي أوراق تثبت هويته دون أن يعرف أي تفاصيل عن وضعه، فما كان من زياد إلا أن أخرج هويته السورية وأعطاها السائق كي يعطيها للعسكري، عندما رآها العسكري أمر زياد بالترجل من السيارة، ترجل زياد من السيارة وبقي واقفاً أمام العسكري ينتظر منه أي توجيه، نظر إليه العسكري نظرة حادة وهو يقول له:

- أين جواز سفرك يا زياد؟

فأجابه زياد باضطراب:

- لا أحمله معي يا سيدي، لكنه موجود حيث أقيم في قرية «رجم خلاق».

أدار العسكري وجهه حيث كان يجلس ضابط في سيارة أمن واقفة على جانب الطريق وهو يقول لزياد:

- قف مكانك حتى أعود إليك.

توجه العسكري حيث الضابط وزياد والسائق يراقبانه، لحظات ثم عاد إليهما وهو يقول لزياد بصيغة أمر:

- الضابط يريد أن يحدثك، الحق بـي، أما أنت أيها السائق، أبعد سيارتك عن الطريق وتوقف جانباً حتى لا تكون سبباً في تعطل باقي السيارات عن المسير.

توجه زياد من فوره للضابط حيث أشار العسكري، وكذا فعل السائق ما أمره به العسكري، عندما وصل زياد حيث الضابط، وقف أمامه منتظراً أي توجيه منه، قال له الضابط بهدوء:

- يا زياد، سأسألك بشكل مباشر، هل دخلت إلى لبنان من أحد المنافذ الرسمية، أم دخلت بشكل غير نظامي عبر الحدود المفتوحة بين البلدين؟ بمعنى آخر، هل تم تسجيل دخولك إلى لبنان في الأنظمة الأمنية؟

سكت زياد قليلاً قبل أن يجيب، فما زالت قناعاته التي نشأ عليها مسيطرة عليه، الصدق منجاة، وحبل الكذب قصير مهما طال. أجاب الضابط بهدوء:

- بل دخلت لبنان مشياً على الأقدام هروباً بأبنائي من ويلات الحرب إلى «وادي خالد»، وأنا الآن أعيش معهم في قرية «رجم خلاق»، ولم أفكر للآن بتسجيل دخولي إلى لبنان بشكل رسمي، لكني أعرف يقيناً أنه عليّ القيام بهذه الخطوة عاجلاً أم أجلاً، لم يمضِ على دخولي إلى لبنان سوى أسابيع قليلة، ولم أواجه ما يجعلني استعجل في تسوية أموري النظامية في لبنان.

ابتسم الضابط أمام زياد وقال له:

– أشكرك على صراحتك يا زياد، لكن اعذرني، فعليّ القيام بواجبي، يجب أن أقوم بحجزك الآن حتى تتم تسوية وضعك بتسجيلك ضمن إحدى منظمات اللجوء، الأمر أصبح أكبر من طاقة لبنان، ولابد من السيطرة عليه حتى تتمكن الدولة من الحصول على دعم دولي لإعانة اللاجئين.

اضطرب زياد لما سمعه من الضابط، فهذا يعني أنه سيفترق عن أبنائه الذين ليس لهم بعد الله سواه، لكنه آثر البقاء على هدوئه وهو يردّ على الضابط سائلاً:

– ألا يوجد طريقة أستطيع من خلالها تسوية أموري دون حجزي؟ فأنا المعيل الوحيد لزوجتي وأبنائي، وحجزي بهذه الطريقة سيكون مرعباً بالنسبة إليهم، أرجوك يا سيدي أن تساعدني في هذا الأمر.

أطرق الضابط بنظره إلى الأرض وهو يجيب زياد:

– أعذرني يا زياد، فأنا أتعاطف معك لما تمرون به من ويلات، لكن هذا عملي، وعليّ تأديته.

ثم أشار الضابط لأحد العساكر الواقفين بجواره وقال له:

– ضعه في سيارة الأمن حتى يتم نقله إلى أقرب مركز أمني، وهم سيتابعون إجراءاته لاحقاً.

امتثل زياد للضابط والعسكري الذي أمسك بيد زياد ليضعه في سيارة الأمن، أخذ زياد ينظر إلى السائق الذي كان معه يريد أن يحدثه، فهم العسكري الذي يقود زياد ما يرغب به، فأشار للسائق بالاقتراب، قال له زياد بصوت واضح:

– أرجو منك أن تعذرني أن سببت لك هذا التأخير، أكمل طريقك إلى القرية، وسلّم البضاعة إلى أبي نصري، وأخبره بما حصل معي.

أومأ له السائق واتجه من فوره إلى سيارته وانطلق يكمل طريقه. أما زياد فبقي في سيارة الحجز لفترة ليست بالطويلة، حيث انضم إليه بضعة أشخاص آخرين، ثم توجهت بهم السيارة إلى مركز أمني قريب حيث أودع الجميع في غرفة حجز بعد أن تم تسجيل بياناتهم. بقي زياد في غرفة الحجز ساعات عدة حتى سمع أحد العساكر ينادي على اسمه.

في هذه الأثناء كان السائق قد وصل إلى القرية وأخبر أبا نصري بما حدث مع زياد، والذي بدوره أسرع إلى البيت وطلب من سعاد إحضار جواز سفر زوجها دون أن يخبرها بأي شيء، ثم توجه من فوره حيث تم حجز زياد، ولِما له من مكانة في المنطقة، فلقد رحّب به الضابط المناوب في المركز الأمني، وتم استدعاء زياد فور طلبه ذلك، عندما دخل زياد إلى غرفة الضابط، وفور أن وقع بصره على أبي نصري أحس بالراحة، وقف أبو نصري ليسلم عليه فور

أن رآه، طلب منه الضابط الجلوس على أحد المقاعد المجاورة لمكتبه، وقبل أن يجلس أبا نصري بجواره قال مخاطباً الضابط:

– كما أخبرتك يا سيادة الضابط، أخي زياد ضيف عندي، ولم نعتد معاملة ضيوفنا بهذا الشكل، وأنا معروف لديكم، وأتعهد لكم شخصياً بأن أي أمر يخص أخي زياد يقع على مسؤوليتي المباشرة.

ردّ الضابط مقاطعاً وهو يقول:

– مكانتك عندنا كبيرة يا أبا نصري، ولن أستطيع أن أردّ طلبك ولو على مسؤوليتي الشخصية. فقط ما أرجوه منك بأن تساعد زياد على تسوية وضعه بشكل عاجل، فقد يقع في أي وقت بأيدي الأمن في منطقة أخرى، وهذا سيجعله في موقف محرج.

شكر أبو نصري الضابط واعداً إياه أن يتولى هذا الأمر بنفسه. ثم خرج مع زياد من المركز الأمني وهو يمسك بيده ويطمئنه بأن أموره ستكون بخير.

كان لهذا الموقف الذي لم يستمر أكثر من بضع ساعات أشد الأثر على زياد، فلقد قضى هذه الساعات وهو يستعيد كل المعاناة التي مرّ بها في سوريا، وعادت به أفكاره إلى حالة أشد سوءاً مما كان عليه عندما وصل إلى لبنان، أخذ أبو نصري يحدثه بلطف وهدوء ويطمئنه بأن أموره ستكون على ما يرام، لكنه كان غائباً عن عالمه لاهياً بانكسار نفسه الذي يحسه في أعماقه، فهو لم يرتكب جرماً، هو رجل يبحث عن حياة هادئة آمنة له ولأطفاله، لِم عليه أن يكون ذليلاً لاجئاً يستجدي المعونة من الآخرين وهو قادر على العمل وعلى كسب رزقه؟ أي قوانين إنسانية تُبنى على إهانة هذا الإنسان وذله وانكساره؟ انتبه فجأة لحديث أب.ي نصري عندما أحس بيده تربت على كتفه وهو يقول له:

– يبدو أنك ما زلت غائباً عني بفكرك يا أخي زياد، هون عليك، فالأمر أهون من أن تفكر فيه بهذا العمق، توكل على الله ودع الأمر لي، وأنا أعدك بأن أسوي أمورك القانونية في لبنان خلال أيام، وخلال هذه الأيام لا داعي لخروجك من القرية.

ابتسم له زياد وقال له بشيء من الشرود:

– أشكرك جداً يا أبا نصري، ما تقدمه لي لا يقدمه حتى الأخ لأخيه، أرجو من الله أن يثيبك بالخير على فعلك.

عندما عاد زياد إلى البيت، كانت سعاد بانتظاره والقلق بادٍ عليها، لم تشأ أن تزعجه فور دخوله، انتظرت حتى استقر في جلوسه، لم يطل صمته فهو يعرف أن زوجته بانتظار معرفة ما حصل معه، أخبرها بتفاصيل ما مرّ به اليوم، وبكل الأفكار التي مرّت بمخيلته وما ألمّ به من ألم. حمدت سعاد الله على أن أعاده لهم بالسلامة، وأخذت تهوّن عليه الأمر وتواسيه محاولة تخفيف الأثر الذي تراه عليه، كانت تفهم تماماً كيف يفكر زوجها وكيف تتأثر نفسيته سلباً أو إيجاباً بما يفكر به، لم تشأ أن تترك له مجالاً أوسع للاستمرار في هذا الوضع.

صدق أبو نصري فيما وعد به زياد، فلم يمضِ سوى بضعة أيام حتى أعاد إلى زياد جوازات سفره وأولاده وعليها ختم الدخول إلى لبنان، ما جعل زياد يشعر بكثير من السعادة والراحة في الوقت نفسه.

استمر عمل زياد مع أبـي نصري لأسابيع، تكرر خلالها مشهد وصول بعض الهاربين من أتون الحرب في سوريا مرات عدة، وكان أهل القرية يفعلون معهم الأمر نفسه الذي فعلوه مع زياد وأهله عندما وصلوا إلى القرية. كان بعض الهاربين يستمر في سيره إلى إحدى المدن القريبة بعد أن يأخذ حقه من الضيافة، والبعض الآخر يجلس أياماً عدة قبل أن يجد بأنه لابد له من الرحيل بسبب صغر القرية وبساطة العيش ومحدودية طلب الرزق فيها. لكن أيضاً كان يوجد من ضمن الهاربين من لم يستطع الرحيل بسبب العجز وقلة الحيلة وغياب المعيل.

كان زياد خلال هذه الفترة قد فاتح زوجته مرات عدّة بعزمه على الانتقال للعمل في «طرابلس»، فمع قناعته بأنه أصبح شخصاً منتجاً في القرية، إلا أنه بدأ يشعر بأن هناك من يستحق الرعاية والضيافة التي يقدمها أبو نصري وأهل القرية أكثر منه، وعليه أن ينتقل للعيش في مكان آخر، بدأ يعمل لهذا الأمر بشكل حثيث في كل زيارة له إلى «طرابلس»، حتى جاء اليوم الذي وجد فيه عملاً مناسباً عند أحد التجار الذين تعامل معهم مرات عدة في زيارات عمله مع أبـي نصري، كانت الخطوة التالية أن يجد مسكناً مناسباً يستطيع دفع تكاليفه من هذا العمل. وبالفعل لم يطل بحثه كثيراً، فلقد وجد شقة صغيرة تقع كملحق في عمارة صغيرة، وكان صاحب العمارة رجل خير يبحث عن مستأجر يدفع له مبلغاً بسيطاً لتغطية الخدمات فقط، كانت الشقة مكونة من غرفتين صغيرتين وصالة وحمام ومطبخ صغير، اعتبرها زياد أفضل خيار له. اتفق مع صاحبها ودفع له أجرة شهرين مقدماً على أن ينتقل إليها خلال أسبوع.

في هذا اليوم بعد أن عاد زياد إلى القرية، فاتح أبا نصري في ما ينوي فعله بعد أن أنهيا عشاءهما قائلاً:

– أخي أبا نصري، لقد أكرمتني أيما إكرام في استضافتك لنا، ثم في توفير مصدر الرزق لي، وأنت على علم بأن هذا الوضع كله مؤقت، وأنه لا بد لي من الرحيل في وقت ما، وأظن أن الوقت قد حان، فالحمد لله قد وجدت عملاً مناسباً عند أحد التجار الذين تعرفهم في «طرابلس»، وأيضاً وجدت مسكناً مناسباً قريباً من مكان العمل، وأريد منك أن تأذن لي بالرحيل، ولن يكون هذا الرحيل سوى رحيل أجساد، فما قدمته لي ولأهلي سيبقى أبد الدهر ديناً في رقبتي أدعو لك الله دائماً في ظهر الغيب أن يثيبك عليه.

أطرق أبو نصري برأسه للأرض بعد أن أغمض عينيه قبل أن يجيب زياد بصوته الهادئ:

– والله لقد آلمتني بهذا الخبر يا أبا أحمد، لكنها أمور الدنيا لا تصفو لأحد، وأعرف يقيناً أني مهما قلت فلن أثنيك عن عزمك، وأستغفر الله أن تطلب مني الإذن على أمر يخصك، ما أريد التأكيد عليه يا أخي، أنك هنا في بيتك وبين أهلك، وإن كان هناك ما أستطيع فعله لأثنيك عن هذا القرار فسأفعله دون تردّد، وإن كان قرارك هذا بسبب تقصير مني أو من أهل بيتي أو بسبب أي أمر ضايقك من أهل القرية فأرجوك أن تخبرني به فوراً.

هنا قاطعه زياد قائلاً:

– على العكس من ذلك يا أبا نصري، فوالله لم تكونوا إلا أهلاً واخوة، وما قدمتموه لنا لن يكافئكم عليه سوى الله، لكنك ترى بأن اللاجئين يزدادون يوماً بعد يوم، وأراهم أحق مني بالرعاية، وأنا قادر بحول الله أن أكفل نفسي وأهلي، فليس من النخوة أو المروءة أن يبقى الأمر على ما هو عليه، وسيبقى التواصل بيننا قائماً بحول الله.

استمر صمت أبـي نصري لفترة ثم قال لزياد:

– كما تشاء يا زياد، لكني أستحلفك بالله بألا تتردد في طلب ما تحتاجه في انتقالك هذا، فأنت الآن صاحب فضل عليّ، ولعلي أجد من يسد مكانك في المحل.

شكره زياد وسلّم عليه بشدة وهو يستأذنه كي يخبر أهله بهذا القرار، فهو أول شخص يعلم به، على أن يرحلوا خلال يومين أو ثلاثة.

عندما دخل زياد عند أهله، لاحظ الجميع ابتسامته التي يعرفون أن وراءها عادة خبراً سعيداً، لم يطل انتظارهم، حيث جمعهم زياد حوله وأخبرهم بأنهم سينتقلون للعيش في «طرابلس»، بدأت أسئلة الأولاد تنهال عليه بشكل متتابع، حتى فاطمة التي لم يكن يُسمع لها صوت في حواراتهم العائلية منذ وصولهم إلى القرية شاركت في هذه الأسئلة، وكانت إجابات زياد لهم جميعاً بأن الأمور ستكون أفضل لهم جميعاً بحول الله ومشيئته.

انتقل زياد وأبناؤه إلى «طرابلس» بعد حفلة وداعية قام بها أهل القرية لزياد وعائلته، انتهت ببعض الدموع والكثير من عبارات الحب والأخوة التي جمعتهم بأهل القرية. أما أبو نصري، فلازم زياد في مرحلة تجهيزه لشقته الصغيرة وانتقاله حتى استقر أمره.

استمر وضع زياد أسابيع عدة وهو يعمل في «طرابلس» عند التاجر الذي اتفق معه، وفي الوقت نفسه كان يحاول أن يجد دخلاً إضافياً يعتمد عليه في تحسين معيشتهم، كان يعود إلى الشقة التي يسكنون فيها آخر الليل منهك القوى تكاد قدماه لا تحملانه من فرط العناء. لم يترك فرصة إلا وحاول أن يغتنمها، ولم يترك باباً لتحسين دخله إلا وحاول طرقه، لكن ثمة باب لم يطرقه بعد، أو بالأحرى لم يفكر كيف يمكن أن يدخل منه، ألا وهو تجارته السابقة مع من هم في «بيروت»، وفي منطقة «الضاحية»[15] تحديداً، كانت أفكاره المتلاحقة عندما تصل إلى هذه النقطة تقف تماماً، وكأن عقله بات في غفلة أو في سبات، لم يكن يرغب في التفكير في هذه النقطة بالذات.

في يوم من الأيام بينما هو سائر تتقاذفه أفكاره على أحد أرصفة شوارع «طرابلس» الشرقية، إذ برجله تصطدم بشيء فيه شيء من الليونة، نظر حيث أحس، فإذ بولدين صغيرين، أحدهما لا يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، والآخر لا يتجاوز الخمس سنوات، كانا نائمين بشكل لم يستطع أن يتجاوزه زياد، كان الكبير منهما يسند رأسه على حائط خلفه، ويده اليمنى تمسك بطرف صندوق صغير مخصص لمسح الأحذية، أما يده اليسرى فكانت تحتضن الطفل الصغير بشكل أبوي فطري. وكان الطفل الصغير يتوسد صدر الكبير وهو يحتضن يده بكلتا يديه، كانت علامات

الإعياء والبؤس بادية بوضوح عليهما، توقف زياد دقائق عدة وهو يتأمل هذا المنظر دون أن يستطيع أن يزيح عينيه أو يرمش بهما، بينما هو واقف يراقب هذه اللوحة الربانية التي تجمع بين الجمال والبؤس، بين الرقة والقسوة، بين الحاضر والمستقبل، إذ بالطفل الكبير يفزع على أثر صوت منبه إحدى السيارات العابرة، عندما لمح زياد واقفاً بالقرب منهما، ابتسم له ابتسامة جذّابة وهو يقول له:

– تفضل يا سيدي، هل ترغب في أن أمسح لك حذاءك مقابل بضع ليرات؟ تأكد بأني سأعمل على تلميع حذاءك حتى يبدو جديداً، فإن لم أستطع ذلك فكن متأكداً بأن حذاءك أصبح قديماً وعليك تغييره.

ابتسم زياد لأسلوب هذا الطفل الشاب، فمن واقع خبرة زياد في التجارة، والتي أمضى فيها عمره، أُعجب بطريقة تسويق هذا الطفل لبضاعته، لم يشأ زياد أن يفوّت الفرصة في التقرب من هذا الشاب الصغير، اقترب منه وهو يبتسم ويمد يده إلى جيبه قائلاً:

– يبدو يا ولدي أننا نمر بالظروف نفسها، لكني أتوق لرؤيتك كيف تؤدي عملك، لربما استطعت تعلمه منك، وقد أنافسك قريباً في هذه المنطقة.

ابتسم الطفل في وجه زياد وهو يدق بفرشاة أخرجها من داخل الصندوق الخشبي الصغير، ليدل على استعداده للبدء بتنظيف حذاء زياد وهو يقول له:

– سأكون سعيداً بذلك يا عم، فانتبه جيداً لما أقوم به، أمّا أنك ستنافسني في عملي، فهل الرزق بيدك أو بيدي حتى تنافسني عليه يا عم، الرزق بيد الله، ونحن نقوم بالأسباب للحصول على هذا الرزق بالطريقة الحلال إن شاء الله.

جفل زياد قليلاً لهذا الجواب من هذا الطفل، رفع قدمه اليمنى واضعاً إياها على طرف الصندوق وهو ينظر إلى حركة يد الطفل في تنظيف حذائه، رقّ قلبه أكثر عندما وجده يحرك رأس الطفل الصغير الذي كان يتوسد صدره ليضعه على طرف رجله دون أن يوقظه، بقي يراقبه لدقيقة أو أكثر وهو يراه يعمل بانهماك ودقة، قطع الصمت صوت الطفل وهو يوجه كلامه لزياد مبتسماً:

– يا عم، نظراً لظروف حذائك المأساوية، قررت أن أمسحه لك لوجه الله تعالى، فلا يجوز أن تبذّر نقودك على تلميع هذا الحذاء.

قهقه زياد لجملة الطفل وهو ينظر إليه ولبراءته وانهماكه، استيقظ الطفل الصغير على صوت ضحكات زياد، فبادره الطفل الأكبر بقوله:

– صح النوم يا عريس، رحم الله من أسماك سعيد، هيا قم واستعد لحفلة العشاء، ستكون غالباً حفلة شِواء.

أجابه الصغير بشيء من الفتور وهو يحاول أن يغير جلسته دون أن يبتعد عنه:

– لا يا أخي، لا رغبة لي اليوم في وجبة الشواء، ما رأيك أن تكون وجبة من المأكولات

البحرية.

كان زياد يراقب هذا الحوار ولم تغب الابتسامة عن وجهه، يا لهذه البراءة الأخّاذة، كيف لمثل هذين الطفلين أن يناما بالشارع؟ لم يطل به الشرود، إذ قاطعه الطفل الكبير وهو يدق على قدمه إيذاناً برفعها قائلاً:

- لِم لا تشاركنا يا عم وجبتنا المسائية، واضح تماماً أن أوضاعنا ليست مختلفة كثيراً.

التفت بعدها إلى أخيه الصغير وهو يخاطبه بابتسامة جميلة دون أن ينظر إلى زياد قائلاً:

- يبدو أن العم يخشى إن ذهب معنا للعشاء أن نجعله يدفع هو قيمة العشاء. أخبره يا سعيد عن عاداتنا وشيمنا.

قفز الصغير من جوار أخيه واقفاً باتجاه زياد وهو يرفع يده قائلاً:

- أنا أخو سامر وطلاع الثنايا... متى أُمسك الحذاء يعرفوني.

لم يتمالك زياد نفسه من الضحك، رفع قدمه بعد أن انتهى الشاب الصغير من مسح الحذاء، اقترب أكثر من الطفلين وجلس بينهما وسألهما قائلاً:

- هيا يا سامر ويا سعيد، أخبراني الآن بقصتكما، أريد أن أعرف كل شيء عنكما، إذا لم يضايقكما ذلك، أما عني أنا فأنا اسمي زياد، من «حمص»، نزحت إلى لبنان منذ ما يقارب الخمسة أشهر، قضيت معظمها في «وادي خالد»، والباقي قضيته هنا في «طرابلس»، أعمل الآن في محل لبيع الأنتيكات، معي زوجة وأربعة أطفال، سيسرني أن تتعرفا إليهم جميعاً، لكن في البداية أحب أن أعرف عنكما أكثر، ما رأيكما؟

نظر سامر إلى وجه أخيه سعيد، فلم يجد به أي تعابير، عاد لينظر إلى زياد وهو يقول له:

- يشرفنا ذلك عم زياد، لكن ما رأيك بأن نفعل ذلك ونحن نتناول وجبة العشاء التي عزمناك عليها، فسيكون الطريق مكاناً مناسباً لنقطعه بالحديث.

بادر زياد بالوقوف من فوره منتظراً أن يسير حسب توجيه سامر له، والذي بدوره قام بجمع حوائجه وحمل الصندوق الخشبي على ظهره وأمسك بيد أخيه سعيد وبدأ بالمشي بشكل هادئ.

كان سامر يسير بخطوات صغيرة متكاسلة، وسعيد يسير وراءه بشكل آلي دون أن ينظر إلى شيء، أما زياد فكان يسير بجوارهما وهو يراقب تحركاتهما باهتمام، قطع صمتهم سؤال زياد لسامر مداعباً:

- أرجو ألا يكون مكان العشاء بعيداً، فأنا متعب اليوم وليس لدي قدرة على السير

طويلاً، فإن كان كذلك فعلي أن أتصل بسائقي الخاص كي يأتي إلينا وينقلنا حيث تشاء، ما رأيك يا أستاذ سامر؟

أجابه سامر بابتسامة صافية:

– لا يا عم، المكان ليس بعيداً، فقط عشر دقائق ونصل إليه إن شاء الله، أعذرنا فلقد نقلنا سكننا من فترة قريبة لهذه المنطقة لسهولة إيجاد الزبائن فيها، ولتوفر خيارات أكبر في الأطعمة، يبدو أنك جائع وسيكلفنا عشاؤك ثروة، لكن لا عليك، ييسر الله.

نظر زياد إلى سامر وهو معجب بهدوئه وطريقة كلامه، سأله بشكل مباشر:

– سامر يا ولدي، أخبرني عن أحوالك أنت وأخيك، وكيف وصلتما إلى ما أنتما فيه؟ وأين والديكما؟

سكت سامر قليلاً قبل أن ينقل بصره بين زياد وأخيه سعيد، فهم منها زياد بأن سامر لا يرغب في الحديث أمام أخيه الصغير، احترم فيه هذا الأمر واستمر بالسير بجوارهما وهو يداعب سعيد بين خطوة وأخرى إلى أن وصلوا إلى طريق فرعية صغيرة، دخلوا فيها ليجدوا على بعد أمتار عدة وعلى إحدى زوايا المباني الصغيرة محل بقالة صغير يجلس فيه رجل عجوز، ما أن رآهم الرجل العجوز حتى تهللت أساريره وقام من مقعده المهترئ وهو يقول:

– أهلاً أهلاً بالشباب الجميل، تأخرتما على عمكما اليوم يا سامر ويا سعيد، شككت لفترة بأنكما تعشيتما لوحدكما دون عمكما العجوز.

أسرع سعيد باتجاه الرجل العجوز يسلم عليه وهو يقول له:

– كيف تقول ذلك يا عم طوني، لا نستطيع ذلك أبداً، لكن مشاغل الدنيا والعمل أخرتنا، كما أن مع أخي ضيفاً، وستكون وليمتنا اليوم مأكولات بحرية.

ضحك الرجل العجوز وهو يحتضن سعيد ويقول له:

– أهلاً وسهلاً بكما وبضيفكما، هيا ادخل واغسل وجهك ويديك أنت وسامر وتعالا حتى نتعشى سوياً.

سلم زياد وسامر على العم طوني، جلس زياد على مقعد صغير عند باب المحل، أما سامر فدخل خلف أخيه سعيد إلى المبنى الصغير، أثناء غيابهما بادر زياد الرجل العجوز بالكلام قائلاً:

– أعرفك بنفسي يا عم، أنا اسمي زياد، جئت إلى لبنان مع عائلتي منذ أشهر عدة هرباً من الحرب، قابلت هذين الطفلين اليوم صدفة، ولفتا انتباهي، وأستطيع أن أقول لك إنهما أسراني، تباسطت معهما في الحديث بعد أن قام سامر بمسح حذائي، ثم تفاجأت بدعوته لي على العشاء، فلم أرغب بأن أضيع فرصة التقرب منهما لمعرفة أوضاعهما بشكل أكبر، ما وضع هذين الطفلين يا عم طوني؟

سكت الرجل العجوز وقد اغرورقت عيناه بالدمع قبل أن يجيب مستغلاً عدم وجودهما وهو ينظر إلى الأرض:

– قبل أسابيع عدة كان البرد قارساً هنا في «طرابلس»، قمت في الصباح الباكر لأفتح هذا المحل، فوجدتهما نائمين في مدخل العمارة التي دخلاها الآن، والتي أسكن بها أنا وزوجتي وأولادي، رأفت بحالهما وعرضت عليهما المساعدة، لكن سامر رفض بشكل قاطع، واشترط عليّ إن سمحت له باتخاذ بيت الدرج مأوى له ولأخيه بأن يدفع أجرة لذلك، على أن أوفر له مخدة ولحاف، وأن أسمح له باستخدام الحمام الصغير الخاص بالمحل متى شاء.

تقطعت الكلمات على لسان الرجل العجوز مع حشرجة في صوته قبل أن يكمل:

– لم أقابل في حياتي طفلاً عنده هذه الأنفة وعزة النفس، تصور أنه لم يقبل للآن ولا مرة واحدة بأن يأخذ شيئاً من المحل دون أن يدفع ثمنه مهما كان، ويشكرني دائماً بأنّي أعطيه هذه الأشياء بأقل من سعرها الحقيقي مراعاة له ولأخيه، ويعدني بأن يعيد لي كل شيء بمجرد أن يفرجها الله عليه. حتى إن أعطيناهما أكلاً من البيت في بعض الأحيان، فلا بد أن يقدم لنا خدمة مجانية لقاء ذلك، وهو من يُقدّر نوعية الخدمة وقيمتها نظير ما أكل.

عند هذه اللحظة خرج سعيد ومن ورائه سامر وعيناهما تشعّان بالسعادة. أحضر سعيد كرسيين من القش صغيرين من داخل المحل، بينما دخل سامر إلى المحل لدقائق وعاد يحمل بين يديه علبتين من سمك التونة، وحبتين من الخيار وحبة من الطماطم وبصلة صغيرة وكيس صغير من الخبز، وضعها جميعاً على طاولة صغيرة كانت أمام زياد والعم طوني، بدا منهمكاً وهو يحاول أن يرتب أمور العشاء، أعطى الخضروات لسعيد وهو يأمره بأن يغسلها ويحضر معه وعاءً وسكيناً من الداخل كي يعد العشاء، أسرع سعيد بفعل ما أمره به أخوه، وأكمل سامر تجهيزه بأن فتح علبتي السمك وأخذ يعد إبريقاً من الشاي على سخان صغير موجودة بجوار مقعد الرجل العجوز. أنهى سامر إعداد سفرته خلال دقائق وزياد والعم طوني يراقبانه، ابتسم بوجههما وهو يقول لهما:

– تفضلا على العشاء يا رجال، واعذرا تقصيري، لكني أعدكما بعشاء أفضل بمجرد أن تفرج الأمور.

كانت الابتسامة لا تفارق وجه الرجل العجوز، بالمقابل كانت الدهشة قد عقدت لسان زياد، بدأ يأكل وهو صامت لا يستطيع حتى التفكير، قطع هذا الصمت سؤال العم طوني لسعيد:

– هات ما عندك من أخبار يا سعيد، ما هي ملاحظاتك عن عمل اليوم، وهل كان الدخل وفيراً، وهل مررتما بأي موقف غريب؟

بدأ سعيد بالإجابة، وهو يأكل بهدوء، عما حدث معهما اليوم وعن الزبائن الذين تعامل معهم سامر، وذكر أن الله قد وفقهما اليوم بعمل أكثر مما اعتادا عليه. كان زياد يراقب سامر في أكله وكيف أنه يأكل لقيمات صغيرة قدر الإمكان ويشغل نفسه بالحديث، بينما يدع المجال لأخيه ليأكل أكثر، وكأن العم طوني كان يعرف هذا، فهو يجاريه في الأمر نفسه بأن يشغل نفسه معه ويحاول أن يختصر في طعامه معهما. أنهى الجميع عشاءهم وبدأ سامر بتنظيف الطاولة الصغيرة

وسعيد، بينما زياد والعم طوني يراقبانهما بهدوء. وقف بعدها سامر وهو يضع يده على كتف أخيه سعيد أمامهما وهو يقول:

– أتسمحان لأخي سعيد بأن يستأذنكما بالذهاب للراحة، فهو يحتاج للنوم والراحة، سأرافقه لدقائق ثم أعود إليكما.

ابتسم العجوز وهو يرد عليه قائلاً:

– أكيد يا ولدي، تصبح على خير يا سعيد.

سلّم عليهما سعيد ودخل أمام أخيه سامر إلى داخل العمارة، وما زالت الدهشة تعقد لسان زياد وهو يراقبهما. بعد أن اختفيا داخل العمارة عاد زياد لينظر إلى وجه العجوز ليحثه على متابعة حديثه الذي بدأه قبل عشائهما، فهم ذلك العم طوني فأكمل حديثه لزياد قائلاً:

– نعم يا ولدي زياد، ومنذ ذلك الوقت قد أحببتهما وبت أنتظرهما بشكل يومي ولا أستطيع النوم قبل أن أطمئن بأنهما موجودان هنا. تصور أن سامر للآن لم يخبرني عما حدث لهما وكيف وصلا إلى هنا، أراه يتجنب الخوض في هذا الحديث دائماً، ربما لعدم رغبته بالتذكر، أو مراعاة لأخيه الصغير الذي يلازمه كظله، أو ربما لعدم رغبته بالشعور بالشفقة تجاهه، وأنا لم أرغب بأن أضغط عليه من هذه الناحية أو أجبره على قول ما لا يحب.

كان زياد يستمع إلى حديث الرجل العجوز وفي رأسه عشرات الأفكار، كيف لهذا الطفل أن يحمل كل هذا الكم من القيم والصفات الرجولية، حقاً إن الأزمات تصنع الرجال، لكنه للآن لا يعرف عن هذين الطفلين أي شيء.

في هذه الأثناء، كان سامر يحتضن أخاه سعيد وهو يلقنه بعض الأدعية كي يساعده على النوم. فجأة نظر سعيد إلى سامر وقال له:

– ألن تنام معي يا سامر؟

أجابه سامر وهو يطبع قبلة على رأسه:

– عليّ أن أجلس قليلاً مع العم طوني والعم زياد، من غير اللائق أن أدعهما لوحدهما هكذا، لا أتوقع أن يتأخرا.

التصق سعيد بأخيه وهو يقول له وعيناه تنظران إلى وجه أخيه بشكل مباشر:

– لن تدعني وحدي يا سامر، أليس كذلك!

احتضنه سامر مرة أخرى وهو يجيبه:

– كيف تقول هذا الكلام يا أخي، لن يفرقنا سوى الموت بعد مشيئة الله، إياك أن تقول مثل هذا الكلام مرة أخرى.

أغمض سعيد عينيه على ابتسامة بريئة وهو يقول:

- نعم يا سامر، مثلما فرقنا عن ماما وبابا.

سكتا ثم نظر سامر إلى عيني سعيد نظرة يفهمها، وقالا سوياً بهمس:

- الحمد لله.

لم يطل بزياد التفكير حيث رأى سامراً يخرج من باب العمارة وابتسامته الصافية مرسومة على وجهه، سحب كرسيه الصغير وجلس بين العجوز وزياد وهو ينقل بصره بينهما، لم تطل لحظة الصمت حيث قطعها سامر بتوجيه كلامه لزياد قائلاً:

- أشكر لك قبول دعوتي للعشاء يا عم، فلقد أسعدتني وأسعدت أخي حقاً في هذه الزيارة.

وضع زياد يده على رأس سامر وهو يداعب شعره بشكل عشوائي قائلاً:

- بل الشكر لك يا بطل على هذه العزومة، وانقل شكري لسعيد في الصباح الباكر.

انفضّ المجلس، وانصرف زياد إلى حاله وهو يفكر فيما آلت إليه أحوال أهله في سوريا من تشريد وضياع ولجوء، كان صدره يعج بالألم في كل لحظة يرى فيها معاناة السوريين أمام عينيه، عاد إلى بيته والهموم نفسها التي بات يحملها بشكل دائم تكاد تنطق من عينيه دون أن يتلفظ بها، حتى زوجته بات لا يحدثها كثيراً في ما يرى كي لا يزيد من مخاوفها وهمومها.

بعد بضعة أيام، اغتنم زياد فرصة واتته وعاد إلى محل العم طوني في الوقت نفسه الذي زاره فيه أول مرة، جلس عنده لبعض الوقت منتظراً سامر وسعيد حتى يعودا، وما إن رآهما وسلم عليهما حتى قال لسامر:

- إن أذنت لي يا سامر، فأنا سأعزمكما اليوم على وجبة من اختيارك أنت وسعيد، وأنتما من يعدّان هذه الوجبة، وأنا سأتحمل تكاليفها.

أجابه سعيد بنبرته البسيطة قائلاً:

- نعم أنا موافق، سأختار نوع العشاء، وسيقوم سامر بإعداده.

لكزه سامر لكزة بسيطة وهو يجيب زياد قائلاً:

- لا داعي لأن تكلف نفسك هذه التكاليف يا عم زياد، وإن كانت هذه مقابل عزيمتنا لك، فاعلم أن سعادتنا بتلبيتك دعوتنا كانت خير جزاء لنا.

تدخل هنا العم طوني قائلاً:

- لا داعي لرفض هذه الدعوة يا سامر، ادخل مع سعيد لإعداد العشاء بعد أن تغسلا

أيديكما، ونحن هنا بانتظاركما.

أومأ له سامر بالإيجاب وذهب لإعداد العشاء، كانت جلستهم شبيهة بالتي سبقتها، وبعد أن انتهى الجميع وذهب سعيد للنوم وعاد سامر لمجالسة زياد والعم طوني، أحس العم طوني بأن الوقت قد يكون مناسباً لمعرفة المزيد عن سامر وأخيه. وجه له سؤالاً مباشراً قائلاً:

– سامر يا ولدي، أظن أن الوقت مناسب الآن كي تخبرنا أنا وعمك زياد عن قصتكما أنت وأخيك سعيد، فهو الآن غير موجود ويمكنك الحديث.

وكأن سامر كان ينتظر هذه الفرصة كي يتحدث، وكأن حملاً ثقيلاً كان ينهك كاهله الصغير ويريد أن يزيحه عن قلبه، نظر إلى الأرض قليلاً قبل أن يجيب مع تنهيدة صغيرة:

– نعم يا عم طوني، أنا الآن من يرغب بالكلام، أنت تعرف أني أحبك لما قدمته لنا من رعاية وعطف أنا وأخي، والعم زياد ارتحت له مذ رأيته، وبخاصة أنه رافقنا ولبى دعوتنا وكرر زيارتنا دون أن يسأل عن أي شيء. لكني أرجو منكما أن تعداني بأن يكون هذا الكلام بيننا كرجال، وألا يؤثر على أي شيء بيننا أبداً، وألا يتم ذكره مطلقاً أمام أخي سعيد، فهو ما يهمني في هذه الدنيا.

سكت عندها منتظراً وعدهما، ثم أكمل بعد أن أخذ من نظراتهما الوعد قائلاً بصوت ثابت واضح الكلمات، فيه عمق شديد وحزن كبير:

– ربما سمعتما عن «مجزرة الحولة»[16] التي ضج بها العالم منذ ما يقارب السنة، نحن من «الحولة» في قضاء «حمص»، في يوم من الأيام وبينما كنا نلعب أمام منزلنا، وإذ بأمي تخرج إلينا من باب المنزل فزعة وهي تصرخ بنا طالبة دخولنا إلى البيت بسرعة، استجبنا لطلبها دون تردد، تبعتنا وهي تعبئ قارورة من الماء وتقدمها لي قائلة: احتفظ بها دائماً معك، ثم أمسكت برأسي ونظرت إلى عينيّ بشكل مباشر ووجهها يملؤه الرعب وقالت لي كلمات أذكرها وكأني أسمعها بهذه اللحظة: «سامر، أخوك سعيد أمانة في عنقك، تفديه بنفسك، يأكل ويشرب قبل أن تأكل أنت وتشرب، وينام قبلك، ستكون له الأب والأم والأخ والصديق». أجبتها حينها وأنا فزع: «حاضر يا أمي، لكن ما بك؟ ولم كل هذا الخوف والبكاء؟» فردت عليّ باضطراب ويداها ترتعش: «لقد اقتحم الجيش البلدة، وهم يقتلون كل من يقابلهم، اتصلت بـي خالتك قبل قليل، اللهم ارحم ضعفنا». بعدها حملتنا أنا وأخي ووضعتنا في سقيفة المطبخ «بيت التموين» وطلبت مني أن نختبئ خلف تنكات الزيت كي لا يرانا أحد، وقبل أن تسدل الستارة قالت لي: «إياكما أن تُصدرا أي صوت مهما حدث، ولو بقيتما عدة أيام، الحالة الوحيدة التي يمكنكما النزول بها من الأعلى هي أن أطلب أنا منكما ذلك، أو إن جاء رجال وسمعتموهما يوحدون الله أو يصلون على النبـي بشكل متكرر وواضح، وبغير ذلك إياكما وإصدار أي صوت أو النزول». بعد هذه الكلمات قبلت رأسي أنا وسعيد وهي تبكي وتقول: «اللهم ارحم ضعفنا، اللهم ارحم ضعفنا».

سكت سامر عند هذه اللحظة ثوانٍ عدة دون أن ينقل بصره عن الأرض، وكأنه يستعيد شريطاً مرئياً أمامه. ثم أكمل بحزن:

- بعدها رأيت أمي تختبئ في إحدى خزانات المطبخ، كنت أراقب مكان اختبائها من بين التنكات، التي استطعت أن أزيح إحداها لأراقب ما يحدث في الأسفل، لم يمضِ وقت طويل حتى بدأنا بسماع أقدام كثيرة تقتحم المنزل وأصوات رجال عالية يضحكون ويشتمون ويلعنون، كانت الأصوات مرعبة لما فيها من تكسير وصراخ ومناداة بأقبح الكلمات، كان الرعب يملأ قلبي حينها، حاول وقتها سعيد أن يتحرك، لكنني احتضنته خلف ظهري واضعاً يدي على فمه كي أمنعه من إصدار أي صوت وأمنعه من رؤية أي شيء، صارت كل حواسي مرتكزة على الخزانة التي تختبئ فيها أمي.

عند هذه اللحظة أمسك العجوز بيد سامر بحنو وهو يقول له بصوت متحشرج وهو يمنع نفسه من البكاء:

- لا داعي لأن تكمل يا حبيبي، يكفي ما مررت به.

نظر إليه سامر نظرة عابرة ثم أكمل:

- وفجأة دخلت مجموعة من الرجال المسلحين ببنادق إلى المطبخ وهم يحملون سكاكين كبيرة، كنت حينها جافلاً أنظر بلا وعي من شدة الخوف، ما أذكره أني شددت يدي على فم سعيد بقوة، سمعتهم يتضاحكون ويلعنون أهل المنزل وهم يبحثون عن أي أحد فيه، كان أحدهم يقول: «ابحثوا جيداً عن هؤلاء الملاعين، لا نريد أن نترك خلفنا أي أحد، لا بد أنهم مختبئون في مكان ما، لا يمكن أن يكون المنزل خالياً وهو مجهز هذا التجهيز». أجابه أحدهم وهو يرمي الأواني على الأرض ويكسر الزجاج بشكل هستيري: «ربما هربوا إلى المنازل الأخرى يا سيدي، فخبر وصولنا انتشر بين هؤلاء البهائم بسرعة، تأكد أننا حريصون على ذبحهم جميعاً أكثر منك». عندها دخل رجل آخر وهو يقول: «لقد بحثنا في كل مكان ولا يوجد أحد». فقال أولهم بصيغة الأمر: «فليصعد أحدكم إلى السقيفة «بيت التموين» لعلهم يختبئون فيها». جفت حينها الدماء في عروقي، وبخاصة عندما لمحت أحدهم يضع كرسياً ويقترب من السقيفة، وفي اللحظة نفسها، سمعت أمي تصدر أصواتاً من مخبئها، انتبه الرجل لهذا الصوت فاتجه إلى الخزانة وفتحها وسحب أمي بعنف وهو يسب ويشتم بأقذر الشتائم وهي تصرخ وتستنجد بالله طالبة منهم الرحمة، لم يطل بهم الأمر، لقد رأيتهم بعيني هاتين، أولهما طعن أمي في بطنها، فأصدرت آهة مكتومة، ثم عالجها الآخر بضربة من سكينه على رقبتها لتهوي إلى الأرض جثة هامدة. كنت أراقب هذا المنظر وأنا أمسك بسعيد خلفي ويداي قد تجمدتا على فمه وعينيه. بعد ذلك خرج الجميع وهدأ المكان، وصار الصمت المخيف هو الشيء الوحيد الذي نحس فيه، بعدها خفّ ضغطي على سعيد، أعطيته شربة ماء وهدأته واحتضنته كي ينام، غبت بعدها عن الوعي ولم أستعد وعيي إلا على نغزات من سعيد، انتبهت له وهو يشير إليّ بأن ألزم الهدوء، سمعت أصوات حركة في المنزل، دب الرعب فيَّ مرة أخرى وكل حواسي باتت متجهة إلى الزاوية التي أراقب من خلالها ما يحدث في الخارج، سمعت أصوات رجال يدعون على الظالم ويحوقلون ويذكرون الله كثيراً، دخل أحدهم إلى المطبخ، وعندما رأى جثة أمي المذبوحة نادى على الآخرين طالباً منهم إحضار غطاء وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، هنا يوجد شهيدة، أحضروا اللحاف». بقيت في صمتي حتى تأكدت أنهم قد غطوا جثمان أمي، حاولت بعدها أن أنادي عليهم لكني لم أستطع، حاولت أن أقول أي كلمة كي أنبههم بوجودي، فلم أستطع، كنت غير قادر حينها على إصدار أي حركة أو

صوت، فالشلل أصاب كل أعضائي، غالبت نفسي دقائق وأنا أراهم يدخلون ويخرجون ويذكرون اسم أمي، أم سامر، حتى أن بعضهم كان يردد اسمينا أنا وسعيد، وبعد جهاد طويل مع جسدي، استطعت أن أحرك إحدى قدمي، فصرت أدفع بها جسدي إلى الأمام كي أحرك تنكات الزيت علّ أحدهم ينتبه، نجحت في ذلك بعد عناء، فلقد انتبه أحدهم للأصوات التي قمت بإصدارها بطرق التنكة برأسي، صعد حيث كنت أنا وسعيد فوجدنا على الحالة التي تركتنا عليها أمي، نادى على الرجال وأنزلونا بهدوء وهم يحتضنوننا، ويدعون الله لنا بالصبر والمعونة، كانت عيني لا تفارق جثمان أمي وهم يحاولون تجنيبنا أنا وأخي أن نرى منظر دمائها المراقة بجوار جثمانها.

سكت سامر بعدها عن الحديث وهو ما يزال على وضعه نفسه، لم تنزل من عينيه دمعة واحدة، كان فقط ينظر إلى الأرض، أما العم طوني فكانت الدموع قد غسلت وجهه، وزياد، كان مغمض العينيين تكسو وجهه معالم الحزن والألم، فهو يعرف تماماً ما قاله سامر، فلقد عاش وسمع الكثير منه، لكنه أحس بأن ما سمعه الآن هو الأصعب، أن يسمع من فم طفل كيف رأى أمه تُذبح أمام عينيه. وبشكل لا إرادي، وضع يده حول رأس سامر واحتضنه إلى صدره وهو يقول:

- عوضك الله خيراً يا ولدي، وجمعنا بأمك في الجنة.

عاد سامر إلى الوضع الذي كان عليه وأكمل حديثه قائلاً:

- طبعاً بالنسبة إلى والدي فلقد استشهد في «حمص» قبلها بفترة بطلق ناري، المهم بعد أن أخذنا الرجال احتضنتنا إحدى العائلات لفترة، ثم قررت هذه العائلة أن تنزح بعد اشتداد القصف على كل المنطقة، فصرنا نسير معهم حيث ساروا حتى وصلنا إلى لبنان عن طريق «القصير»[17]، ثم انتقلنا إلى أن وصلنا إلى «الهرمل»[18]، توجهت العائلة بعدها إلى أحد المخيمات الخاصة باللاجئين السوريين، أما أنا فاستأذنتهم بأني سأنفصل عنهم لأعيش أنا وأخي بالطريقة التي نراها أنسب، حاولوا كثيراً منعي لكني أصررت حينها، ولأن الأوضاع صعبة جداً بالنسبة إلى السوريين داخل المخيم أو خارجه، قررت القدوم إلى «طرابلس»، عانيت نوعاً ما حتى وصلت إلى هنا، لكننا والحمد لله وصلنا أخيراً، والحمد لله ها أنا أعيش أنا وسعيد بأفضل حال، ورزقنا الله بالعم طوني كي يضيف إلى حياتنا طعماً جميلاً من عطفه وحنانه. هذه قصتي أنا وسعيد باختصار يا أكارم.

توقف بعدها ونظر إلى الرجلين بابتسامته الصافية وهو ينتظر تعليقهما، لم يجد أي جواب لدقائق معدودة، فكل رجل منهما كان يفكر بكل ما سمع، وعشرات الأحاسيس تعتمل في داخله. في هذه اللحظة قرر زياد قراراً في داخله، لكنه لم يصرّح به حتى يستشير فيه زوجته.

وقف زياد بعد عدة دقائق مسلماً على العم طوني وهو يقول:

- شكراً جزيلاً يا عم طوني، وسيكون لنا لقاء قريب بحول الله، أما أنت يا ولدي، فلقاؤنا قريب جداً بحول الله، ربما زرتك غداً أو بعد غد في المكان الذي تجلس فيه، ولا بد أن أرد لك عزيمتك بشكل آخر، لا بد لكما أنت وسعيد من زيارتي في بيتي، وسنتشرف بزيارتك أيضاً لنا يا عم طوني.

أجابه طوني بابتسامة وهو يمسح أثر الدموع التي كانت تغسل وجهه.

- هذا يزيدني شرفاً يا ولدي.

صافحهما زياد وانطلق إلى بيته، التفت بعد ثوان ليرى العم طوني يحتضن سامر بحنو. أحس بدموع تفر من عينيه دون إرادة. مسحها وأكمل طريقه.

أنقضى يومان وزياد يفكر في أمر ما، يحاول كتمان ما به عن زوجته قدر إمكانه، كان تفكير زياد طوال هذه الفترة يدور حول نقطة واحدة، كيف يمكنه أن يضم سامر وأخاه إلى عائلته؟ فكّر في كل الاحتمالات الحالية والمستقبلية، حتى أنه وصل إلى أنه قد يزوجه هبة أو زينة عندما تكبرا، فكّر في إمكانية أن يصبح هذان الطفلان جزءاً من عائلته مع كل ما يمرون به من صعوبات، فكّر بأجر كافل اليتيم، فكّر باحتمالية افتراقهم عن بعض في حال الانتقال ومدى صعوبة الأمر حينها لعدم ارتباطهما معهم بأي أوراق ثبوتية تدل عليهما، في يومه الثالث قرر أن يطرح الأمر على سعاد بكل تفاصيله، فسيكون عليها مسؤولية كبيرة في حال تم الأمر، وخاصة تجاه سعيد، انتظر حتى نام جميع أولادهما، خاطبها قائلاً:

- سعاد، أريد أن أطرح عليك أمراً شغل تفكيري خلال الأيام الماضية، ولقد أخذ مني كل وقتي في التفكير حتى وصلت فيه إلى رأي، لكني أحتاج فيه دعمك بالتأكيد.

قدمت له كأساً من الشاي وقد أبدت اهتمامها وهي تقول:

- أعرف أنك مشغول بأمر ما منذ يومين، وبالتحديد عندما عدت إلى المنزل متأخراً وعلامات الذهول بادية عليك، لم أحب حينها أن أسألك حتى أدع لك فرصة لتهدأ، لكني كنت عازمة على سؤالك اليوم، هات ما عندك يا أبا أحمد، فكلي آذان صاغية.

بدأ حديثه معها قاصاً عليها كل ما حصل معه وما رآه من سامر وسعيد في تلك الليلة، وما قصّه عليه سامر في زيارته الثانية، بعد أن انتهى وجد الدموع تنساب من عينيها، وسمعها وهي تهمس بالدعاء لله دون أن يتبين ما تقول، عندما رأى ذلك ربّت على يديها وهو يقول لها:

- سعاد، لقد فكرت كثيراً ورأيت أنه علينا احتضان هذين الطفلين، ما رأيك؟

صمتت سعاد قليلاً وهي تمسح آثار دموعها، ثم أجابت:

- هل فكرت في تبعات هذا الأمر يا زياد، كل تبعاته؟

فأجابها على الفور:

- بأكثر مما تتوقعين، لكني لن آخذ القرار قبل أن أجد منك كل القبول والتأييد، فربما كان الحمل عليك أكبر بالاهتمام بالصغير، فما رأيك؟

سكتت سعاد لفترة وهي تفكر، كان زياد ينظر إليها بصمت دون أن يقطع تفكيرها بأي طريقة، كان يريد أن يتأكد بأنها متحمسة للأمر مثل حماسه أو أزيد. بعد أن مرّت هذه الدقائق،

نظرت سعاد إلى زوجها وهي تقول له:

- توكلنا على الله، وسيعيننا الله على هذا الحمل.

قبّل رأسها وهو يقول:

- سأبدأ من فوري في ترتيب الأمر معهما، توقعي قدومهما معي في الغد لتناول العشاء معنا، ويخلق بعدها الله ما يشاء.

بات زياد ليلته وهو يشعر بالراحة لمجرد عزمه على اتخاذ هذه الخطوة، في اليوم التالي، وبمجرد أن أنهى أعماله، اتجه إلى المكان الذي قابل فيه سامر، أحس بالاضطراب عندما وصل ولم يجده، لم يطل به التفكير، بل توجه من فوره تجاه محل الرجل العجوز حيث تعشوا سوياً، عندما وصل المحل، وجد العم طوني يجلس أمام المحل بالطريقة نفسها التي كان يجلس فيها في المرة السابقة، سلّم عليه وبدأه بالسؤال عن سامر وسعيد بشكل مباشر، أجابه العم طوني بأن أمورهما جيدة على ما تركهما عليه، أراد زياد أن يستغل الأمر ويسأل العم طوني عن رأيه فيما عزم عليه، فهو يعرف بأن الطفلين الآن يرتاحان له، وسيكون رأيه مؤثراً فيهما، قال زياد وعلامات الجدية بادية على وجهه:

- عم طوني، لقد قررت أن أدعو الطفلين ليعيشا معي أنا وعائلتي، سأحتضن سامر وسعيد وأكفلهما، ما رأيك بهذا الأمر؟

أحس زياد باضطراب الرجل العجوز بشكل مباشر، لكنه بقي صامتاً حتى يسمع رده، بعد فترة بسيطة أجابه الرجل العجوز قائلا:

- لقد توسمت فيك الخير يا ولدي مذ رأيتك في المرة الأولى، حبي لسامر وسعيد من الله، فلا تربطني بهما أي رابطة، لكني قبل أن أجيبك، هل لي أن أعرف بعض الشيء عن وضعك وعن عائلتك، إن لم يكن هذا الأمر يزعجك.

أجابه زياد على الفور ودون تردد عن وضعه وعن تفاصيل أسرته وعمّا مرّ به حتى وصوله إلى «طرابلس»، كان زياد يتكلم بتلقائية واسترسال، والرجل العجوز يتابعه باهتمام، إلى أن انتهى من كلامه وسكت وهو ينتظر أي جواب منه. لم يطل به الانتظار حيث قال العم طوني:

- كما قلت لك يا ولدي، لا يربطني بهذين الطفلين أي شيء سوى حبهما الذي زُرع في قلبي، ولطالما فكرت بمصيرهما، بقاؤهما معي لأي وقت كان سيؤول إلى النهاية، فهم من بلد آخر، ومن دين آخر، ومن بيئة أخرى مختلفة تماماً عن بيئتنا، ولا أظن أنهما سيطيلان البقاء هنا مهما كانت الأوضاع مريحة بالنسبة إليهما، فها أنت قد رأيت سامر ومدى اعتداده بنفسه وبقناعاته، حتى تظن أنك تعامل رجلاً كبيراً، وبالرجوع لما قلته لي عن أوضاعك، سيكون من الأنسب لهما أن يعيشا مع عائلة تنتمي لبيئتهما التي نشأا بها. كم أحبهما، وسأفتقدهما إن ذهبا من هنا، لكني أرى أن هذا الأمر سيعود عليهما بالنفع.

شكر زياد العم طوني على كلامه المريح، وأخبره بأنه سينتظر عودتهما ليعزمهما على

العشاء، وسيخبرهما بما نوى عليه بعد العشاء وبعد أن يتعرفا إلى أولاده.

أيّده العجوز على فكرته، واستمرا يتسامران لبعض الوقت حتى رأيا الطفلين مقبلين بابتسامتهما الصافية وهما يلوحان للعم طوني من بعيد، ما أن وصلا إلى المحل حتى رمى سعيد بنفسه في أحضان العم طوني كما فعل في المرات السابقة ثم سلّم على زياد، أما سامر فتقدم ماداً يده مصافحاً كليهما وهو يرحب بزياد. بادرهما العم طوني بالكلام قائلاً:

- أهلاً أهلاً بالشباب الجميل، هيا اغسلا وجهيكما وأيديكما واستعدا لمرافقة العم زياد، فلقد أتى خصيصاً كي يعزمكما على طعام العشاء في منزله، وليعرفكما إلى أبنائه.

سرّ سعيد لِما سمع وأصدر أصواتاً يعبر فيه عن فرحه، أما سامر فابتسم لزياد وهو يقول له وللعم طوني:

- لا داعي لهذه الكلفة عم زياد، يكفي أنك شرفتنا بزيارتك واهتمامك.

ردَّ عليه زياد وهو يداعب شعره:

- كيف تقول ذلك يا ولدي، سأكون سعيداً جداً بقبولك دعوتي لكم أنتم والعم طوني.

أجاب العم طوني على الفور وهو ينظر إلى عيني زياد بنظرة يريد أن يوصل بها رسالة:

- أنا لا أستطيع مشاركتكم هذه المرة لالتزامي بموعد مع خالتكم أم طوني، لكني أعدكم أن تكون هناك مرات قادمة.

أحس سامر بأن هناك أمراً ما يدور بين العم طوني وزياد ولا يريدان الإفصاح عنه، لكنه تجاهله ولحق سعيد إلى داخل المبنى كي يغسل يديه ووجهه استعداداً لمرافقة زياد إلى منزله. انطلق زياد وهو يمسك بيد سامر وسعيد باتجاه منزله المتواضع الذي يبعد مسيرة ربع ساعة عن محل العم طوني، كان زياد يداعب سعيد ويسأله أسئلة مختلفة طوال الطريق، ويضحك بشكل عفوي على كل إجابة من إجاباته، أما سامر فقد كان يسير وهو صامت تماماً دون أن يفقد ابتسامته الدائمة.

عندما وصل الجميع إلى منزل زياد، سبقهم زياد بالدخول، وبقي سامر واقفاً عند الباب ينتظر الإذن بالدخول، وبشكل لا إرادي وقف سعيد خلف أخيه وهو يتشبث بيده، بعد لحظات سمعا زياد وهو يرحب بهما إيذاناً منه بدخولهما. لدى دخولهما كان سامر يمشي بخطوات صغيرة ورأسه مطرق للأرض، سمعا صوت سعاد وهي ترحب بهما قائلة:

- أهلاً وسهلاً بولدي سامر وسعيد، كم أنا مسرورة بقبولكما دعوتنا. تفضلا واجلسا.

كان أحمد يقف بجوار أمه يراقب الموقف بفضول، وضعت يدها على رأسه وهي تقول لهما:

- هذا أخوكما أحمد، إنه في سنك تقريباً يا سعيد.

تقدم أحمد منهما متردداً وهو يمد يده مصافحاً لهما.

جلس الجميع على الطراحة الموجودة في طرف الغرفة، يقابلهما زياد وسعاد، بدأت سعاد تسألهما الأسئلة التقليدية عن أحوالهما وسامر يجيب باقتضاب وحياء. في الوقت نفسه كان سعيد ينظر إلى سعاد بشكل مباشر دون أن ترمش له عين. وفي لحظة انتبهت سعاد وزياد بأن سعيد اقترب من أذن سامر وأسرَّ له بكلمة بسيطة، بعدها تبسم سامر وقال بصوت خافت:

- رحمها الله.

عندها تبسمت سعاد وتوجهت بالسؤال إلى سعيد مباشرة تداعبه وهي تقول:

- هيا يا سعيد، أخبرني بما قلت لأخيك سامر الآن، أعرف أنك ذكي ولمّاح، فلقد أخبرني عمك زياد عن ذلك، أريد أن تشاركنا أحاديثك الجميلة.

تبسم سعيد ابتسامة ملائكية واضعاً يده على فمه وهو يجذب يد أخيه سامر كي يسعفه في هذا الموقف. فما كان من سامر إلا أن قال لها:

- لا عليك يا خالة، سعيد أصلحه الله كثير كلام، ويحب أن يبدي ملاحظاته على كل ما يراه.

أجابته سعاد وقد زادت ابتسامتها:

- جميل جداً، أحب أن أسمع ملاحظاته إن لم يكن ذلك محرجاً له، من الرائع أن يكون لدى الطفل هذه الملكة، فلا تحرمه منها. هيا قل لي أنت يا سعيد ما قلته لسامر.

نظر سعيد إلى أخيه وكأنه يستأذنه في الكلام، وعندما وجد منه ابتسامته الصافية قال بصوت متقطع:

- قلت لسامر كم أنت تشبهين أمي رحمها الله. أنت تشبهينها جداً يا خالة، حتى حركاتك وصوتك يشبه حركاتها وصوتها.

عندما سمعت سعاد هذه الكلمات وجمت، لم تستطع التعبير بأي شيء للحظات، أحست بأن الدماء تجمدت في عروقها، جاهدت كثيراً كي تحبس دمعات كادت أن تهرب منها، اقتربت قليلاً من سعيد دون أن تقف، فردت ذراعيها وهي تقول له:

- هل تسمح لي بأن أحتضنك يا سعيد، أريد أن تشاركني هذا الإحساس.

وكأن سعيد كان ينتظر هذه اللحظة. قفز من مكانه وارتمى في حضنها واضعاً رأسه على كتفها باستسلام مطلق، عندها لم تعد سعاد قادرة على حبس دمعها، فأطلقت له العنان دون أن تصدر أي صوت كي لا تحرم سعيد جمال اللحظة التي يحس بها، كان زياد يراقب هذه اللحظة بتأثر، أما سامر، فلقد احتقن وجهه وبدت حمرته بشكل واضح، أغمض عينيه بقوة يحارب دمعة كادت أن تتسلل من عينه. دامت هذه الصورة لدقيقة كاملة دون أن يحاول أحد قطع ما فيها من

جماليات، فتح سامر عينيه وهو يخاطب سعيد قائلا:

- ألم تكتفِ يا سعيد، ربما أزعجت الخالة أم أحمد، هيا تعالَ واجلس بجواري.

انسحب عندها سعيد من بين يدي سعاد بخفة وعاد للجلوس بجوار سامر ووجهه ينطق بالسعادة والحياة، وقبل أن يجلس اقترب من وجه سامر وقبله قبلاً صغيرة ثم جلس، وكأنه كان يتوق لتقبيل سعاد لكنه لم يستطع، فاستعاض عنها بتقبيل أخيه.

أراد زياد أن يخرج من الحالة العاطفية التي يمرون بها، فقال لأحمد:

- أحمد، أطلب من أخواتك أن يحضرن ويسلمن على سامر وسعيد.

راق لأحمد هذا الطلب، فوقف من فوره وانطلق بسرعة إلى الداخل وهو ينادي على أخواته بأسمائهن واحدة واحدة.

مرّت عدة دقائق قبل أن يدخلن الثلاثة، فاطمة بحجابها وخلفها هبة وزينة، كان سامر يشعر بإحراج شديد عندما صافحنه، وجلسن بجوار أمهن التي بدأت بالتعريف بهن قائلة:

- هذه فاطمة ابنتي الكبيرة، أي أنها أختكما الكبيرة، وهذه هبة، وهذه زينة، وهما بعمرك نفسه تقريباً يا سامر.

رد سامر باقتضاب بعد أن نظر إليهن نظرة خاطفة ثم عاد لينظر إلى الأرض ثانية:

- تشرفت بكن جميعاً.

تدخل زياد في الحديث موجهاً كلامه إلى سعاد قائلاً:

- هيا يا سعاد، جهزي لنا سفرة العشاء، فالشابان جائعان، ولا أريد أن أؤخرهما عنه أكثر من ذلك.

قامت سعاد من فورها ولحقتها فاطمة، أما أحمد فبدأ بالحديث مع سعيد أحاديثهما الطفولية، ثم استأذن أباه كي يدخلا الغرفة الثانية ليلعبا مع هبة وزينة، وبقي زياد وسامر سوياً ينتظران تجهيز العشاء. استغل سامر هذه اللحظات وقال لزياد:

- أعتذر منك يا عم زياد عن تصرف سعيد، تعرف أنه طفل ويفتقد أمه، ولا أريد له أن يتعلق ولو للحظات بأحد حتى لا يعاني من ألم الفقد مرة أخرى، أرجو منك أن تنقل اعتذاري هذا للخالة سعاد لاحقاً.

تبسم زياد وهو يجيبه:

لا عليك يا ولدي، على العكس تماماً، فلقد سررت جداً بما حدث، وأحسست بأن سعيد قد شعر بسعادة حقيقية بما فعل، وخالتك سعاد أيضاً. فلا تفكر بهذا الأمر.

أكمل سامر وزياد حديثهما في أمور متعددة عن الحياة اليومية لسامر وأخيه، وكان زياد يشاركه ببعض ما يمر به يومياً من أحداث.

أنهى الجميع بعدها عشاءهم وجلس سامر وزياد وسعاد وفاطمة يشربون الشاي بعد أن دخل باقي الأطفال مع أحمد إلى الداخل، وجه زياد كلامه لسامر قائلاً:

– سامر يا ولدي، أريد أن أطلب منك طلباً، وأريد منك أن تفكر جيداً قبل أن تجيبني، مع أني أتمنى أن توافق على طلبي بشكل مباشر.

وضع سامر كأس الشاي الذي كان بيده على الأرض قائلاً:

– تفضل يا عمي، سأعتبر طلبك أمراً أنفذه، فلقد أكرمتني أنا وأخي، ولك الحق في ذلك.

أجابه زياد قائلاً:

– استغفر الله يا ولدي، هو طلب ورجاء وليس أمراً، أتمنى أن تقبل أن تعيشا معنا هنا أنت وسعيد، وأن تصبحا جزءاً من أسرتنا البسيطة المتواضعة، يصير عليكما ما يصير علينا، ولكما حرية الحركة في أي وقت تشاءان، فلن أُلزمكما بأي أمر مهما كان، نتشارك أنا وإياك في طلب الرزق، كلٌ حسب مقدرته، ويشارك سعيد أخواته في اللعب والتعليم في البيت. ما رأيك؟

أغمض سامر عينيه مفكراً بعد أن اضطرب من الطرح ومن النظرات المتعلقة به، أراد أن يخلو مع نفسه للحظات قبل أن يجيب. لم يطل سكوته، نظر إلى زياد ونقل بصره بينه وبين سعاد ثم قال:

– هذا العرض يا عم زياد أكبر من أن أؤدي ما عليّ تجاهه، فأنا على يقين بأن الحمل عليك كبير، وأن يضاف عليه حملي وحمل أخي سعيد ليس بالأمر الهين، أخي سعيد ما زال طفلاً، وربما تكون له متطلبات قد ترهقكم، وأنتم في غنى عن ذلك، فعيشتي أنا وإياه سوياً جعلت حياته محدودة بما هو متوفر، أنا ممتن جداً لذلك، لكني...

قاطعه زياد عند هذه الكلمات قائلاً:

– أعرف كل ما تود قوله يا سامر، ولقد فكّرت في الأمر ملياً أنا وخالتك سعاد قبل أن نتخذ هذا القرار، وأنا على استعداد لمناقشة كل التفاصيل معك، لكني أود منك أن تفكر قليلاً قبل أن ترفض، ليس عليك أن تجيبني الآن، قد يحتاج الأمر لبعض الوقت، فلا بأس بذلك، لكن عدني بأن تفكر بالأمر على أنه ممكن وليس العكس.

سكت سامر قليلاً قبل أن يومئ بالإيجاب لزياد وابتسامته الصافية مرسومة على وجهه.

بعدها بدقائق استأذنهم سامر للعودة إلى منزلهما طالباً منهم مناداة سعيد، قامت فاطمة من فورها لتنادي على سعيد، أما زياد فوقف مع سامر قائلاً له:

- سأرافقكما إلى بيت العم طوني.

دخل سعيد الصالة وهو يجرّ رجليه جراً ووجهه عابس، ابتسم سامر لعبوسه وهو يدرك تماماً سبب هذا العبوس، أما سعاد فأمسكته واحتضنته وهي تقول له:

- لم هذا العبوس يا حبيب.ي، أريد أن أرى ضحكتك الجميلة، قل لي ما تريد وأنا سأحققه لك على الفور.

أجابها بشكل عفوي وما زال وجهه عابساً:

- لا أريد شيئاً، علينا الذهاب أنا وسامر الآن إلى البيت كي ننام، فوراءنا عمل في الصباح الباكر، إن لم نفعل ذلك فلربما لم نستطع تحصيل رزقنا غداً.

ابتسمت لجوابه وهي تقول:

- لا عليك يا ولدي، سيكون الأمر سهلاً، وسيُحضرك سامر إلى هنا لزيارتنا دائماً إن شاء الله.

ابتسم وهو ينظر إلى سامر ويقول:

- إن قال سامر ذلك فإنه سيفعل، سامر يفعل دائماً ما يعدني به.

تبسم سامر لجوابه وهو يقول له:

- إن شاء الله سأفعل، هيا نعدْ إلى المنزل، فمن المؤكد أن العم طوني بانتظارنا.

سار زياد معهما في طريق عودتهما إلى حيث ينامان، عندما اقتربا من عمارة العم طوني، لاحظ زياد وجود العم طوني على شرفة بيته وكأنه ينتظر عودة الطفلين، عندما رآه سامر أشّر له بيده مبتسماً، ودّع زياد الطفلين على وعد أن يلتقي بهما خلال الأيام القادمة وانصرف عائداً إلى بيته.

فكّر سامر بعرض زياد خلال اليومين اللاحقين، تكلم مع العم طوني في الأمر وسمع منه رأيه بوضوح واضعاً كل الاحتمالات أمامه، واستجاب لتشجيعه بالانتقال للعيش مع زياد وأسرته، كان من أهم أسباب قبوله بالفكرة بأن ذلك سيصب في مصلحة أخيه سعيد في أن يعيش طفولته بشيء من الاستقرار، حتى وإن كان لمرحلة مؤقتة.

عندما التقى زياد بسامر، سُرّ جداً بقبول سامر العيش مع أسرته، كانت جلسة نقاش بين زياد وسامر بقرب محل العم طوني، استفسر بها سامر عن كل شيء خطر بباله حول معيشتهم هو وأخيه مع عائلة زياد، الأكل والنوم والعمل، أما زياد فكان يجيبه على معظم أسئلته بأن الخيار متروك له كي يفعل ما يراه الأنسب. من بين النقاط التي ركّز عليها سامر وأعادها عدة مرات مسألة نومه هو وأخيه سعيد، فحرصه على عدم إزعاجهم أو أسر حرية عائلة زياد كان أمراً أساسياً بالنسبة إليه، وخاصة بأن سعاد وابنتها فاطمة تتحجبان عنه. عند هذه النقطة قال له زياد:

– سامر يا ولدي، لا تفكر كثيراً في هذه المسألة، من الطبيعي جداً في مثل الأوضاع التي نمر بها أن يتنازل أحدنا عن بعض راحته من أجل الآخر، وليس على أحدنا أن يطلب عيشة مريحة مثالية، وخالتك سعاد وأيضاً أختك فاطمة تدركان هذا الأمر تماماً، عدا عن ذلك، أتوقع أنه يمكننا تخصيص مكان مناسب لك لتنام فيه أنت وسعيد، يكون شبه منفصل وله شيء من الخصوصية، ما يهمني الآن ألا يكون هذا الأمر سبباً في عدم عيشكما معنا بشكل مريح.

لم يجبه سامر بشكل مباشر، فكّر قليلاً قبل أن يقول له:

– كما تشاء عم زياد، لكن عندي شرط بسيط، أو لنقل بأنه رجاء أرجو أن توافق عليه.

نظر إليه زياد نظرة تدل على أنه بانتظار سماع هذا الرجاء، تابع سامر قائلاً:

– سيكون الأمر برمته تجربة، فإن وجدناها مناسبة لنا جميعاً فسنستمر بها، وإن وجدنا أنها لا تناسب أحدنا، فسيعود الحال على ما كان عليه دون أن يترك أي أثر سلبي على أحدنا.

أجابه زياد على الفور والابتسامة تملأ وجهه:

– موافق، وبلا تردد، ما رأيك بأن تحزم حوائجك وتنادي على سعيد لنذهب إلى المنزل؟

سار زياد وسامر جنباً إلى جنب بعد أن ودعوا العم طوني على وعد بالزيارة بين فترة وأخرى، أما سعيد، فلقد كان يقفز قفزاً وهو يسير ممسكاً بيد أخيه سامر وكأن الفرحة لا تسعه، لم يكف طوال الطريق عن الأسئلة والقفز حول انتقالهم للسكن في بيت زياد مع أولاده، كانت حركاته وأسئلته تخلق السعادة في قلب زياد، ومجرد هذا الإحساس بالسعادة كان يبعث بالرضى في قلبه. ما إن وصلوا المنزل واستقبلتهم سعاد وأحمد عند الباب، حتى ارتمى في حضنها بشكل عفوي، أحست سعاد حينها بسعادة لا توصف، فها هي الآن تمنح هذا الطفل أشد ما يحتاج في عمره هذا، هي تمنحه العاطفة، والتي تملك منها الكثير الكثير، ما إن انتهت من الترحيب بسعيد وسامر حتى دخلت إلى المنزل وهي تقول لهما:

– جهزت لكما مكان نومكما، وسيكون أحمد معكما، تستطيعان وضع حاجياتكما في هذه الزاوية حيث يوجد بها خزانة صغيرة خصصتها لكما، وأرى أن تبدأ يومك معنا يا سامر بالاستحمام وبتبديل ملابسك المتسخة بالملابس التي تركتها لك بالخزانة، وستعمل أختك فاطمة على غسل ملابسكما وكيها ووضعها في الخزانة، أمّا عدة العمل الخاصة بك، فيمكنك تركها أمام باب المنزل، فلن يتعرض لها أحد.

أومأ لها سامر بالإيجاب، ثم توجه إلى أخيه سعيد قائلاً:

– هيا يا سعيد لأساعدك على الاستحمام قبل أن استحم أنا.

ردت عليه سعاد بشكل مباشر:

– لا عليك من سعيد يا ولدي، أنا سأقوم بتغسيله والاعتناء به، دع لي هذه المهمة اليوم.

قفز سعيد من مكانه مرتمياً في حضن سعاد وهو يقول:

– نعم، أنا موافق، أريد أن تغسّلني خالة سعاد، أنت تقسو عليّ يا سامر عند الاستحمام.

ضحك الجميع لرد فعل سعيد العفوي، كان سامر يشعر بالخجل والاضطراب من كونه سيبقى داخل المنزل طوال الوقت، مما سيقيد حرية سعاد وفاطمة بالذات، لكنه لم يشأ أن يتوقف الآن عند هذا الأمر حتى يستقر بهم الحال، ثم سيجد حلاً لهذا الأمر.

مرّت أيام عدة وسعيد يقضي كل وقته في البيت بين أبناء زياد، أما سامر فيخرج من الصباح الباكر طلباً للرزق حاملاً صندوق أدواته الخاص بتنظيف الأحذية، ولا يعود إلا مع غروب الشمس، تعوَّد فيها أن يزور العم طوني يجلس عنده بعض الوقت قبل أن يعود إلى المنزل، كان يتقصّد هذا الأمر حتى يتأكد بأن عودته إلى المنزل تكون بعد عودة زياد.

في أحد الأيام وبينما الجميع يتناولون طعام العشاء كعادتهم، أراد زياد أن يساعد سامر في كسر بعض الحواجز كي يتأقلم أكثر مع العائلة، سأله عن عمله وعن بعض الأحداث اليومية التي تمر به، كان سامر يجيب باقتضاب واختصار دون أن يرفع بصره عن مائدة الطعام، كان زياد وهو يسأله ينقل بصره بين سعاد وفاطمة كي يشجعهما على الحديث مع سامر، تشجعت فاطمة لنظرات أبيها وسألته بشكل مباشر:

– سامر، كم عمرك؟ وإلى أي مرحلة دراسية وصلت قبل أن تترك المدرسة؟

احمرّ وجه سامر فجأة، لكنه أكمل اللقمة التي كانت في فمه قبل أن يجيبها دون أن يرفع بصره عن المائدة:

– عمري الآن ثلاثة عشر عاماً تقريباً، وسعيد عمره خمسة أعوام، أنهيت الصف الخامس الابتدائي، ثم اندلعت الثورة فلم أستطع بعدها إكمال دراستي.

توقف بعدها عن الكلام وكأنه لا يرغب في الحوار، لكن فاطمة أكملت حديثها قائلة:

– أنا توقفت عن الدراسة في الصف الثاني إعدادي، والآن أحاول مراجعة ما تعلمته كي أنتظم بالدراسة بدءاً من العام الدراسي القادم، وأساعد أخوتي في مراجعتهم أيضاً، ما رأيك لو انضممت إلينا ولو ساعة واحدة يومياً بعد أن تعود من عملك؟ سيساعدك هذا الأمر كثيراً فيما لو أحببت إكمال دراستك.

بقي سامر صامتاً ولم يجب بأي شيء، تدخل زياد بالحديث وهو ينقل بصره بين فاطمة وسامر ليحفز سامر على القبول قائلاً:

– أراها فكرة رائعة يا ابنتي، أرى أن تستغل هذه الفرصة يا سامر، فلديك متسع من الوقت ليلاً يمكنك أن تستفيد منه بالاستذكار مع بقية إخوتك. ما رأيك يا ولدي؟

تكلم سعيد فجأة والطعام يملأ فمه:

- أنا موافق، أريد أن أتعلم القراءة والكتابة معكم.

ضحك الجميع لردة فعل سعيد، أجابته هبة وهي تداعب رأسه:

- أنت وأحمد من مسؤولياتي، أنا سأهتم بتعليمكما القراءة والكتابة والحساب من الغد.

بعد أن انتهى الجميع من طعام العشاء بقي زياد بجوار سامر قبل أن يخلد للنوم علّه يتكلم معه بأي شيء ليخرجه من العزلة التي ما زال يعيش فيها. فهم سامر ما يرمي له زياد، قال لزياد بصوت مضطرب وهو يخرج من جيبه بعض النقود:

- عم زياد، أعذرني على تقصيري، لكني أريد أن أعطيك ما قمت بتحصيله من عملي خلال الفترة السابقة، ولو أنه أقل مما تعودت على تحصيله في الفترة الأخيرة، يبدو أن وجود سعيد معي سابقاً كان عامل جذب لبعض الزبائن، لكن الحمد لله على ما رزق.

ابتسم زياد وهو يجيبه:

- لا عليك يا ولدي، احتفظ بالنقود لنفسك، لربما كنتَ أنت بحاجتها أكثر مني. فالحمد لله وضعنا كما تراه جيد، وإن احتجت لشيء فستكون أنت أول من أطلب منه.

بقي سامر ماداً يده بالنقود وهو يجيب:

- لكنا اتفقنا على هذا الأمر قبل أن أوافق على القدوم والعيش معكم، ولن أقبل بالتراجع عن اتفاقنا هذا، أنتم أكرمتمونا أنا وأخي بمجرد توفير السكن والطعام، وإحساس أخي سعيد بالأمان والسعادة ليس له مقابل عندي. فأرجوك يا عمي أن تقبل مني هذا المبلغ، فلن أقبل أبداً أن نكون عالة عليكم.

اقترب منه زياد وجذب رأسه بحنو وقبّله ثم احتضنه وهو يقول له:

- كما تشاء يا ولدي، ضع المبلغ الذي تشاء في أي وقت مع خالتك سعاد، فهي المسؤولة عن تدبير أمور المنزل. لكن عدني الآن وقبل أن نخلد إلى النوم بأن تبدأ بالمذاكرة بشكل يومي مع أختك فاطمة. لا تضيع هذه الفرصة يا ولدي، فالتعليم أهم أمر يجب عليك السعي له، حتى وإن تحصلت على الجزء اليسير منه، لكن إياك أن تضيع هذه الفرصة من يدك.

ابتسم سامر لكلام زياد وهو يقول له:

- أعدك بذلك، سأبدأ معهم من الغد إن شاء الله.

دخل زياد غرفة نومه بعد أن تمنى لسامر ليلة هانئة، انتظر دخول سعاد مباشرة ليحدثها عمّا دار بينه وبين سامر، طلب منها أن تأخذ أي مبلغ يتركه سامر وتضعه جانباً بعد أن تسجل قيمته وتاريخ استلامه. كما طلب منها بأن تجلس معهما من الغد لتحثهما على المذاكرة دون أن تضغط على أي منهما، وأن تراقبهما من بعيد.

بدأ سامر في استرجاع ما يتذكره من دروس مع فاطمة وباقي الأطفال بشكل يومي، وبدأت جبال الجليد بالذوبان بينه وبين عائلته الجديدة، كانت البداية صعبة ومحرجة بالوقت نفسه، فعزّة نفسه كانت تشكل أكبر تحدياته أثناء المذاكرة، عدا عن أنه قد ألف حياة القيادة والاعتماد على النفس والاعتناء بالآخرين، وها هو الآن يلقى التوجيه والتصويب والأوامر من فاطمة، والأمر الآخر كان في إعادة تشكيل تفكيره وعقله لاستيعاب أمور الدراسة، فما مرّ به خلال السنة الماضية كفيل بأن ينسيه حتى أهم الأمور في تاريخه، لكن إصراره وعزيمته ساعداه على تطويع نفسه. أما فاطمة فلقد كانت مستمتعة أيما استمتاع، فاهتمامها بسامر وسعيد خلق لديها حافزاً للحياة بعد أن كادت تفقد أي اهتمام في هذه الدنيا لفرط تأثرها بالأحداث التي مروا بها.

مرّت أشهر عدة على عائلة زياد بعد أن انضم إليها سامر وسعيد وهم يعيشون حياة هادئة بسيطة، لم يكن يزعج زياد وسعاد سوى ضيق العيش وقلّة الدخل، كان زياد يسعى بما أوتي من طاقة لتحصيل ما يمكن تحصيله من عمله البسيط في مجاله نفسه الذي يتقنه، لكن بقاءهم في طرابلس كان يحد من أي توسع ممكن في زيادة دخله، أخذ يفكر بشكل جدي بأن ينتقل إلى بيروت، فالعمل في مجال الأنتيكات أفضل بكثير، مع أنه يعلم بأن العمل في هذا المجال تأثر بشكل سلبي كبير لانخفاض السياحة في لبنان جراء الحرب في سوريا، حتى أن كثيراً من الدول العربية والأجنبية حذّرت رعاياها من الذهاب إلى لبنان لاعتبارها منطقة غير آمنة بالنسبة إليهم.

في إحدى الليالي وبعد أن انتهى الجميع من تناول العشاء، كان يجلس هو وسعاد وسامر وفاطمة، سأل زياد سامر:

- كيف تتدبر أمور مذاكرتك مع أختك فاطمة يا ولدي؟

ابتسم سامر وهو ينظر إلى فاطمة بطرف عينه قبل أن يجيب قائلاً:

- فاطمة مدرسة شرسة يا عم زياد، وأنت تعرف ذلك، لا مجال للتلاعب معها أو مراوغتها، أفضل طرق السلامة معها هو طاعتها فيما تأمر دون نقاش، وهذا ما أفعله صاغراً، تستطيع أن تقول إن الخيارات أمامي شبه معدومة، فإما أن أطيع، أو أطيع.

ابتسمت فاطمة ابتسامة خبث وهي ترتشف الشاي قبل أن تجيب:

- وهل كنت تتوقع مني أن آخذك باللين يا سيد سامر، هناك فرق بين أن أكون أختك التي ترعاك، وبين أن أكون مدرستك التي تبحث عن مصلحتك. اللين يفسد يا ولدي.

قهقه زياد لجواب فاطمة ثم أكمل كلامه مع سامر قائلاً:

- الحمد لله أنك تتقدم بدراستك، فهذا الأمر من الأولويات يا ولدي. إياك أن تقصر فيه في أي وقت من الأوقات.

بعدها، سكت زياد وبصره ما زال متعلقاً بسامر، أحس سامر بأن زياد عنده ما يرغب بقوله، فأولاه كل تركيزه، بعد فترة قصيرة أكمل زياد قائلاً:

- أريد أن أستشيرك بأمر مهم بالنسبة إليّ يا سامر، أرغب بالبحث عن عمل في بيروت، فالعمل هنا في طرابلس ضعيف جداً، وخاصة في المجال الذي أعمل فيه، والأسواق في بيروت أوسع وأكثر تنوعاً من ناحية الزبائن، ولدي معارف ربما أعانوني على تصريف بعض البضائع هناك. ما رأيك؟

لم يجب سامر مباشرة، بل أطرق مفكراً قليلاً قبل أن يرد قائلاً:

- أراها فكرة مناسبة لي ولك يا عم زياد، ولا أخفيك سراً إن قلت لك بأني كنت أفكر في الأمر نفسه، لكني كنت أنتظر الفرصة المناسبة التي أفاتحك بها، ولقد درست الأمر ووجدته ممكناً جداً، فبإمكاننا التوجه في الصباح الباكر إلى بيروت بالنقل العام أو «السرفيس»، والعودة بعد المغرب، فرص العمل بالنسبة إليّ أوسع بكثير في بيروت، فالأماكن والساحات العامة عديدة في بيروت، والمارة كثر، وأدوات عملي خفيفة ويمكنني حملها أينما ذهبت، وأظن أن الأمر ينطبق عليك أيضاً، هذا ما أراه.

ردّ عليه زياد معترضاً:

- لكني طرحت عليك السؤال لتعطيني رأيك في عملي أنا، أما أنت يا سامر، فأرى أن تبقى هنا على ما أنت عليه، لا أريد أن تنقطع عن دروسك اليومية مع فاطمة، أريدك أن تكون جاهزاً للالتحاق بالمدرسة بدءاً من العام الدراسي القادم.

أجابه سامر بابتسامته الصافية:

- وأنا ما زلت ملتزماً بذلك، ستكون عودتي من بيروت مبكرة بعض الشيء، ربما أتأخر قليلاً عن الوضع الحالي، لكنه ما يزال عندي الوقت الكافي للمذاكرة، كما أني سآخذ معي أحد الكتب يومياً لأراجع ما تعطيني إياه فاطمة من واجبات. لا تقلق يا عم زياد، سأتدبر أموري.

نظر زياد إلى زوجته سعاد وابنته فاطمة ليسمع منهما رأيهما، قالت سعاد:

- لِم لا تجربا الأمر بضعة أيام قبل أن تتخذا قراركما النهائي، لا أرى ضيراً فيما اقترحه سامر، وستساعده فاطمة عندما يعود مساءً، وبطبيعة الحال ستكون عودتكما مبكرة من بيروت بسبب المواصلات. أرى أن تجربا الأمر، فهو يستحق.

تابعت فاطمة كلام أمها قائلة:

- وأنا على استعداد أن أجلس مع سامر للمذاكرة في أي وقت يشاء، بل ربما كان الأمر أفضل حيث سأكون متفرغة له تماماً دون وجود بقية إخوتي حولي.

عاد زياد إلى صمته وهو ينقل بصره بين سامر وزوجته وابنته، ثم قال:

- اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، توكلنا على الله، سأخبر صاحب المحل الذي أعمل عنده بما أنوي فعله علّه يساعدني ببعض البضائع، وأرى أن تستشير أنت العم طوني علّه يعطيك بعض النصائح، وسنبدأ رحلتنا الأولى في نهاية هذا الأسبوع.

ابتسم سامر وانفرجت أساريره لهذا القرار متأملاً أن تتحسن أحوالهم المادية ليرفع شيئاً من الضغط الذي يحسه كعبء على كاهل زياد.

بدأت رحلة زياد وسامر الأولى في الصباح الباكر، استقلا المواصلات العامة باتجاه بيروت، كان كل واحد منهما يبني آمالاً بأن يكون يومه حافلاً بالنجاح، سامر مع صندوقه الخشبي الصغير، وزياد مع حقيبته القماشية التي وضع بها بعض الأنتيكات والخزفيات بشكل دقيق ومنظم، استغلا رحلتهما في التشاور حول أفضل الأماكن التي سيبدآن بها، اتفقا بأن يبدأ سوياً في التنقل بين أهم المناطق التي يكثر فيها المشاة والسائحون، كانت الأماكن التي ينويان زيارتها محدودة بين «الروشة»[19] و«شارع الحمرا»[20]، لم تكن المسافات بعيدة بينهما حتى يستطيعا قطعها مشياً على الأقدام، عندما بدآ بالمسير فوجئا بالكم الكبير من البائعين المتجولين في هذه المناطق، بالإضافة إلى كم كبير من الأطفال والنساء الذين يطلبون المعونة من المارة، بدأ الإحباط يسيطر على زياد، فها هي آماله بزيادة الدخل بدأت تخبو شيئاً فشيئاً أمام هذا الكم الكبير من المعروض، فهو يعلم يقينا ما معنى أن يكون السوق غارقاً بالبضائع، وأن تكون المنافسة بأعلى مستوياتها، بيع أقل ونسبة ربح أقل، أما سامر فكان يسير بجوار زياد وهو مبتسم ينقل بصره بين المحلات والمارة بشكل عشوائي دون أن ينطق بأي كلمة. بعد أن سارا لأكثر من ساعتين وهما ينتقلان من شارع لآخر ومن ساحة لأخرى دون توقف، وكز زياد سامر وهو يسأله:

– ما رأيك يا سيد سامر، أرى أن السوق ممتلئ بمن هم مثلنا، والفرص أمامنا تكاد تكون معدومة؟

أجابه سامر بهدوء دون أن ينظر إليه:

– من المبكر جداً أن نطلق هذا الحكم يا عم، المدينة كبيرة جداً، ولم نرَ منها سوى جزءٍ بسيط، ربما أعطيك رأيي في نهاية اليوم، أو بعد يوم أو يومين، فلِمَ الاستعجال يا عم؟ ونحن متفقان بأن الرزق من عند الله، وما علينا سوى السعي.

خجل زياد من رد سامر، فها هو هذا الطفل الرجل يذكّره بكيفية الاعتماد والتوكل على الله، أجابه بهدوء:

– صدقت يا ولدي، لنكمل سيرنا علّنا نجد مكاناً مناسباً نقف فيه لبعض الوقت.

أكملا سيرهما بالطريقة نفسها وهما يبحثان عن مكان يقفان فيه ليعرضا ما لديهما، انتصف اليوم ولم يقف زياد في أي مكان، وسامر يسير بجواره بصمت تام، سأل زياد سامر:

– ألا ترغب بأخذ قسط من الراحة يا سامر؟ لنقف عند إحدى الزوايا ننال بعض الراحة ونتناول وجبة الغداء التي أعدّتها لنا خالتك سعاد، ما رأيك؟

أجابه سامر بالموافقة وهو يقول له:

– نعم، موافق، لكن اسمح لي بأن أختار الزاوية التي نجلس فيها يا عم.

ابتسم زياد لرده وأومأ له بالموافقة، بعد أن سارا لما يقارب النصف ساعة، أشار سامر إلى إحدى الزوايا وهو يقول لزياد:

- ما رأيك بأن نجلس في هذه الزاوية يا عم؟

وافقه زياد على الفور، ما أن وصلا حيث أشار سامر حتى جلس سامر على الأرض سانداً ظهره للحائط، واضعاً أمامه صندوقه الخشبي وكأنه يستعد للعمل، ثم أشار لزياد بأن يجلس بجواره، استغرب زياد من تصرفه فسأله:

- هل تنوي أن تعمل هنا، اتفقنا على أن تكون جلستنا هذه لننال قسطاً من الراحة.

فأجابه سامر على الفور:

- لا تعارض بين الأمرين يا عم، نأكل ونطلب الرزق، لعل الله يرزقنا من عنده.

جلس زياد بجواره وأخذ بإخراج السندوتشات التي أعدتها لهم سعاد، فوجئ بسامر وهو يخاطب أحد المارة بصوت جهوري قائلاً:

- يا عم، يا عم، والله حرام، أن تذهب هذه الهيبة والرتابة والجمال سدى لأنك تبخل على حذائك ببعض الليرات، ساعدني لأجعل لمشيتك معنى آخر، أول ما يلفت نظر السيدات حذاء الرجل الذي يقابلنه للمرة الأولى.

توقف الرجل الذي كان يخاطبه سامر عند هذه الكلمات وعاد له وهو يبتسم قائلاً:

- وما هي الضمانات بألا تفسد عليّ حذائي؟

أجابه سامر على الفور وهو يتلاعب بالفرشة التي بيده بشكل بهلواني:

- ضمان سامر الدولي وشعاره «إن لم يصبح حذاؤك جديداً على يدي، تأكد بأنه عليك استبداله».

ضحك الرجل وهو يضع رجله حيث أشار إليه سامر ليبدأ بتنظيف حذائه وهو يقول:

- حسناً، يا سيد سامر، تفضل ولكن أرجو ألا تؤخرني عن عملي.

بدأ سامر عمله بإتقان ومهارة وسرعة وهو يخاطب الحذاء بكلمات فكاهية ويصدر أصوات كالصفير، أنهى الفردة الأولى وقبل أن يبدأ بالثانية سمعه الرجل وهو ينادي على امرأة كبيرة بالسن كانت تسير بهدوء بجوارهم قائلاً:

- يا خالة، يا خالة، هل تسمحين لي بثوانٍ بسيطة من وقتك.

توقفت عنده المرأة وهي تقول:

- تفضل يا ولدي.

فقال لها بابتسامته الساحرة:

- حلفتك بالله، ما رأيك بهذا الشاب الوسيم، انظري إلى حذائه كيف أصبح لامعاً وكأنه جديد تماماً، أظنه يحتاج منك لكلمة ترفعين بها من معنوياته، فلديه عمل مهم ويحتاج منك لكلمة تشجيعية، ولا تنسي موضوع الحذاء.

ضحكت المرأة وهي تهم بالسير قائلة:

- هو بالطبع وسيم جداً، وله هيبة ووقار، وسيكون يومه ناجحاً بالتأكيد، كما أنه مميز بلبسه وبحذائه الذي أراه جديداً بمعنى الكلمة. وفقكم الله جميعاً.

أكملت المرأة المسير وابتسامة عريضة مرسومة على وجهها، أما الرجل فكان يبتسم بصمت وإعجاب وهو يراقب سامر مستمراً بعمله وكأن شيئاً لم يحدث، أنهى سامر عمله بنغزة خفيفة على حذاء الرجل قائلاً:

- الآن تتوفر لك كل مقومات النجاح، والباقي عليك يا عم، أتمنى لك التوفيق.

قال له الرجل وهو يمد يده بورقة نقدية:

- أشكرك يا سامر، فلقد غيّرت مزاجي وجعلتني مبتسماً. كنت بحاجة إلى هذه الدقائق.

أجابه سامر وهو يتناول منه الورقة النقدية ويضعها في جيبه ويعيد له الباقي قائلاً:

- الشكر لك يا عم، هذا افتتاح يومي في بيروت، لعلها تكون فاتحة خير من الله.

رفض الرجل أن يأخذ باقي النقود وهو يبتسم ويهم بالسير، لكن سامر وقف وسار خلفه وهو يقول:

- أرجوك يا عم، هذا الأجر الذي أستحق، وقد حصلت عليه، أما الباقي فهو من حقك.

تعجب الرجل من كلام سامر، أخذ الباقي وأكمل طريقه دون أن يلتفت إلى الوراء.

عاد سامر إلى مكانه بجوار زياد الذي قدّم له السندوتش دون أن ينطق بأي كلمة. كان زياد يراقب سامر بصمت كامل وهو منهمك بأكله يراقب المارة وكأنه صياد يرنو إلى فريسته. ما أن انتهيا من تناول وجبتهما حتى أعاد سامر الكرة مع أحد المارة بشكل مشابه لما قام به في المرة السابقة، وبالحيوية والنشاط نفسيهما، عندها قرر زياد أن يعرض ما لديه بجوار صندوق سامر، استمرا بالجلوس في نفس المكان ساعات عدة، استطاعا خلالها أن يحصلا على ما يغطي تكاليف رحلتهما بين بيروت وطرابلس. وعندما بدأت الشمس بالمغيب تحركا باتجاه مواقف النقل العام ليعودا إلى طرابلس وكلٌ منهما يحمل أفكاره الخاصة بعقله، كانا يسيران بهدوء وصمت، وابتسامة

سامر لا تفارق وجهه، أصرّ سامر على أن يدفع هو قيمة انتقالهما إلى طرابلس ولم يعارضه زياد في ذلك.

كانت الأسابيع التي لحقت هذا اليوم سعيدة للجميع، فزياد وسامر يخرجان في الصباح الباكر طلباً للرزق، ويعودان قبيل العشاء من كل يوم يحملان معهما ما رزقهما الله به. أحس الجميع بالتغير الذي جرى للعائلة من تنوع أصناف الطعام وبعض الهدايا الصغيرة التي صار يحضرها معه سامر بين فترة وأخرى لأخيه سعيد ولأحمد. كانت مهمة اختيار الموقع أو تغييره تقع على عاتق سامر، وكان زياد سعيداً بما تعلمه من هذا الطفل الصغير الذي علمته قسوة الحياة والتشريد كيف يجد أفضل الأماكن التي يعمل فيها.

في أحد الأيام أثناء رحلتهما إلى بيروت، خاطب سامر زياد قائلاً:

– عم زياد، لدي اقتراح أرجو أن يلقى استحسانك، ما رأيك لو تفرقنا في بيروت كلٌّ منا يبحث عن رزقه في الأماكن المناسبة له، ونلتقي في مكان محدد للغداء سوياً، ثم نلتقي مرة أخرى عند مركز النقل العام لنعود سوياً.

قاطعه زياد وهو يقول له:

– لا أحبذ هذه الفكرة يا ولدي، فبيروت مختلفة تماماً عن طرابلس، وقد تتعرض لمخاطر كبيرة ولا تجد من ينصرك حينها، أرجوك يا ولدي ألا تفكر في هذا الأمر مرة أخرى، كان اتفاقنا واضحاً منذ البداية، بأن نكون معاً في هذا العمل.

أجابه سامر بهدوء:

– أفهم تماماً تخوفك يا عم زياد، لكني فكرت ملياً قبل أن أقترح عليك هذا الاقتراح، طبيعة عملي مختلفة تماماً عن طبيعة عملك، والأماكن التي نجلس بها طلباً للرزق ربما تكون في معظم الأحيان غير مناسبة لك، أما بشأن المخاطر، فالحافظ هو الله، ومنك تعلمت كيف نؤمن بأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، فلِم كل هذا القلق؟

سكت زياد قليلاً قبل أن يجيب:

– أنت لا تدرك حقيقة المخاطر التي أتكلم عنها يا ولدي، هناك فئة نعيش بينهم هنا في بيروت، ونقابلهم ونتعامل معهم بشكل يومي، يتمنون الخلاص منّا، بل وموتنا بأي شكل كان، فئة تخلو قلوبهم من أي إنسانية، بل يعتقدون بأن كرههم لنا أو حتى قتلنا نوع من أنواع القربى لله. أخاف عليك يا ولدي من أن تقع ضحية لوحشيتهم، بقاؤنا سوياً سيمنعهم من التفكير في إيذائك إن توفرت الفرصة لهم.

ابتسم سامر قبل أن يجيب زياد:

– لا تخشَ عليّ يا عم، أعدك بأن أكون حريصاً ومتيقظاً، وألا أغامر بالذهاب إلى أي مكان دون علمك المسبق به.

أجابه زياد منهياً الحديث في هذا الأمر قائلاً:

- لنؤجل الحديث في هذا الأمر إلى وقت لاحق، عملنا يسير بشكل جيد والحمد لله.

استمر سامر بعد هذا الحوار بطرح الأمر نفسه بشكل شبه يومي على زياد، وفي كل يوم يزيد إصراره ويتنوع بطرح البراهين بأهمية اقتراحه حتى وافقه زياد على اقتراحه بشرط أن يعرف كل واحد منهما بحركة الآخر وأين سيقف أو يسير، وأين سيجلس، وأين ومتى سيلتقيان. كان سامر سعيداً جداً بهذا القرار، فلقد كان يشعر بأنه يأسر زياد عن طلب رزقه بالشكل الذي يناسبه ليبقى معه، وكانت توقعاته صحيحة، كما كانت توقعات زياد أيضاً صحيحة.

بدأت أحوال البيع مع زياد تتحسن بشكل ملحوظ جداً، فلقد تعرف إلى بعض محلات الخردوات والأنتيكات، والذين صاروا يطلبون منه بعض البضائع الخاصة التي يحضرها معه بشكل يومي من طرابلس، أما سامر فصار يضع جدولاً لنفسه في أماكن الجلوس ليعتاد الناس على رؤيته ويألفوا تواجده، وليبني له قاعدة من الزبائن، كما أنه تعرف إلى بعض أصحاب المحلات التي يقف بجوارها بأسلوبه البسيط المحبب.

واجه كلٌّ منهما بعض المضايقات وسمع العديد من الكلمات التي تجرحه من الداخل، لكنهما كانا يتجاهلانها لما يؤمنان به من ضرورة الاهتمام بطلب الرزق وعدم الاهتمام بما عدا ذلك.

استمر الحال على ذلك لأسابيع عديدة، كان سامر ينتقل خلالها بين عدة أماكن، يراقب المارة ويحاول اختيار الأماكن الأكثر هدوءاً وبُعداً عن البائعين المتجولين الآخرين، صادف أثناء تحركه وتنقله العديد من العازفين على بعض الآلات الموسيقية، استهواه الأمر جداً حتى أنه بات يتقصد الجلوس بجوار أحدهم يراقبه ويراقب حركات أصابعه على الناي أو على الأكورديون[21] أو الكمان أو غيرها، بدأ بشكل لا شعوري يحرك أصابعه بحساسية مطلقة وهو يستمع لهم دون وعي، بل وصار خلال هذه الأسابيع القليلة يترنم ويدندن على بعض المعزوفات التي تكررت على مسامعه مرات عدة، حتى أنه عزم في قرارة نفسه على أن يتقن العزف في يوم من الأيام دون أن يحدد الآلة التي سيتعلم العزف عليها مستقبلاً، أو حتى كيف سيمكنه تعلم العزف.

في صباح أحد الأيام افترق زياد عن سامر كعادتهما على أن يلتقيا بعد الظهر في مكان محدد، أنهى سامر عمله واتجه حيث تواعدا، أثناء سيره أخذ يسلك بعض الطرق الفرعية ليختصر المسافة كي لا يتأخر على زياد، وبينما هو في أحد هذه الطرق الفرعية، لاحظ وجود شابين يقفان بجوار أحد المنازل القديمة وهما يدخنان، كان أحدهما يحمل بيده سلسلة معدنية طويلة يلفها على يده بشكل متوالٍ، أما الآخر فكانت يداه مليئتين بالأوشمة وعضلات بارزة. حاول سامر ألا يعيرهما أي اهتمام وهو يسير خطواته الثابتة نفسها، عندما اقترب منهما سمع أحدهما يخاطبه بصوت جهوري ضاحك وهو يقول:

- أيها الفتى الجميل، تعال وامسح حذائي، وسأعطيك ألفي ليرة.

أحس سامر بانقباض في قلبه، لكنه تجاهل هذا الإحساس ونظر باتجاه الشاب الذي

خاطبه بشكل مباشر وأجابه بابتسامة باهتة:

- أرجوك اعذرني يا عم، فأنا على عجلة من أمري، أشكرك جداً على عرضك السخي، لكني مضطر إلى رفضه.

تبادل الشابان النظرات بخبث قبل أن يجيب ثانيهما على سامر وهو يعدل من وقفته قائلاً له:

- لن يستغرق الأمر منك سوى دقائق معدودة، فلا تضيّع هذه الفرصة أيها الجميل.

حينها أحس سامر بشيء من الخوف أو الخطر المحتمل، لكنه قرر أن يواجهه ببساطة وجرأة، توجه من فوره تجاههما وهو يتصنع الابتسامة ويقول:

- سأسمع نصيحتك يا عم، بأيكما أبدأ؟

عندما وصل محاذاتهما حاول أن يجلس سانداً ظهره للجدار كما تعود، لكن الشاب ذا الأوشام أشار له بأن يجلس قبالته كي يبقى هو سانداً ظهره للجدار، أطاعه سامر على كُره، وضع صندوقه أمامه وأخرج فرشاته وبدأ بعمل حركاته البهلوانية وهو يصدر أصوات صفير وغناء ليسيطر على الخوف الذي انتابه من نظرات الشابين، كان يحرك فرشاته على حذاء الشاب بخفة وهو يراقب كل حركة تدور حوله، سأله الشاب مرة أخرى:

- من أين أنت أيها الجميل؟

أجابه سامر بلا تردد:

- من سوريا يا عم.

عاجله الشاب بسؤال آخر:

- أعرف ذلك أيها الجميل، قصدت من أي مناطق سوريا؟

فأجابه سامر وهو ما يزال يحرك فرشاته بخفة:

- من ضواحي حمص يا عم.

سمع بعدها سامر الشاب وهو يطلق صوت صفير خفيف وهو يقول:

- أهاااا...

عند هذه اللحظة أحس سامر فجأة بوجود رجل خلفه مباشرة، وقبل أن يلتفت ليدرك من هو، أحس بأن هناك يداً تلتف حول جسمه وأخرى تكتم فمه لتمنعه من إخراج أي صوت تماماً، لم يكد يعي ما يحدث له حتى قام الشاب ذو العضلات بمسك قدميه بقوة ورفعه بمساعدة الشاب الثالث وهو يقول:

- يا الله.

أما الشاب الذي كان يمسك السلسلة فأخذ يلتفت يمنة ويسرة ليتأكد من خلو الطريق من المارة، حمل صندوق سامر وتحرك بخفة باتجاه أحد المنازل القريبة، والشابان اللذان يحملان سامر بقوة وثبات يلحقانه. دخل الجميع إلى المنزل وسامر لا يبدي أي مقاومة لإدراكه بأن أي مقاومة يقوم بها الآن ليست سوى طاقة مهدرة بلا فائدة، وعليه أن يقوم بتوفيرها للوقت المناسب.

صعد الثلاثة درجاً داخلياً بعد أن دخلوا المنزل وهم يحملون سامر حتى وصلوا لما يبدو أنه سطح المنزل، دخلوا بعدها غرفة كبيرة لا يوجد بها أي نوافذ، عندما دخلوا الغرفة ألقى الشابان سامر على أرض الغرفة ثم ألقى الشاب الثالث صندوق سامر جواره وسحب كرسياً مهترئاً وجلس عليه، وقف الشاب الذي حمل سامر أول الأمر أمام باب الغرفة بعد أن أغلقه تماماً، أما الثالث ذو اليدين الموشومتين فوقف بجوار الكرسي.

أخرج الشاب الجالس على الكرسي سيجارة من علبة في جيبه وبدأ يدخنها بشراهة وهو ينظر بنظرات شرسة تجاه سامر الذي بقي ساكناً في مكانه لا يتحرك. خاطب سامر بصوت أجش قائلاً:

- قف وتعال أمامي أيها الجميل.

قام سامر من مكانه وهو يحس بألم شديد في يده حيث تلقى صدمة السقوط عندما ألقاه الشابان على الأرض، خطا خطوات بسيطة تجاه الشاب الذي دعاه ثم توقف، حرك الشاب الجالس يده وأخذ يشير لسامر للاقتراب أكثر فأكثر وسامر يمتثل لإشاراته حتى أصبح يقف أمامه مباشرة. سأله بنفس الطريقة ولكن بهدوء هذه المرة:

- ما اسمك؟

فأجابه سامر بصوت خافت:

- سامر.

فاجأه الشاب بصفعة قوية على وجهه أدت لسقوطه على بعد مترين أو يزيد عن مكان وقوفه، غاب سامر عن الوعي لثوان قليلة جراء هذه الصفعة، عاد له وعيه على صوت قهقهة الشباب جراء ما حدث له، حاول سامر أن يتحامل على نفسه وأن يعدّل من جلسته. وأن يستعيد استيعابه لما حوله، كان إحساسه متوقفاً تماماً عند هذه الصفعة وما بعدها، فكل حواسه باتت ترتكز على كيفية التعامل مع هذا الخطر الذي يحيط به دون إدراك لقيمته أو كميته أو سقفه. تحرك الشاب الواقف بجوار الكرسي تجاه سامر، أمسك إحدى يديه ورفعه بشدة وعنف حتى أن سامر أطلق صرخة مكتومة من شدة الألم، أحس بأن يده خلعت عن كتفه جراءها، أكمل الشاب حمل سامر بأن أمسك إحدى رجليه وقذف به تجاه الشاب الذي يقف قبالة الباب وكأنه يقذف كرة، ارتطم سامر بالأرض بعنف وهو يئن. قام بعدها الشاب الثالث بمسك شعر رأس سامر ورفعه بعنف وسامر يتعلق بكلتا يديه باليد الممسكة بشعره علّه يخفف من الألم الذي أحس به في رأسه، فما كان من هذا الشاب إلاّ أن عاجله بصفعة عنيفة أخرى على وجهه أدت إلى رميه إلى زاوية

الغرفة وهو يقول:

- كم أكره وجودكم في بلدنا.

أحس سامر عندها بأن جزءاً من عظامه قد تكسر، كانت الآلام تنتقل بين أطرافه شيئاً فشيئاً، تحامل على نفسه قدر استطاعته ليعود للوقوف مرة أخرى خشية أن يوقفوه بالعنف السابق نفسه. سمع الشاب الجالس على الكرسي وهو يخاطب زميله قائلاً:

- توخّ الحذر يا حيدر، أخشى أن يموت بين يدينا ثم نقع بمشاكل لم نحسب حساباً لها.

ردّ عليه الشاب ذي الوشم وهو يتجه نحو سامر ويسحبه من يديه ليوقفه أمام الشاب الجالس على الكرسي:

- لا عليك منه يا وسام، إن بنيته جيدة وسيحتمل المزيد من المرح.

بقي سامر واقفاً أمام وسام، الشاب الجالس على الكرسي ينتظر بترقب المفاجأة التالية، قال له سائلاً:

- ما الذي أحضرك إلى شارعنا أيها الجميل؟ ألا تخشى الموت، هل أنت ممن يطلبون الحرية؟ أين أهلك وأين تعيش.

لم يجب سامر على أسئلته مع أنه سمعها وفهمها تماماً، فما كان يشعر به من آلام سلبه أي قدرة على التحكم في حواسه أو تصرفاته. فاجأه وسام حينها بركله بين رجليه، سقط سامر على إثرها بشكل مباشر على الأرض وهو يتلوى من الألم. تحرك وسام من على كرسيه وجثا على ركبتيه ماسكاً شعر رأس سامر وهو يقول له:

- هل ترغب الآن بالجواب أيها الجميل؟

فقال له سامر بصوت مرتجف وهو يتأوه:

- أنا يتيم يا عم، وليس لي أحد، أهلي جميعهم ماتوا في الحرب. وأنا أتجول في أي مكان لأحصل على ما يسد رمقي، آكل أي شيء وأنام في أي مكان.

ضحك حيدر ضحكة مدوية وقال للشاب الواقف عند الباب:

- أحضر مايك من الخارج يا زهير، سيكون وجبة شهية له.

سارع الأخير بفتح الباب، خرج لثوان قليلة ثم عاد وهو يمسك بيده سلسلة معدنية مشدود في طرفها الآخر كلب ضخم، دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه، اشتد رعب سامر عندما رأى الكلب، فحجم الكلب كان يوازي حجمه، أخذ يزحف مبتعداً عنه بشكل لاإرادي، أما الشباب فبدأوا بالضحك بشكل هستيري، قال وسام الذي كان يجثو بجوار سامر لزهير الممسك بالكلب:

- انتبه يا زهير أن يفلت منك، أظنه لم يأكل من الأمس.

ضحك زهير وهو يلاعب رأس الكلب ثم قال بصوت عالٍ:

- مايك، هذا لاجئ حقير.

ما إن قال هذه الكلمات حتى أخذ الكلب ينبح بقوة ويحاول الهجوم على سامر بعنف، ووسام وحيدر يضحكان بشدة لما رأياه من خوف سامر والتصاقه بالحائط، استمرت هذه المناورات بين زهير وكلبه وبين سامر لعدة دقائق، كان الكلب يقترب من سامر لدرجة أن سامر اشتم رائحته وأصابه شيء من لعابه المتطاير أثناء نباحه.

فجأة أشار وسام الذي عاد للجلوس على الكرسي لزهير بأن يأخذ الكلب خارجاً، ثم دعا سامر للوقوف مرة أخرى بين يديه، فامتثل سامر له بلا إرادة وهو يضع يديه أمام وجهه متفادياً أي صفعة قد تأتيه منه. مدّ وسام يديه وأمسك بأذن سامر وفركها بقوة وهو يقول له:

- اسمع ما سأقوله لك يا سامر الجميل، سأتركك ترحل الآن، ولا أريد أن أراك مرة أخرى في هذا الشارع أو الشوارع المحيطة بنا، هل تسمع ذلك.

أومأ له سامر بالإيجاب دون أن ينطق بأي كلمة. نظر الشاب إلى حيدر وزهير قائلاً لهما:

- راقبا الطريق أوله وآخره، ثم أطلقاه كي يذهب بعد ساعة من الآن، لكن تأكدا بأن ليس هناك من يبحث عنه.

وقبل أن يخرج الجميع من الغرفة، قام حيدر بتحطيم صندوق سامر وكسر كل ما فيه. ثم قال لسامر:

- أستغرب كيف لك القدرة على حبس دموعك مع كل ما تعرضت له.

قال هذه الكلمات وأغلق الباب من الخارج بإحكام.

بقي سامر على هذه الحالة يتجرع آلامه لما يزيد عن الساعة، كان كل ما يفكر فيه وهو يستعيد إدراكه بكل ما حوله هو عمه زياد، وأنه ربما كان ينتظره ويشعر بالقلق عليه. أعادت له هذه الساعة الكثير من الآلام التي عانى الأمرين كي يتخلص من آثارها، مرّت عشرات الصور أمامه خلال هذه الساعة وهو لا يحرك ساكناً، صورة أمه المذبوحة أمامه، صورة جثمان أبيه وهم يدفنونه، صور الدمار التي رآها أثناء خروجه من سوريا، كان ذهنه مفصولاً بشكل كلي عن جسده، كل الألم الذي يشعر به ألم نفسي قاتل. تنبه لما حوله حين سمع صوت قفل الباب ثم رأى الباب يفتح ويدخل منه حيدر بوجهه القميء وابتسامته الخبيثة، حاول أن يتحرك لكنه عجز تماماً لما يحس به من آلام. قال له حيدر وهو يقهقه وبكلمات ساخرة:

- هيا تحرك يا بن الكلاب قبل أن أجعلك طعاما للكلب، واشكر ربك على أنك بقيت حياً. هيا بسرعة أيها الجميل.

حاول سامر أن يتحرك مرة أخرى لكنه أحس بعجز تام، كانت عضلاته قد تيبست تماماً من شدة الخوف الذي أصابه عندما حاول الكلب مهاجمته، نظر إلى الشاب نظرة عجز دون أن يتحرك قيد أنملة.

فهم حيدر ما به، فأقبل تجاهه ورفعه من يديه بشكل عنيف حتى استوى واقفاً. صرخ سامر من شدة الألم لكنه استعاد بعضاً من قدرته على التحكم في أطرافه، وقف مستنداً إلى الجدار يحاول تحريك قدمه ببطء وألم شديدين. صرخ بوجهه حيدر بعد أن صفعه على رأسه وهو يقول له:

- تحرك بسرعة قبل أن أقفل عليك الباب مرة أخرى، ولن تخرج بعدها ليوم أو يومين، ولربما تركناك هنا حتى تموت جوعاً.

كانت هذه الصفعة وما تلاها من كلمات كفيلة بأن تعيد إلى سامر بعض طاقته، اتجه بهدوء نحو صندوقه المحطم، انحنى يلملم أجزاءه بشكل يستطيع معه أن يحمله، رفعه على كتفه وبدأ بالسير حيث يوجهه حيدر حتى نزل الدرج ووصل إلى باب المنزل، ما أن خرج من باب المنزل ووطأت قدمه أرض الشارع حتى أطلق قدميه للريح وهو يسمع صوت ضحكات الشباب الهستيرية وشتائمهم القذرة.

في أثناء الأحداث التي مرّ بها سامر كان زياد قد تأخر عن موعد لقائهما لما يقارب الساعة بسبب انشغاله مع أحد المحلات في منطقة «البسطة»، عندما وصل إلى منطقة اللقاء ولم يجد سامر، انتظره لما يقارب النصف ساعة، عاد بعدها لمتابعة أشغاله وتوزيع بضائعه لتوقعه بأن سامر عاد لأعماله بسبب تأخره عن موعدهما المتفق عليه، فهو يدرك تماماً مدى جدية سامر في طلب الرزق، لم يخطر بباله أبداً حينها بأن سامر ربما تعرض لأي خطر كان، لم يتناول حينها غداءه من باب مشاركة سامر هذا الأمر، وقرر أن يؤجل الأمر لحين التقائهما قبيل المغرب للعودة إلى «طرابلس».

أما سامر، فبعد أن أطلق رجليه للريح هارباً من مكان احتجازه، وما أن وصل إلى أول شارع رئيسي، عاد ليسير بهدوء مرة أخرى، ومع سيره البطيء الهادئ بدأ يستعيد إحساسه الكامل بجسده، وبشكل لا إرادي بدأ يعرج على إحدى قدميه من شدة الألم الذي يحس به، كانت معالم الغضب والقهر مرسومة بوضوح على وجهه، يسير وهو ينظر إلى ما أمامه دون أن يلتفت لأي شيء حوله على غير عادته، بقي يسير بهذه الطريقة حتى وصل إلى المكان المتفق لاجتماعه بزياد. اختار إحدى الزوايا الهادئة وانطوى على نفسه مفترشاً الأرض سانداً رأسه على ركبتيه واضعاً يديه حول وجهه، بدأ يستعيد كل ما حدث معه لحظة بلحظة، وكأنه يريد أن يستشعر الألم الذي أحس به مرة أخرى، أخذ يستعيد كل لحظة ويربطها بشعور نفسي وآخر جسدي، يربط كل ألم يشعر به في جسده بالضربة التي تلقاها وبالكلمة التي سمعها وبالأثر النفسي الذي ترتب عليها، وباستعادته لكل الأحداث كان قد عزم على أمر.

مرت السويعات التي انتظر بها سامر زياد بشكل سريع، فلم يكن يدرك قيمتها أو ما يحدث حوله بها لغيابه الكامل عما يحيط به وغرقه في دائرة آلامه.

في وقت اللقاء، كان زياد يسير بهدوء، لمح سامر حيث كان يجلس فابتسم وأحس بشيء من الراحة، لكن ملامحه أخذت تتغير وخطواته تتسارع مع كل خطوة يقترب بها من سامر، كان أول ما لفت نظره جلسة سامر المنطوية على غير عادته، أخذت دقات قلبه تتسارع بتسارع خطواته وبخاصة عندما لمح من هذه المسافة صندوق سامر المكسور الملقى بجواره، ثم تحولت خطواته إلى هرولة حتى وصل حيث يجلس سامر. ألقى حقيبته بجوار سامر دون أن يقول أي كلمة وجثا بجواره، وضع يده بهدوء على رأس سامر وهمس في أذنه:

- سامر، ما الذي حدث لك يا ولدي؟

بقي على هذا الوضع لما يقارب الدقيقة وسامر ما زال على وضعه وهو يداعب رأسه بحنو، بعدها رفع سامر وجهه ونظر إلى زياد نظرة قهر وألم لم يرها زياد على وجه سامر من قبل. فزع زياد أيما فزع وصرخ بصوت مكتوم مكبراً، لم يقل بعدها أي كلمة، اقترب من سامر أكثر واحتضن رأسه إلى صدره بحنو وهو ما يزال يداعب شعر رأسه، بقيا على هذه الحالة لما يقارب الخمس دقائق، وهو يهمس بالتسبيح والاحتساب والحوقلة. قرر بعدها أن يخرج من هذه الحالة، وقف بهدوء وأمسك يد سامر ليساعده على الوقوف وهو يراقبه. حاول سامر أن يتجاوب مع زياد لكن معالم الألم كانت واضحة جداً على وجهه، حاول حينها زياد أن يحمل سامر، لكن سامر أشار له بيده رافضاً ذلك وبنظرة إصرار استند على يد زياد وتحامل على آلامه واستوى واقفاً، حمل زياد حقيبته، ثم حمل صندوق سامر المكسور على كتفه، وأحاط سامراً بيده الأخرى ليساعده على المشي، بدءا بالسير دون أن ينطقا بأي كلمة، أوقف زياد سيارة أجرة خاصة لنقلهما إلى تجمع الحافلات لما رآه من معالم الألم البادية على وجه سامر مع كل خطوة يخطوها. عندما ركبا في الحافلة الصغيرة التي تقلهما عادة إلى «طرابلس»، أسند سامر رأسه بألم واضح على كتف زياد على غير عادته وأغمض عينيه، فما كان من زياد إلاّ أن أحاطه بذراعه وقبّله على رأسه دون أن يقول أي كلمة.

حين وصلا البيت، وما أن وقعت عينا سعاد على سامر حتى شهقت مصدرة صوتاً فزع له كل من في المنزل، في اللحظة نفسها أخفى سامر نفسه خلف زياد كي يتجنب نظرات سعاد إليه. فهِم زياد مقصود سامر، فأشار لسعاد بأن تصمت وأن تأخذ الأولاد للداخل وتجنب سامر الإحراج الذي أحس به، كان الأولاد قد هبوا لصوت أمهم وأسرعوا ليعرفوا سبب هذا الصوت، أشارت سعاد إلى فاطمة بعد أن همست بأذنها بعض الكلمات، تجاوبت فاطمة بسرعة وأخذت إخوتها للداخل وهي تبعد نظرهم عن ملاحظة سامر، تجاوب الجميع عدا سعيد الذي صرخ بها قائلاً:

- أريد أخي سامر، لِمَ تبعديني عنه؟ أريد أن أرى سامر، لا يمكن لأحد أن يبعدني عن سامر، هل تفهمين، لا يمكن لأحد أن يبعدني عن سامر.

لم تعرف كيف تتصرف وأحست باضطراب شديد للحظات حتى سمعت سامر من خلفها يقول بصوت ضعيف:

- أريد سعيد، دعيه يدخل.

أفلت سعيد من فاطمة وجرى بشكل متعرج بين زياد وسعاد حتى وصل إلى أخيه سامر، لم ينظر إلى وجه أخيه أو يدقق في حالته، فقط ارتمى بحضنه دون وعي ودون أن ينطق بأي كلمة، تحامل سامر على آلامه وهو يحتضن سعيد بمنظر يحرك القلوب الصماء، قبّله على جبينه وهو يقول له:

- لا عليك يا حبيبي، أنا بخير، اذهب إلى الداخل الآن والعب مع إخوتك، وسأنضم إليكم بعد قليل. أعدك بذلك.

عندها نظر سعيد إلى وجه سامر بشكل مباشر وابتسامة بريئة مرسومة على وجهه وهو يحاول منع دمعة بدأت تتشكل في عينيه، ثم قال له:

- بما أنك وعدتني فأنا على يقين بأنك ستفي بوعدك، سامر لا يمكن أن يخلف وعداً قطعه لسعيد أبداً.

قبّله على خده ثم جرى للداخل.

كانت سعاد وفاطمة تراقبان هذا المنظر ودموعهما تنسكبان لا إرادياً من عينيهما، كانا يحسان بعظمة هذا الطفل وبألمه في الوقت نفسه، أما زياد فمذ دخل المنزل جلس في إحدى الزوايا واضعاً رأسه بين يديه مغمضاً عينيه، كان يتهرب من رؤية أبنائه لوجهه الذي يحمل كل معالم القهر والعجز. وفي الوقت نفسه كان يسترق النظرات مراقباً سامر وما يحدث معه. ما أن خرج سعيد حتى هب زياد واقفاً واتجه لسامر وهو يقول له:

- تعال لأساعدك يا ولدي كي تخلع ملابسك وتستحم، ولنرَ لربما كنت بحاجة لطبيب يعاين إصاباتك.

نظر إليه سامر نظرة امتنان، ثم نقل بصره لفاطمة. فهمت فاطمة قصده فانصرفت إلى داخل المنزل وتركت سامر بين يدي أبويها، اقتربت سعاد من سامر بهدوء وهي تمسح دمعها، مسحت على رأسه وقبلته وهي تقول له:

- لا بارك الله فيمن فعل بك هذا الفعل، شلّ الله يديه وأقعده بداء لا يُعرف له دواء.

نظر إليها زياد نظرة تدل على أن لا داعي لهذا الكلام الآن. بدأت سعاد وزياد بمساعدة سامر في خلع ملابسه وهو يتألم مع كل حركة يتحركها، أدخلاه إلى الحمام وبدآ بتنظيفه ومعاينة الكدمات التي باتت ظاهرة في أنحاء جسده وبخاصة وجهه الذي حمل أكثر العلامات وضوحاً جراء الصفعات القوية التي تلقاها.

بعد أن انتهيا من تنظيف سامر وفحصه للتأكد من أن كل ما فيه من آلام عبارة عن كدمات ورضوض، لبس ملابس نظيفة وتعطر ودخل مع زياد وسعاد حيث ينتظره الأولاد وهو يستند على زياد بشكل واضح، كان يسير وقد جاهد نفسه على رسم ابتسامته المعهودة، ما أن رآه سعيد حتى هب واقفاً وارتمى في حضنه حتى كاد أن يوقعه وهو يصرخ:

- ألم أقل لكم أن سامر وعدني بأنه سيجلس معنا الآن.

ابتسم سامر وهو ينقل بصره بين باقي الأطفال، وفي الوقت نفسه كان متأثراً جداً برؤية ابتسامة فاطمة التي كانت تغلفها آثار دموع كانت تملأ عينيها. بعد أن انتهى الجميع من عشائهم، توجه سامر حيث ينام دائماً هو وسعيد، استلقى في فراشه محتضناً سعيد الذي كان يلتصق به كعادته، اقترب منه زياد وقال له:

- حمداً لله على سلامتك يا ولدي، سأترك الباب مفتوحاً، إن أحسست بأي ألم أو احتجت لشيء فلا تترد بالنداء عليّ أو على خالتك سعاد.

أومأ له سامر موافقاً وشاكراً، فما كان من سعيد إلا أن سارع بالقول:

- لا عليك يا عم، أنا سأبقى بجواره، فإن احتاج إلى شيء أنا من سيلبيه، لا تقلق.

ابتسم زياد لبراءة هذا الطفل، كانت فاطمة تقف بجوار أبيها وتنظر إلى عينيه مباشرة وكأنها تستأذنه بأمر ما، فهم زياد نظرات ابنته فأومأ لها بالإيجاب، عندها تحركت بخفة إلى جوار رأس سامر وجثت بجواره، ثم قبلته من رأسه وهي تقول له:

- حمداً لله على سلامتك يا أخي.

فعلت ذلك ثم ركضت إلى داخل غرفتها. ابتسم سامر وأغمض عينيه لينهي هذا اليوم بكل آلامه.

مرّت ثلاثة أيام وسامر مستلق في فراشه لا يقوم إلا للضرورة، كان يحاول بين فترة وأخرى أن يتحامل على نفسه ويحرك أطرافه كي لا يشعر بالخدر، وكانت تساعده فاطمة وسعاد على ذلك، أما زياد فاستمر على عادته بطلب الرزق دون أن يزعج سامر بسؤاله عن أي شيء حول ما جرى معه. زاره خلالها العم طوني مرتين بعد أن تفقده وعلم ما حدث له من زياد، كانت زيارة العم طوني مليئة بالمشاعر، حيث أنه بقي بجواره محتضناً رأسه طوال فترة زيارته وهو يقبله ويدعو له بالشفاء والعافية. كان العم طوني شديد التأثر حتى إنه لم يتمالك من حبس دموعه عندما رآه أول مرة. كان يحاول أن يقنع سامر بضرورة تقديم بلاغ للشرطة وأن يخبرهم بكل ما حدث ليقبضوا على هؤلاء الوحوش البشرية دون أن يعرف تفاصيل ما جرى مع سامر. لكن سامر كان يبتسم له ابتسامة رضى وكأنه يقول له بأنه لا فائدة من ذلك تُرجى.

في اليوم الرابع كان جزءاً كبيراً من آثار الصفعات قد زال من على وجه سامر، وباتت حركته أقل إيلاماً وأكثر مرونة عما قبل، وحتى تفاعله مع من حوله بات أكثر حيوية ونشاطاً، وجد عندها زياد بأن الوقت صار مناسباً كي يسأل سامر عما جرى معه بالتفصيل. انتظر حتى انتهى الجميع من العشاء، جلس بجوار سامر هو وزوجته يشربون كأساً من الشاي كعادتهم السابقة، خاطبه قائلاً:

- كيف صحتك الآن يا ولدي، هل زالت آلامك؟

أجابه سامر بابتسامته البسيطة:

- وهل يشعر بالألم من كانت خالته سعاد وأخته فاطمة.

تأثرت سعاد لهذا الجواب فردت عليه بشكل مباشر:

- رضي الله عليك يا ولدي، وعافاك مما بك.

أكمل زياد كلامه الموجه لسامر قائلاً:

- ألا ترغب بأن تقول لي ما جرى معك يا ولدي؟

سكت سامر قليلاً، وأغمض عينيه لفترة قبل أن يبدأ بالكلام، وكأنه كان مستعداً لهذا السؤال، بدأ الكلام باسترسال وعلامات وجهه تتغير مع كل كلمة يقولها، وصف لهم كل ما حدث معه بالتفصيل الدقيق، لم يغفل عن أي لحظة مرّت عليه، وكأنه يعيد شريطاً مسجلاً به ما حدث معه. كانت نبرة صوته تتغير بتغير الموقف ووصفه، حتى أحس زياد وسعاد بأنهما يعيشان معه هذه اللحظات، كانت سعاد تشهق شهقات صغيرة مع كل موقف مؤلم أحس به ودموعها تغسل وجهها، أما زياد، فكانت ملامح القهر ترتسم شيئاً فشيئاً على وجهه حتى باتت وكأنها أصل في ملامح وجهه. عندما انتهى سامر من رواية ما حدث معه سكت قليلاً، ثم نظر نظرة إصرار وعزم إلى وجه زياد بشكل مباشر وقال له:

- عم زياد، لقد قررت أن أعود إلى الشام أنا وسعيد بمجرد أن أتعافى تماماً. لا أستطيع أن أوفيكم حقكم من الشكر والعرفان على ما قدمتموه جميعكم لي ولأخي. لكن الله مطّلع على عملكم، وهو وحده القادر على مجازاتكم خير الجزاء. وأشهد الله أن الفترة التي عشناها أنا وأخي بينكم كانت أجمل فترة أحسست بها بالأمان والراحة حتى حدث معي ما حدث، فجعلني أعيد التفكير في كل شيء، ربما كانت علامة من الله كي أعيد حساباتي. والله يا عم زياد ويا خالة سعاد أني أحببتكم كوالديّ تماماً، وسعيد أيضاً، لكن أمور الدنيا لا تصفو لأحد، وليس من العدل أن أحملكم فوق طاقتكم، أو أن أظلم أخي سعيد بالتعلق بكم أكثر من ذلك وأنا على يقين بأن بقاءنا بينكم لن يطول. ما أرجوه منكما أن تعيناني على تنفيذ هذا القرار بأقل ألم ممكن.

سكت بعدها ولم يستطع أن يكمل حديثه. أما سعاد، فكانت تمسك بيد زياد وتعتصرها بقوة وكأنها تحثه على أن يقول شيئاً أو يمنع سامر بأي طريقه. بقي الجميع صامتين لعدة دقائق، سامر يفكر في تنفيذ ما عزم عليه والألم الذي سيسببه لقلبه وقلب أخيه سعيد عند الرحيل، وسعاد تفكر بهذين الطفلين وما كتبه الله عليهما من معاناة، وما سيسببه رحيلهما من ألم لهم جميعاً، وخاصة أحمد وفاطمة. أما زياد، فكان تفكيره مختلفاً، كان يفكر كيف أن هذا الشاب يأخذ قراراته المبنية على مواقف حدثت له، وهل يستطيع هو أيضاً أن يأخذ قراراً مشابهاً بمثل هذه الجرأة، هل عليه أن يحاول أن يثني سامر عن قراره، أم عليه أن يعينه عليه بل ويفعل مثله. قاطع صمتهم صوت سامر وهو يكمل قائلاً:

- أرجوكما أن تبقيا الأمر بيننا، وأنا أعدكما بأن أخبركما قبل رحيلي، أريد أن أجنب أخي سعيد معاناة وداع من أحبهم وألف الجلوس بينهم، وأرجو من الله أن نجتمع في يوم قريب في

بلدنا مرة أخرى، عندها فقط سأضمن لكما ألا أفكر بالبعد عنكم مهما حدث.

عندما وجدت سعاد بأن زياد لا ينطق بأي كلمة، فهمت ما يدور في باله فآثرت الانسحاب، مسحت آثار الدموع وهي تهم بالخروج قائلة لسامر:

– أتمنى أن تغير رأيك يا ولدي، فيشهد الله أني أحببتكما كما أحب أولادي تماماً، ولكن القرار يعود لك، ولن أقول أكثر من الدعاء لكما بأن يختار الله لكما ما فيه خير لكما في الدنيا والآخرة، وأن يجعل حياتكما سعيدة في كل مكان وكل حين.

بقي زياد وسامر لوحدهما، عندها بدأ زياد حديثه مع سامر قائلاً:

– أعرف يا ولدي تماماً ما تشعر به، وأعرف تماماً ما يعني قهر الرجال، فهو دعاء لا أكف عن طلبه من الله بأن يجنبني هذا الإحساس والامتحان في أي وقت، وأنت رجل يا ولدي، ولن يزول أثر ما حدث معك بسهولة. وربما لو كنت مكانك لما ترددت لحظة في فعل ما تنوي فعله، وأثق تماماً بطريقة تفكيرك وحسن تقديرك للأمور، فقط ما أرجوه منك بأن تفكر أكثر من أجل سعيد، ولا بأس بأن تستشير العم طوني، وتأكد بأني سأدعمك بأي شيء أستطيعه مهما كان قرارك، هذا ما لديّ كي أقوله لك، متمنياً أن يختار الله لكما الخير حيث كان.

في اليوم التالي ذهب سامر لوحده لزيارة العم طوني ليخبره بعزمه، لكن السبب الأهم لزيارته كان لطلب مساعدته في تسهيل أمور عبوره إلى سوريا من لبنان، فليس لديه أي أوراق ثبوتية هو أو أخيه، وكان لديه أحد الخيارين، إما أن يسجل نفسه كلاجئ ويستخرج أوراقاً تثبت لجوئه، ما سيجعل حركته مقيدة جداً وحسب ما تسمح به الأنظمة التي تتغير بين فترة وأخرى، وإما أن يعود سيراً على الأقدام بين الحدود من خلال المهربين المعروفين.

حاول العم طوني أن يثنيه عن عزمه بعد أن علم به، لكنه كان متيقناً بأنه لا يوجد من يثني سامر عن عزمه إن عزم على أمر ما، وعده بأن يساعده في ما طلبه وبأن يؤمّن له من ينقله إلى وسط دمشق دون أن يتحمل أي تكاليف. شكره سامر وقبّل رأسه واعداً إياه بزيارة قريبة هو وسعيد قبل أن يسافرا مباشرة، على أن يكون بينهم موعد مفتوح في المستقبل ليعيد سامر للعم طوني المبلغ الذي سيكلفه الانتقال إلى دمشق.

استغرق الأمر عدة أيام حتى قام العم طوني بترتيب رحلة سامر وسعيد لدمشق، وفي الليلة التي سبقت مغادرتهما، وأثناء تناول الجميع وجبة العشاء، كان سامر ينظر إلى وجوه الجميع بتأمل على غير العادة، وكأنه يريد أن يحفظ ملامحهم واحداً واحداً، وصل نظره إلى فاطمة، لم يستطع أن يتأمل كثيراً، فبمجرد أن التقت عيناه بعينيها أنزل بصره إلى الطبق الذي أمامه، ثم عاد ينقل بصره بين الآخرين متجنباً النظر إلى فاطمة، حتى التقت عيناه بعيني زياد، فهم زياد من نظراته بأن الموعد قد حان، ونفس الأمر وقع لسعاد، أومأت له وهي تحاول حبس دمعة كادت أن تفضحها. بعد أن انصرف الجميع بقيت سعاد وزياد مع سامر، فهما منه ما استقر أمره عليه، وبأنه ينوي الرحيل في الصباح الباكر وبأن أموره قد تم ترتيبها مع العم طوني، قامت سعاد بالبدء بترتيب حاجياته هو وسعيد بشكل لا يلفت أنظار أبنائها، وضعتها في حقيبة قماشية تُحمل على الظهر، تمنت لهم ليلة هانئة وانصرفت للداخل، أما زياد فلقد فهم من سامر كل التفاصيل، ما كان

يهم زياد أن سامر سيكون بخير طالما أن العم طوني هو من رتب له أمر رحلته، أخذ منه وعداً أكيداً بأن أول أمر عليه أن يفعله بمجرد وصوله واستقراره بالشام، بأن يمتلك شريحة هاتف نقال وأن يتواصل معه، وأعطاه جهاز هاتف كان قد اشتراه له سابقا، وقال له:

- يا سامر، سيكون اتصالك الأول بمثابة الشكر والعرفان، فلن يطمئن قلبي عليك حتى أسمع صوتك، وليكن الرقم الذي ستمتلكه رقماً دائماً يكون بمثابة عنوان لك، فلا نعلم ما سيكتبه الله لنا في قادم الأيام، نحن ما زلنا في غربة، وربما تتغير عناويننا وأرقامنا بحسب تنقلاتنا، أما أنت فعائد لوطنك، فلتملك رقماً يكون معك دائماً مهما حدث لا تغيره. وفقك الله يا ولدي.

كانت ليلة مريرة عليهم جميعاً، لم ينم فيها سامر سوى وقت قصير جداً، أما سعاد وزياد فلم يعرفا طعم النوم في ليلتهما هذه، قضت سعاد ليلتها ودمعها لم يجف. كانت تتحرك في منزلهم الصغير كالثكلى، أعدت لسامر وأخيه بضع سندوتشات تكفيهما لأكثر من يوم، وضعت لسعيد بعض ملابس أحمد، حاول زياد أن يهدئ من انفعالها لكنه عجز فآثر أن يتركها تتعاطى مع مشاعرها بالطريقة التي تراها أنسب، أراد أن يذكرها بأمر كان قد نبهها إليه، فقال لها:

- هل وضعت في ملابس سامر المبالغ التي تركها معك كلها.

أجابته وهي تمسح دمعها قائلة:

- أكيد، وضعتها كاملة في جيب أحد بناطيله، ووضعت في أحد البناطيل الأخرى قطعتي حلي من الذهب، ربما احتاجها في تصريف أمر من أموره.

ابتسم لها وعاد لصمته ومراقبته لحركتها. ما أن اقترب طلوع الصبح حتى سمعا صوت نحنحة سامر وحركته. كان سامر قد أيقظ سعيد وأخبره بأنه سيرافقه اليوم في مشواره، كان سعيد مبتسماً وهو يغيّر ملابسه ويطوي ما نزعه بشكل مرتب، دخل زياد وسعاد الغرفة بعد أن استأذنا، وقفا عند الباب وهما يراقبان الصغيرين يجهزان أمورهما، سارعت سعاد في مساعدة سامر وهي تقول له همساً:

- وضعت لكما بعض الطعام في الحقيبة، انتبه للحقيبة، وإياك أن تفقدها أو تفقد أي شيء فيها يا ولدي.

أومأ لها سامر بابتسامة دون أن ينطق بكلمة، ما أن انتهيا من تجهيز نفسيهما ووضع سامر حقيبته على ظهره ماسكاً يد سعيد ليخرجا من المنزل، حتى قال سعيد ببراءة:

- ألن تأخذ صندوق العدة معك يا أخي؟

أجابه سامر وهو يداعب رأسه:

- ليس اليوم، ربما عدنا لنأخذه في وقت لاحق إن شاء الله.

ابتسم سعيد وتوجه للباب بهدوء، كانت سعاد تمسك بيد زياد وهي ترتجف حابسة

انفعالاتها وهما يسيران بهدوء خلف سامر وسعيد ليودعاهما عند الباب. في هذه اللحظة فوجئ الجميع بفاطمة تقف بهدوء خلف أمها ووجهها محتقن وخال من الحياة. نظرت إلى سامر وهي تقول له بصوت مخنوق:

- أتريد الرحيل يا سامر دون أن تودعني؟

احمر وجه سامر واضطرب أيما اضطراب، أطرق بوجهه للأرض دون أن ينطق بأي كلمة، اقتربت فاطمة منه بهدوء واضعة يدها تحت ذقنه كي ينظر إليها، أكملت كلماتها قائلة:

- ألست من كنت تقول دائماً أني أختك الكبيرة التي لم تنجبها أمك؟ كيف هان عليك أن تأخذ هذه الخطوة؟ أتريد أن تحرق قلبـي عليكما يا سامر؟ سامحك الله.

اقتربت سعاد من ابنتها وهي تقول لها همساً:

- لا تصعّبـي علينا الأمر يا فاطمة، لم يفعل ذلك سامر إلا لأنه يحبنا ولا يرغب في أن نشعر بالألم أثناء وداعه.

تدخل زياد لينهي الموقف قائلاً:

- رافقتكما السلامة يا أجمل طفلين عرفتهما. سأكون بانتظار اتصالك يا سامر.

نظر إليه سامر نظرته الجادة ليؤكد له ما وعده به. لم تتمالك سعاد نفسها، جثت على ركبتيها ساحبة سعيد إلى حضنها، أخذت تقبله بهدوء وسعيد مبتسم يحس بدفء الأم في حضنها، فعلت فاطمة مع سعيد ما فعلت أمها، ثم اقتربت سعاد من سامر واحتضنته لأول مرة وهي تقول له:

- سأفتقدك يا ولدي، حفظكما الله ورعاكما.

فما كان من سامر إلا أن أمسك بيدها وقبلها، ثم توجه لزياد وسلم عليه وقبّل يده ثم قبل رأسه، وأسرع بالخروج يلحقه سعيد.

كان أسبوعاً قاسياً جداً على زياد وعائلته، فالهدوء بات سمة للمنزل بعد أن كان ينبض بالحياة بوجود سعيد وسامر، وأكثر من تأثر برحيلهما أحمد وفاطمة، فأحمد كان لا يكف عن السؤال والاستفسار عن سبب رحيلهما، ويبدي تأففه وانزعاجه وألمه أحياناً لغياب سعيد، أما فاطمة فقضت عدة أيام تشعر بألم يعتصر قلبها من فراقهما، فلقد أحبتهما من أعماق قلبها، ولم تكن بعد جربت معنى ألم الفراق. كان زياد وسعاد يحاولان قدر استطاعتهما أن يعيدا الأسرة إلى وضع مستقر يخلو من الألم، أما في خلوتهما فكانا يتناوبان جرعات الألم كوالدين يعرفان معنى أن يعيش طفل بلا والدين.

كان وجوم زياد وسكوته معظم الوقت يقلقان سعاد، وفي إحدى الليالي القريبة من رحيل سامر وسعيد، خاطبت سعاد زوجها بود قائلة:

– زياد، متى ستخرج من حالة الحزن وما فيك من هم؟ جميعنا نعتمد عليك في هذا الأمر، وأنا أكثر واحدة تستمد القوة منك، هذا السكوت يخيفني يا زياد، أعرف تماماً أنك تفكر بأمر ما، وأنتظر منك أن تخبرني به، فلم أعد أطيق الصبر أكثر من ذلك.

نظر إليها زياد بهدوء قبل أن يجيبها قائلاً:

– صدقت يا سعاد، حزني على رحيل سامر وأخيه ليس السبب في صمتي، بل ما حدث مع سامر هو سبب هذا الصمت، سعاد لقد قررت قراراً ولا أظنني أتراجع عنه، سنرحل من لبنان، ليس مهماً بالنسبة إليّ الآن إلى أين، لكني راحل لا محالة، ربما إلى تركيا، أو إلى مصر، وربما هاجرنا إلى أوروبا، لكن الأكيد أني لن أعيش هنا، لا أحتمل فكرة أن يتعرض أحد أبنائي لما تعرض له سامر، أفكر أحياناً بأنه أهون علي أن يموت أحد أبنائي أمام عيني بقصف أو قتل من أن يتعرض للقهر الذي تعرض له سامر. الحياة هنا يا سعاد لن تخلو أبداً من هذه الطائفية، لبنان يعيش هذه الحالة منذ عشرات السنوات، يخبو أثرها أحياناً ثم يعود ليطفو ثانية عند أي هزّة تحدث للمجتمع. هذا ما أؤمن به، وأعرفه من زمن، لكني كنت أغمض عيني عنه وأحاول تجاهله، خاصة وأننا نعيش ضمن مجتمع قريب جداً من مجتمعنا هنا في «طرابلس».

سكت بعدها زياد ليجد سعاد مطرقة للأرض دون أن تبدي أي ملامح على وجهها من موافقة أو رفض أو حتى امتعاض، كان زياد لا يزال ينتظر منها أي رد فعل أو رأي، لم يطل انتظاره، رفعت نظرها إليه وهي تقول بصوت يملؤه الإحباط:

– أحسست بذلك منذ اللحظة التي كان يقص بها سامر لنا ما حدث معه، كنت حينها أراقب تعابير وجهك وأبني عليها توقعاتي للمستقبل. لن أعترض على ما تنوي فعله يا زياد، وأعرف تماماً أنك تفكر دائماً لما فيه مصلحة الأولاد أولاً، لكن ما أرجوه منك أن تجعل آخر الخيارات هو الرحيل للغرب، إن عزمت أمرك، فلتكن مصر هي خيارك الأول، ولنفعل لذلك ما نستطيع. وليختر الله ما فيه الخير.

مرت بعدها عدة أسابيع، وفي أحد الأيام بينما هم يجلسون إلى مائدة العشاء، يلفهم الصمت نفسه الذي اعتادوا عليه بعد غياب سامر وسعيد، إذ بهاتف زياد المحمول يرن على غير العادة في هذا الوقت، نظر إليه زياد بشكل غير مبال، ثم أولاه اهتماماً شديداً قبل أن يجيب المتصل عندما رأى بأنه رقم من سوريا وهو غير مسجل عنده، ما إن أجاب المتصل حتى سكت وخنقته العبرات قبل أن يقول:

– أهلاً وسهلاً بولدي سامر، الحمد لله أنني سمعت صوتك وأنت بخير، أريد أن تطمئنني عنك وعن سعيد.

بعثت هذه الكلمات الحياة في الجميع وكأن أحدهم أعطاهم إكسير الحياة، صرخ أحمد لا إرادياً وهو يقول اسم سعيد، أما فاطمة فاحمر وجهها مع ابتسامة بشكل لا إرادي، أما سعاد فاقتربت من زياد وهي تشير له بأن يضع صوت الهاتف المحمول على مكبر الصوت كي يسمع الجميع المكالمة، أما سامر فقد أجاب زياد قائلاً:

– الحمد لله يا عم، أولاً أنا وسعيد بخير وبفضل من الله، وأعتذر منك على تأخري بالاتصال، لكني لم أشأ أن اتصل بك قبل أن يستقر أمري شيئاً ما، كما أني كنت أريد أن استخرج شريحة باسمي بشكل مباشر، مما يستدعي إحضار ما يثبت هويتي، وأنت تعرف ما تعني هذه الأمور في هذا الوقت، المهم أننا والحمد لله بأتم حال، ولا ينقصنا شيء سوى رؤيتكم والجلوس معكم، سعيد لا يكف عن سؤالي عنكم في كل وقت.

قبل أن يجيب زياد على سامر، قالت سعاد مجيبة بعد أن اغرورقت عيناها بالدموع:

– ونحن أيضاً بأشد الشوق إليكما يا حبيبيي، الجميع هنا يفتقدونكما بشكل كبير، الحمد لله أنكما بخير، أرجوك يا ولدي أن تهتم بأخيك سعيد.

هنا قفز أحمد لجوار أبيه قائلاً:

– سامر، أريد أن أسلم على سعيد أرجوك.

فسمع الجميع سعيد وهو يقول:

– أهلاً يا أحمد، اشتقت إليك جداً، سامر وعدني بأننا سنلتقي مرة أخرى في يوم ما، وسامر لا يخلف وعده مع سعيد أبداً، لذلك أنا منتظر هذا اليوم، فلا تقلق.

هنا لم تستطع فاطمة تمالك نفسها، أجهشت بالبكاء بشكل لا إرادي، اقتربت منها سعاد واحتضنتها كي تسيطر على مشاعرها. بينما أكمل سعيد كلامه قائلاً:

– اشتقت جداً إليك يا ماما سعاد، واشتقت جداً لأختي فاطمة، أنا أحبكم جداً.

عندما سمعت سعاد هذه الكلمات البريئة بصوت سعيد، عضت على إصبعها خوفاً من أن يسمع سعيد صوت بكائها، لم تستطع أن تنطق بعدها بأي كلمة. سمعا صوت سامر وهو يقول بصوت متقطع:

– عمي زياد، هذا الرقم سيكون دائماً معي، احفظه عندك، وسأتواصل معكم من خلاله بشكل دائم إن شاء الله، أرجوك أن لا تفقده، واعذرني فلربما انقطع الاتصال الآن بسبب نفاد الرصيد.

لم يكمل سامر هذه الكلمات حتى انتهت المكالمة. وضع زياد جهازه المحمول بجانبه واستند على الحائط ليعود إلى حالة الوجوم التي كان عليها سابقاً.

استغرق الأمر من زياد عدة أسابيع كي يجهز أمر رحلتهم إلى مصر، واجهته بعض التحديات، أولها دخوله إلى لبنان بشكل غير رسمي، ورفضه أن يسجل معلوماته كلاجئ ضمن المنظمات الرسمية، فوصفه كلاجئ يعتبرها إهانة لا يقبلها. ولا يريد أن يعيش بها أبناؤه لأجل لا يعرفه. فلقد عايش عن قرب محنة الفلسطينيين اللاجئين في الدول العربية، ويعرف تماماً كيف ستصبح حياته ضمن المنظومة العربية إن كان لاجئاً. كان خوفه من أن يكون ختم الدخول الذي ساعده أبو نصري على وضعه على جوازات سفرهم غير قانوني، مما سيجعله في مواجهة خطيرة

أمام الأمن العام اللبناني عند المغادرة، ولكي يتجاوز هذا التحدي عليه أن يتأكد من صحة هذه الأختام والمعلومات التي سُجلت في أنظمة الدولة، أعانه في هذا الأمر العم طوني بمعارفه الكثر. أحس بفرح غامر عندما استلم ورقة مطبوعة من الأنظمة الداخلية تثبت صحة هذه المعلومة، فلقد كان الإحساس بالقهر ما زال يسيطر عليه طوال هذه الفترة. في هذا اليوم عاد إلى بيتهم ودخل على أبنائه مبتسماً، كان أولاده جميعهم قد افتقدوا هذه الابتسامة من أبيهم، جمعهم حوله وخاطبهم قائلاً:

- سأخبركم بأمر جميل يا أحبابي، سننتقل قريباً للعيش في مصر، ما رأيكم؟

كانت ردة فعل أبنائه متباينة، فالصغار منهم لا يدركون تماماً ما الذي سيحدثه هذا القرار من فرق معهم. فقط فاطمة وسعاد من شعرتا بأن هناك تغييراً ما ربما يحدث معهم. عاجلته سعاد بالرد قائلة:

- الحمد لله أن يسر هذا الأمر، أرجو من الله أن يكتب فيه الخير.

استغرق أمر تجهيزهم للسفر إلى مصر بضعة أيام، أنهى فيها كل متعلقاته في لبنان، وحزم ما يستطيع أخذه معهم من ملابس ومؤونة وتوكل على الله.

المعيشة في مصر

ما إن هبطت الطائرة في مطار القاهرة حتى أحس زياد بالراحة والاطمئنان، لم يعرف ما سبب هذا الشعور، فهو لا يعلم ما الذي سيواجهه في الأيام القادمة، لكن ما سمعه من ابن خالته عندما نصحه بضرورة السفر إلى مصر والاستقرار فيها لحين زوال الغمة وهدوء الأوضاع في سوريا كان له أكبر الأثر عليه، فهو يثق تماماً بابن خالته وبآرائه، بدأ ركاب الطائرة بالنزول في مطار القاهرة، وما إن وصلوا إلى منطقة الجوازات حتى سمعوا أحد الضباط يوجه الركاب القادمين من الطائرة على مسارات محددة، وقد خُصص مسار واحد في أقصى الصالة لمن يحملون جوازات سفر سورية، توجه زياد وأولاده يتبعونه حيث أشار لهم الضابط، اصطفوا خلف باقي الركاب بانتظار دورهم كي يختموا جوازات سفرهم إيذاناً لهم بالدخول، عندما وصل الدور لزياد وأبنائه، أخذ الضابط المسؤول جوازاتهم دون أن ينظر إليهم، تصفحها واحداً واحداً على عجل، ثم نظر إلى زياد قائلاً له:

- انتظر على المقاعد الموجودة في آخر الصالة حتى نستدعيك.

أجابه زياد بهدوء:

- حاضر سيدي.

اتجه زياد وأولاده حيث أشار الضابط، جلس على أول مقعد رآه فارغاً وأجلس بجواره زوجته سعاد وبجوارها فاطمة، وأشار إلى هبة وزهرة وأحمد بأن يجلسوا على الأرض أمامهم. فعل الأولاد ما أشار عليهم أبوهم دون أن ينبسوا ببنت شفه. مرت عدة دقائق والصمت يخيم على الجميع، قاطعت سعاد هذا الصمت وهي توجه كلامها لزوجها سائلة:

- ماذا يحدث هنا يا أبا أحمد؟ لِم سحبوا جوازات سفرنا ووضعونا هنا؟ هل تتوقع بأنهم سيطلبون منّا العودة من حيث أتينا؟ هل فهمت من الضابط أي شيء؟

أجابها بتململ:

- لم يقل لي أي شيء سوى أن علينا الانتظار هنا حتى يستدعونا، ولا أتوقع أنهم سيعيدوننا، فلو كان الأمر وارداً لما سمح لنا مطار بيروت بركوب الطائرة، أتوقع أنهم يقومون بإجراءات التحقق الأمنية الروتينية، ولم أسمع خلال الفترة السابقة كلها بأن مصر أعادت أي مسافر سوري وصل لأراضيها، فلا داعي للقلق، علينا أن ننتظر وحسب.

سكتت سعاد، وبدأت بالانشغال مع أولادها بأحاديث عامة. طال بقاؤهم على هذه الحالة هم والعديد من الركاب لما يزيد عن الثلاث ساعات، كانوا يسمعون بين فترة وأخرى أحد العساكر ينادي باسم أحد المنتظرين معهم، فيغيب لبعض الوقت داخل أحد المكاتب ثم يخرج متجهماً أو

مبتسماً إلى الصالات الداخلية للمطار.

سمع بعدها زياد أحد العساكر وهو ينادي على اسمه، هبّ واقفاً وبدأ بإيقاظ أبنائه الذين غفوا في أماكنهم من طول الانتظار، أشار له العسكري بأن يبقيهم على حالهم وأن يأتي لوحده، أشار زياد إلى سعاد بأن توقظ أبناءهما وتستعد للتحرك، واتجه من فوره حيث يقف العسكري الذي استدعاه، ما إن وصل عنده حتى سمعه يقول له:

- اتبعني لمقابلة سيادة الرائد.

أجابه زياد بالإيماء وهو يسير خلفه دون أن ينطق بكلمة، ما إن دخل المكتب المقصود وسلم على الضابط الموجود خلف مكتبه الصغير، حتى أشار له الضابط بالجلوس على الكرسي الوحيد أمام المكتب، جلس زياد وهو ينظر إلى الضابط، والضابط يتصفح جواز سفره ورقة ورقة، ويحاول تفقد أوراق الجواز علّه يكتشف فيها أي شيء مريب. وضع الجواز على مكتبه ونظر إلى زياد بشكل مباشر وهو يسأله:

- ما سبب قدومك إلى مصر يا زياد؟

ارتبك زياد بداية وهو يجيب بتردد:

- لا يخفى على سيادتك سوء الأوضاع التي تمرّ بها سوريا، في بداية الأمر حاولنا العيش في لبنان بعد أن عانينا الأمرين في هروبنا من القصف والموت، لكن الأوضاع في لبنان كانت سيئة جداً بالنسبة إلينا، لم نستطع التأقلم، ولم أستطع إيجاد مصدر رزق مناسب، بالإضافة للاحتقان الدائم الموجود حولنا بسبب الحرب التي تشارك فيها لبنان بطريقة ما.

قاطعه الضابط وهو يقول له:

- لم تجب على سؤالي يا زياد، كل ما تكلمت عنه لا أعتبره جواباً عن سؤالي.

أدرك زياد عندها ما يرمي إليه الضابط من سؤاله، حاول أن يكون مباشراً هذه المرة في جوابه قائلاً:

- سبب قدومي إلى مصر سيادة الرائد، أني أبحث عن الأمان والحياة الكريمة، ولن أجد حضناً أكبر من حضن أم الدنيا، لا أريد أن أكون عالة عليها، لكني أريد أن أعيش بسلام أنا وأبنائي.

ابتسم الضابط لجواب زياد، وسأله ثانية:

- مكتوب في جواز سفرك في خانة المهنة أنك تاجر، ما نوع تجارتك؟ أو ما هي مهنتك السابقة قبل اندلاع الحرب في سوريا؟ وأين سافرت خلال السنوات الخمس الماضية، فجواز سفرك هذا لا يوجد به سوى ختم لدخول الأردن وتركيا.

تلعثم زياد قليلاً قبل أن يجيب:

– نعم سيادة الضابط، أنا فعلاً تاجر، كان لديّ محل صغير لبيع الخزفيات والنحاسيات والأنتيكات في «حمص»، وهذه تجارتنا في العائلة من أجيال، ورثتها عن أبي الذي ورثها عن جدي، أما بالنسبة إلى سفرياتي في السنوات الخمس الماضية فلم تتجاوز لبنان والأردن وتركيا، الأردن ولبنان في الغالب أرسل إليهما بعض البضائع وأتابع بيعها، أما تركيا فأسافر إليها أحياناً لشراء بعض النحاسيات أو الخزفيات.

ابتسم الضابط ابتسامة صغيرة وهو يقول:

– أفهم من هذا أن وضعك المالي جيد جداً!

أطرق زياد للأرض قبل أن يجيب بصوت يملؤه الحزن:

– الحمد لله على كل حال، بإمكانك أن تقول كان وضعي مستوراً، لكن الحرب سيدي قد أكلت كل ما كان عندي، ومعظم ما كنت أحفظه للمستقبل، هي إرادة الله لا اعتراض عليها.

هنا قاطعه الضابط مستغلاً نبرته الحزينة ليسأله:

– هل أفهم منك أنك مع الثورة التي حدثت في سوريا؟

نظر زياد إلى وجه الضابط بشكل مباشر وهو يجيبه:

– وهل كنت لتجدني هنا لو كنت موالياً لهذا النظام المجرم؟ ما يحدث في سوريا لا يمكن وصفه يا سيدي كفاكم الله شرّه، هو نظام قمعي ديكتاتوري يقتل شعبه بدم بارد ليحافظ على ما يعتبره مكاسبه.

سكت بعدها زياد، لم يرد أن يسترسل في هذا الحوار مع الضابط، فهم الضابط موقف زياد فلم يشأ أن يستمر بالحوار معه على نفس النهج تعاطفاً معه، عاد فسأل زياد قائلاً:

– وأين تنوي أن تستقر يا سيد زياد؟ وهل لديك أحد هنا في مصر؟ وكيف ستؤمن مصاريفك ومصاريف أولادك؟ هذا أهم أمر بالنسبة إليّ.

أجابه زياد بهدوء:

– لي ابن خالة يعيش في الخليج، وله بعض الأصدقاء هنا في مصر، وهو من أشار عليّ بالنزوح لمصر حيث يمكنني الاستقرار لحين انتهاء الأزمة في سوريا، وفي أغلب الظن أني سأستقر في مدينة «6 أكتوبر»[22]، أما عن مصروفي، فمعي بعض النقود التي تكفيني عدة أشهر على ما أظن، وخلال هذه الفترة سأعمل على إيجاد مصدر رزق حلال يكفيني أنا وأولادي شر العوز، بالإضافة لابن خالتي الذي أظنه يساعدني إن احتجت لذلك لا سمح الله.

وكأن هذه الإجابات لقيت رضا عند الضابط الذي بدأ بجمع الجوازات والأوراق التي تخص زياد وأولاده، وقدمها له وهو يقول له:

- أهلاً وسهلاً بك يا زياد في مصر، أتمنى أن تجد فيها الأمن والاستقرار الذي تبحث عنه، تفضل بالدخول، ونعتذر عن تأخيرك طوال هذه الفترة، لكن الأمر كما ترى، إجراءات لا بد من القيام بها.

أجابه زياد وهو يأخذ منه جوازات السفر مبتسماً:

- شكراً جزيلاً لك سيادة الرائد.

هم زياد بالخروج من غرفة الضابط، وإذ به يسمع الضابط يناديه باسمه مرة أخرى، توقف عند الباب واستدار عائداً ليسمع الضابط يسأله:

- هل ترغب في التسجيل في المفوضية للاجئين أنت وأهلك، ربما وفروا لكم بعض المعونات؟

أجابه زياد بشكل مباشر:

- إن كان الأمر اختيارياً، فلا رغبة لي بذلك، وهل يعتبر لاجئاً من كان زائراً في بيت أخيه؟

ابتسم الضابط لجوابه ورد قائلاً:

- بالسلامة يا زياد، اسأل الله أن ييسر أمرك.

خرج زياد متهلل الأسارير وتوجه إلى حيث ترك أولاده وزوجته، وجدهم يراقبون الغرفة التي كان فيها منتظرين خروجه، أشار لهم بيده كي يلحقوا به بسرعة، قامت سعاد من فورها من مكانها وهي تساعد أولادها بالتحرك من أماكنهم كي يتبعوا والدهم. استقى الجميع الراحة من ابتسامة زياد، شعر الجميع بأن هناك حياة جميلة بانتظارهم لمجرد رؤيتهم ابتسامة أبيهم التي افتقدوها منذ أكثر من سنتين.

خرج زياد وعائلته من مطار «القاهرة» بعد أن أخذوا حقائبهم وأنهوا إجراءات التفتيش، ما أن لمست أرجلهم الشارع خارج حدود صالة المطار حتى أخذ زياد نفساً عميقاً وابتسامة تشع نوراً تملأ وجهه، نظر إلى سعاد وأبنائه، وما كان منه إلا أن فتح ذراعيه مشيراً للجميع باحتضانه، كانت فاطمة أولى بناته التي ارتمت في حضنه لحقت بها زهرة وهبة وخلفهن أحمد، كانت سعاد تراقب هذا المنظر وعيناها دامعتان، لم تستطع أن تتمالك نفسها وهي تستعيد بعضاً من أهوال ما مرّ بهم سابقاً والإحساس بالأمان الذي يحس به أبناؤها الآن. توجهت ببصرها للسماء وهي تدعو الله بأن يتم عليهم نعمته.

ركب زياد إحدى سيارات الأجرة المتوجهة إلى «الحي السابع» في مدينة «6 أكتوبر» التي تبعد عن مطار القاهرة حوالى الثمانين كلم، كان معه عنوان لأحد أصدقاء ابن خالته الذي أرسله له طالباً منه أن يتوجه إليه فور وصوله القاهرة، وهو من سيتكفل بإيجاد سكن مناسب له.

عند وصوله لمنزل صاحب ابن خالته وكان اسمه حسام، وجد منه ترحيباً شديداً وبغير

تكلف، استضافهم في منزله لعدة ساعات، وبعد أن تعرف إلى عائلة زياد وتناولوا الطعام سوياً، طلب منه زياد أن يساعده في إيجاد مسكن مناسب له ولأولاده بأسرع وقت، وفوجئ حينها زياد بأن حسام وحسب توصية ابن خالته، قد جهّز له مسكناً في نفس المبنى الذي يسكن فيه، كانت شقة صغيرة مكونة من غرفتين وصالة وحمام واحد ومطبخ صغير، كانت هذه الشقة كملحق صغير على السطح في أعلى المبنى المكون من ثلاثة طوابق، سُرَّ زياد جداً لهذا الأمر، لأنه سيشعر بالاستقرار بهذه السرعة، فأشد ما كان يشغل باله في هذه المرحلة هو إيجاد مسكن مناسب. كانت هذه الشقة بالنسبة إلى الأولاد كجنة مقارنة بالمكان الذي كانوا يعيشون فيه في أواخر أيامهم في لبنان، وخاصة أن هذه الشقة لها باب مباشر على سطح المبنى، وكان أحمد أشد الفرحين بهذه الميزة للشقة.

مرّت عدة أيام وزياد يعمل على تأثيث الشقة الجديدة بأبسط الأمور التي تجعل حياتهم أيسر وأسهل، وكان حسام لا يكاد يفارقه مذ عودته من عمله لحين نومهم، في هذه الفترة البسيطة قويت علاقة زياد بحسام بشكل كبير، فحسام لم يألُ جهداً في مساعدة زياد بكل الطرق، عدا عن شخصيته المرحة البسيطة، وثقافته العالية.

بعد مرور أسبوعين من وصول زياد لمصر، وفي جلسة صفاء مع حسام بعد أن أدّيا صلاة الجمعة في جامع الحصري المعروف بنشاط مرتاديه سياسياً واجتماعياً، حيث كانا يتناولان فنجاناً من القهوة على سطح المبنى الذي سكنه زياد، سأل زياد حسام قائلاً:

– حسام، ما رأيك في أنسب عمل من الممكن أن أقوم به وأستطيع من خلاله تأمين رزق جيد لي ولعيالي؟

سكت حسام قليلاً مفكراً قبل أن يجيبه:

– انظر يا زياد، لو طرحت عليّ هذا السؤال قبل عام من الآن لما ترددت لحظة بإجابتك بأن أنجح مشروع يمكنك البدء به مع أعلى الضمانات بالنجاح بعد توفيق الله هو افتتاح مطعم أو كافيتريا صغيرة، فالمأكولات السورية لها سوق رائجة عندنا في مصر، وجميع فئات المجتمع المصري على تقديري يحبون هذه المأكولات، لكني لست متأكداً من هذا الأمر الآن، فكثير ممن جاء واستقر هنا خلال العام الفائت من إخوتنا السوريين توجهوا لهذا المجال كما رأيت بعينك، وبالذات في مدينة «6 أكتوبر» حيث استقر الكثير منهم هنا، وللنجاح في هذا المشروع تحتاج إلى جهد أكبر وتميز في العمل من ناحية الإتقان والسعر، وربما احتاج الأمر منك الكثير من الجهد والوقت كي تستطيع الوصول لما تعتبره نجاحاً في العمل.

أجابه زياد وهو يحك رأسه:

– أتفق معك أخي فيما طرحته، عدا عن كوني شبه معدوم الخبرة في إعداد الطعام، صحيح أن زوجتي أم أحمد يمكنها مساعدتي من بيتها، وبخاصة أنها متميزة في هذا المجال، إلا أني أعتبر هذا الأمر آخر الخيارات أمامي، أتمنى أن أجد ما يناسب خبراتي في بيع وشراء الخزفيات والنحاسيات، أو حتى أي شيء يتعلق في البيع والشراء كالملابس أو الأواني المنزلية. ما رأيك في إمكانية هذا الأمر؟

أجابه حسام:

- أصدقك القول أخي العزيز، في رأيي بأن الدخول في هذا المجال ليس سهلاً على من هم من خارج البلد كحالتك، فالمنافسة في مثل هذه التجارات شديدة، وهناك تجّار كبار يسيطرون على هذه الأسواق، بالإضافة إلى حاجتك لدعم مادي كبير قد يكلفك صرف كل ما قمت بتوفيره في حياتك مع ضمانات ضعيفة للنجاح لا تتناسب مع المخاطر إطلاقاً، لكن ربما كان هناك فرصة بأن تجد مكاناً مناسباً تعمل فيه كبائع عند أحد التجار، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن مثل هذه المهن ذات دخل محدود نوعاً ما، إن رأيت هذا الخيار مناسباً لك فسأحاول مساعدتك من خلال معارفي من تجار، لعلّي أجد لك مكاناً مناسباً. ما رأيك؟

أطرق زياد مفكراً بعض الشيء قبل أن يجيبه:

- أراه الحل الأنسب في هذه المرحلة حتى أعرف أكثر عن البلد وأتأقلم مع سوقها، وربما استقر أمري في هذا العمل إن وجدت أنه يغطي تكاليف معيشتي.

سكت زياد قليلاً قبل أن يكمل كلامه بصوت خافت خجل:

- جزاك الله خيراً يا أخي، لا أدري كيف سأردّ لك معروفك في كل هذه الأمور التي تقوم بها لمساعدتي، لا أستطيع سوى أن أقول: كتب الله أجرك.

قاطعه حسام مبتسماً:

- لا عليك يا أخي، هل تبخل عليّ بالأجر، لم أفعل إلا ما أمرني به ربـي، وتحتّمه عليّ أخوتنا.

لم يمرّ سوى أسبوع واحد، إلا وكان حسام قد وجد مكاناً مناسباً لزياد ليعمل فيه كبائع، كان محلاً لبيع ألعاب الأطفال، يملكه رجل كبير في السن يعرفه حسام، كان المحل قريباً من الميدان الذي يوجد عند إحدى زواياه جامع الحصري، استبشر زياد خيراً بهذا الأمر، فمسألة إيجاد مصدر رزق خلال فترة بسيطة ليس بالأمر الهين في مثل هذه الأوقات والظروف، رافق حسام زياد في أول مشوار له إلى المحل المعني ليُعرّفه على صاحبه الحاج أبـي حاتم، ما أن وصلا للمحل ودخلاه حتى بادر حسام الحاج أبـي حاتم بالسلام والذي بدا أنه كان بانتظارهما، رحّب بهما الحاج أبو حاتم باشّاً قائلاً:

- أهلاً وسهلا بالشباب، أهلاً بولديّ زياد وحسام.

ارتاح زياد من هذا الترحيب وهذا الصفاء الذي رآه على وجه الحاج أبـي حاتم، ردّ عليه ماداً له يده مصافحاً:

- أهلا بك يا حاج أبا حاتم، أول الأمر، أشكرك جزيل الشكر على استقبالنا وعلى منحي فرصة العمل لديكم، كتبها الله في ميزان حسناتك.

تدخل حسام بهذا الحديث السريع موجهاً كلامه للحاج أبـي حاتم:

– أكرمك الله يا حاج، لا تعرف مدى فرح صديقي زياد عندما أخبرته بأن هناك فرصة عمل كبائع عندك، فأنت أعلم الناس بوضع إخواننا السوريين الذين هربوا من جحيم الحرب في بلدهم باحثين عن شيء من الأمان والعيش بكرامة في أي بلد يستقبلهم، وما عرفته عن زياد من معاشرتي له خلال الفترة الماضية البسيطة، يجعلني أزكّيه أمامك وأنا مرتاح البال.

نظر إليهما الحاج أبو حاتم نظرة مبتسمة بسيطة وهو يجيب:

– على الرحب والسعة، ولم أفعل أي أمر أستحق الشكر عليه، فزياد سيعمل بمقابل مادي، وسيكون حقه. ومن أقدار الله أنه كان يعمل عندي شاب سوري أيضاً خلال العام المنصرم، لكنه قرر الهجرة للغرب بعد أن استطاع أن يوفر مبلغاً يكفيه لدفع مصاريف رحلته، وكنت أبحث عمن يشغل محله خلال الأيام السابقة، وعندما سألني حسام عن إيجاد عمل لك يا زياد عند أحد معارفي، وجدتها فرصة سيقت لي سوقاً، ففعلياً أنا الذي بحاجة إلى زياد وليس هو، فأهلاً وسهلاً بك يا ولدي، أسأل الله أن يكون عملك معي مفيداً لي ولك.

شكر حسام الحاج أبا حاتم على كرم ترحيبه وهو يهم بالخروج قائلاً:

– شكر الله أفضالك يا حاج، اسمح لي بالانصراف لأعمالي، ولأترككما كي تباشرا أعمالكما.

انصرف حسام بعد أن سلّم على زياد والحاج أبـي حاتم، وبقي زياد ينظر إلى الحاج كي يبدأه الحديث ليتفقا على العمل بينهما. بدأ أبو حاتم حديثه قائلاً:

– أخي زياد، ما سأقوله لك الآن سيكون عقد عمل يحاسبنا الله عليه، وهو اتفاق ملزم لكلينا، وقد حضّرت عقداً مكتوباً يحفظ حقوق كلينا، لكن هناك أمور ومفاهيم وقيم لا تذكر في العقود عادة هي ما أحب أن أحدثك عنه الآن.

أجابه زياد باهتمام:

– وأنا على استعداد تام، تفضل يا حاج.

أكمل الحاج حديثه قائلاً:

– أولاً يا ولدي، أساس العمل بيننا هو مخافة الله، في ما يتعلق بما هو قائم بيننا، وأيضاً في ما يتعلق في التعامل مع الزبائن. ثانياً ركيزتنا في العمل «من غشنا فليس منا». وثالثاً شعارنا في العمل سيكون «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى».

توقف عندها الحاج عن الكلام ليراقب أثر كلامه على زياد، أكمل بعدها كلامه بعد أن وجد الاهتمام بادياً على وجه زياد قائلاً:

– علمت من حسام أنك كنت تعمل في تجارتك الخاصة في سوريا، وهذه ميزة ستريحني كثيراً في مسألة توجيهك إلى كيفية البيع والتعامل مع الزبائن. ما يهمني هو ما قلته لك أولاً، أما من ناحية المحل، فأريدك أن تعتبره محلك الخاص، لك حرية التصرف فيه بما تجده

الأنسب، لأنك ستكون المسؤول كلياً عنه، فأنا من النادر أن أجد عندي وقتاً كي أتابعه، وسيكون لنا لقاء أسبوعي تقريباً كي نراجع سوياً ما بيع وما قد نحتاجه من بضائع، ومع هذا أرجو منك أن نتشاور في التغييرات التي قد ترغب في عملها على عرض البضائع، على الأقل في المرحلة الأولى حتى أفيدك بخبرتي في الأمر، جميع القطع هنا عليها سعر البيع، ولك مساحة للتخفيض بنسبة لا تتجاوز العشرة بالمائة إن وجدت الأمر يستحق ذلك، مع أن زبائن المحل يعرفون بأن أسعار القطع المكتوبة عليها هي سعر البيع، ومن النادر أن يطلب أحدهم تخفيضاً على القطع إلا إن كانت زيارته لمحلنا هي الأولى. سأعطيك مفاتيح المحل، وعادة ما نقوم بفتح المحل في تمام الساعة التاسعة صباحاً، وحتى الساعة العاشرة ليلاً، يتخللها ساعتان لراحتك من الساعة الثانية وحتى الرابعة. أما يوم الجمعة، فيكفي أن تقف في المحل من بعد صلاة العصر وحتى صلاة العشاء. وسأعطيك مقابل هذا العمل ألف جنيه شهرياً. هذا ما لدي الآن، ما رأيك يا ولدي؟

ابتسم زياد وهو يجيب الحاج قائلا:

– موافق على كل ما تفضلت به يا حاج، مع تخوفي من هذه المسؤولية التي ترميها على عاتقي، فالمحل كبير ما شاء الله، وهو مليء بالبضائع، أرجو من الله أن يوفقني على ما يريحك في عملي معك، ولكن اسمح لي يا حاج، لديّ استفسار أو لنقل إنه طلب، ألا يوجد قائمة بالموجودات أو قائمة جرد للبضائع حتى أستلمها منك بشكل رسمي، كما أني حريص على توقيع عقد رسمي معكم لحفظ الحقوق لكلينا.

ابتسم الحاج حاتم لطلب زياد وهو يُخرِج ورقة من المكتب الذي يجلس خلفه مجيباً زياد:

– بالنسبة إلى العقد فهو جاهز عندي، اقرأه على مهل ووقعه عندما تكون مرتاحاً لما فيه، وإن كان لديك أي ملاحظات على بنوده فلا بأس بمناقشتها، أما ما يتعلق بالجرد فسأترك لك هذا الأمر، ولست حريصاً عليه، فما سيكون بيننا أكبر وأشد ثقة من الجرد. والآن تستطيع أن تحدد الوقت الذي ترغب البدء به.

أخذ زياد الأوراق من الحاج أبـي حاتم وهو يجيبه:

– اسمح لي أن أبدأ من صباح الغد، فأنا بحاجة لتلبية بعض متطلبات المنزل اليوم، وحقيقة لم أخبر أهل بيتي بموضوع إيجاد عمل لي، فلا أريد أن أخلق عندهم آمالاً قبل أن أكون متأكداً من تحقيقها بعد توفيق الله، فما مررنا به سابقاً جعلني حريصاً جداً على هذا الأمر.

أجابه الحاج أبو حاتم:

– توكل على الله، سيكون أول يوم عمل لك الغد بإذن الله، وهناك أمر أخير أريد أن أطلبه منك، وهو أمانة أحاسبك عليها أمام الله، الأجر الذي فرضته لك مقابل عملك لن يكون هو العامل الوحيد لتحديد دخلك، فلربما استطعت أن أشاركك بشيء من الأرباح إن زاد البيع بحول الله، وسنترك هذا الأمر لتحديده لاحقاً، لكن ما أطلبه منك، أن أكون أنا من تلجأ إليه بعد الله في حال احتجت لأي أمر يمكن أن يُقضى بالمادة أو بغيرها، فهذا حق لك علينا هنا في مصر. ولا أحب ألاّ أؤدي ما عليّ من حقوق. هل فهمت يا ولدي؟

وقف زياد وقد احتقن وجهه لفرط التأثر بكلام الحاج أبـي حاتم وهو يحاول تمالك نفسه من شدة التأثر، مد يده مودعاً الحاج أبا حاتم وهو يقول له:

- بإذن الله، جُزيت خيراً على ذلك الصنيع.

خرج زياد من المحل الذي سيعمل به عائداً لبيته وعينه ترتفع في كل لحظة للسماء شاكراً الله على أن يسّر له هذا العمل راجياً إياه التوفيق، ما إن وصل لبيته حتى نادى على زوجته وأولاده ليبشرهم بنبأ عمله الجديد، فرح الجميع أيما فرح لهذا النبأ، وكان أكثر المعبرين عن هذا الفرح ابنه أحمد الذي اعتبر بأنه مقبل على كم من السعادة لا توصف لأن أباه يعمل في محل ألعاب أطفال، وبدأ بطرح أفكار عن مشاركة أبيه في العمل والذهاب معه لمساعدته في عمله الجديد، أما سعاد فكانت تشعر بالراحة والطمأنينة التي استقتها من طريقة زياد في الكلام معهم.

قضى زياد الأسابيع الأولى في عمله مرتاحاً نشطاً جاداً في عمله، وبدأ يشعر بالاستقرار بعد أن يسّر له الله أمر تسجيل أبنائه جميعهم في مدارس قريبة من المنزل، وبدأ يتأقلم مع بيئته والمجتمع الذي يحيط فيه، كما أخذت علاقته مع بعض جيرانه في العمل والمنزل تأخذ شكلاً من الصداقة والأخوة، ونفس الأمر انطبق على زوجته وأبنائه الذين صار لهم عدد من الصداقات مع نساء وأبناء الجيران. أما في ما يتعلق بالمحل، فقد قام زياد بإعادة ترتيبه بالكامل بشكل أنيق جاذب، وأصبح هناك عدد من الزبائن الذين صاروا يحضرون إلى محل زياد لتسلية أبنائهم بالألعاب البسيطة المجانية التي كان زياد يسمح لهم باللعب فيها لبعض الوقت، وكان الحاج أبو حاتم يراقب عمل زياد بسعادة وقبول.

كانت هذه الفترة كافية لزياد ليبني تصوراً عاماً عن شخصية الحاج أبـي حاتم وعن تعامله مع محيطه ومكانته بين الناس، فهو رجلُ خيرٍ بمعنى الكلمة، يقصده الكثير لسدّ عوزهم وقضاء حوائجهم، ولم يكن لدى الحاج أبـي حاتم سوى ابنة واحدة في مقتبل العمر، يعيش حياته في خدمة من حوله.

في مساء أحد أيام الجمعة التي كان يقضيها زياد غالباً مع صديقه حسام يتسامران على سطح منزلهم، سأل زياد حسام قائلاً:

- حسام، حسب معرفتك بالحاج أبـي حاتم، هل الحاج يدير جمعية خيرية؟ الفترة التي قضيتها في المحل وما رأيته من طريقته في الصرف وبذل الخير يجعلني مستغرباً كيف يمكنه أن يوفر كل هذه المبالغ التي يعطيها للمحتاجين، بالإضافة لما رأيته من بعض الذين يراجعونه في حوائجهم، فهم يعرفون موعد وجوده في المحل، ويطرحون حوائجهم في بعض الأحيان وكأنه ملزم بقضائها.

ابتسم حسام قبل أن يجيب زياد قائلاً:

- نعم، صدقت، هو ما تقول بالضبط، فالحاج يدير إحدى الجمعيات الخيرية التي تُعنى بأهل الحي، وكثير من المحسنين أيضاً يعطونه صدقاتهم وزكواتهم كي يصرفها بطريقته في أوجه الخير، أستطيع أن أقول لك إن هذه الناحية تميزت بها جماعة «الإخوان المسلمين»[23]،

ولا يستطيع أحد أن ينكرها.

وجم زياد قليلاً قبل أن يجيب حسام:

– ماذا تقول؟ جماعة الإخوان المسلمين، وما علاقتهم بالحاج أبـي حاتم؟ هل تقصد بأن الحاج من الجماعة؟

استغرب حسام من سؤال زياد ووجومه من حديثه قائلاً:

– نعم، هو من أعضاء جماعة الإخوان، لكن لِم هذا الوجوم البادي على وجهك؟ ها هم الآن وصلوا لسدة الحكم، أم أنك لا تعرف هذه أيضاً؟

سكت زياد قليلاً قبل أن يجيب:

– بل أعرف هذا الأمر، لكن لم أتوقع أن يأتي يوم أتعامل مع أحدهم بشكل مباشر، ولا يعنيني هذا الأمر، لكني وبصدق يا حسام لا أدري لم أحسست بهذا الاضطراب عندما أخبرتني بهذا الأمر.

قال له حسام مستفسراً:

– لا أظن أن هناك أي سبب يجعلك تضطرب بهذه الطريقة، هل يمكن أن تخبرني ماذا تعرف عنهم، أو ما رأيك بهم؟

سكت زياد لبعض الوقت قبل أن يجيب:

– حقيقة لا أدري عنهم أي شيء، لكني عشت عمري في سوريا وليس هناك سوى عبارة واحدة مرسومة في ذهني «عهدنا أن نتصدى للإمبريالية والصهيونية والرجعية ونسحق أداتهم المجرمة، عصابة الإخوان المسلمين العميلة» العبارة التي كنا نرددها في التحية المدرسية الصباحية بشكل يومي في كل المراحل الدراسية، وبعد الثورة السورية كان ذكرهم يتردد أحياناً أمامي لانتماء أحد الفصائل إليهم، عدا عن ذلك لا أزعم بأني أعرف عنهم أي شيء، وبالأحرى لم يكن بالإمكان أن أعرف عنهم أي شيء، فهناك قانون منصوص عليه في الدستور السوري بحكم الإعدام لكل من ينتمي لهذه الجماعة من بعد الأحداث الدامية بداية الثمانينيات في «مجزرة حماة»[24]، وهذا وحده كان كفيلاً لأي سوري يعيش في سوريا بألا يحاول أن يعرف عنهم أي شيء سوى الخوف.

حافظ حسام على ابتسامته وهو يجيبه:

– والآن، ها أنت تتعامل مع أحدهم، وأتوقع ما يحدث في سوريا وموقف النظام المجرم منهم كفيل بأن يجعل لهم صورة إيجابية عندك.

قاطعه زياد وهو يقول بشيء من الجدية:

– حقيقة يا حسام، لست حريصاً على أي شيء في هذه المرحلة إلا تأمين الراحة والاستقرار لأولادي، وإن كان تعاملي معهم سيكون عائقاً لتحقيق هذا الهدف فمن الأكيد أني سأتجنبه قدر الإمكان، أنا الآن يا زياد في غربة، ولن أخوض في أي أمر يعرضني لأي مخاطرة، يكفي ما عانى منه أولادي وزوجتي من ظروف ليس لهم فيها أي ذنب.

ضحك حسام وهو يهم بالوقوف قائلاً:

– إذاً ستكون من «حزب الكنبة»[25]، ولكن أقول لك لا داعي لهذا القلق، فالأمور الآن مختلفة وها هم وصلوا للحكم هنا في مصر، صحيح أنهم يواجهون الكثير من التحديات يومياً، لكنهم وصلوا.

جلس زياد وحده بعد أن ودّع حسام، أخذ يعيد التفكير في كل ما سمع، ولا يدري من أين تسرب له هذا الإحساس بالقلق، تفكيره فيما قد تؤول إليه الأمور في حال حصل نزاع حقيقي بين المتنافسين على الحكم في مصر، هل من الممكن أن تتكرر مأساة سوريا في مصر؟ بمجرد أن خطرت له هذه الفكرة أحس بوخزة في صدره، فهو من عاش تفاصيل الظلم والقتل الذي يحدث في سوريا، ويعي تماماً نتائجه.

في إحدى الليالي، كان يجلس زياد مع أسرته على العشاء كعادتهم، ويتجاذبون أطراف الحديث حول أمورهم اليومية، إذ بفاطمة تسأل أباها بشكل مفاجئ:

– أب.ي، هل لديك أي خبر عن سامر وسعيد، هل تواصلت مع سامر أو سألت عنه؟

تبسم زياد قبل أن يجيبها:

– لا يا ابنتي، لم أتصل به، لقد غفلت عنهما تماماً، أشكرك أنك نبهتني لضرورة السؤال عن أحوالهما، أرجو أن يكون سامر قد احتفظ برقمه ولم يغيره، سأتصل به بعد الانتهاء من العشاء.

تبسمت فاطمة وهي تنظر إلى أمها بخجل. بعد أن أنهى الجميع عشاءهم جلس زياد في مكانه المعتاد، وانتبه بأن فاطمة تراقبه بشكل خفي علّها تسمع ما سيدور بينه وبين سامر إن اتصل به، لم يطل انتظارها حيث سمعت أبيها يناديها قائلاً:

– تعالي يا فاطمة، سأتصل الآن بسامر، أرجو من الله أن يجيب على اتصالنا.

جلست فاطمة بجوار أبيها، وكذا فعلت كل من هبة وسعاد، أخذ زياد يبحث في جهازه المحمول بعض الوقت، ثم اتصل واضعاً الصوت على المكبر، وبعد أن سمع الهاتف يرن عدة مرات، استبشر خيراً، ولكن دون أن يجيب أي أحد من الطرف الآخر لحين انتهاء الاتصال، أعاد الكرة مرة أخرى، وبعد عدة مرات سمع صوت سامر في الطرف الآخر يجيب بصوت نعس، فقال له زياد:

– ألو، نعم يا ولدي يا سامر، أنا عمك زياد أكلمك من مصر، كيف حالك وحال أخيك

سعيد؟

دبت الحياة في صوت سامر وهو يجيب:

- عمي زياد، أهلاً أهلاً، كم اشتقت إليك والى الجميع، فاطمة وخالتي سعاد والجميع، سعيد يسألني عنكم دائماً وبشكل يومي، وكنت دائماً أُخبره أنكم بخير، لكن ظروفكم تمنعكم من السؤال عنا. طمأني عنكم يا عمي.

أجابه زياد ضاحكاً:

- نحن بخير يا ولدي، والجميع يقرؤنكما السلام أنت وسعيد، وكلنا بشوق شديد لكما، وننتظر الفرج من عند الله كي نجتمع مرة أخرى في الشام، أمورنا والحمد لله بأتم فضل من الله، أريد أن أعرف منك عن وضعكما أنت وسعيد، وهل تحتاجان لأي أمر؟ أعطني تفاصيل وضعكما ولا تُغفل شيئا.

أجاب سامر بشيء من الجدية:

- لا عليك يا عمي، لا تقلق علينا، فنحن بأتم فضل من الله، الحمد لله نحن مستقران في دمشق، وأنا الآن أعزف على الأكورديون في ساحاتها، وأحصل والحمد لله على مبلغ جيد يكفيني أنا وسعيد شر الحاجة، وقد استأجرنا غرفة ننام فيها، ألم أقل لك بأن الله قد أنعم علينا من فضله.

ابتسم زياد حابساً دموعاً بدأت تتشكل في عينيه من جواب سامر وهو يرد عليه:

- الحمد لله على فضله، ها هي فاطمة تريد أن تسلم عليك يا ولدي.

سكت الجميع بعد أن أعطى زياد الهاتف المحمول لفاطمة كي تسلم على سامر، استمر هذا الصمت لثوانٍ قبل أن يسمع الجميع صوت سامر يقول:

- ألو، فاطمة، ألو، السلام عليكم.

ردت فاطمة بصوت متقطع:

- وعليكم السلام، كيف حالك يا سامر، وحال سعيد.

سكتت بعدها دون أن تنطق بأي كلمة، سمعت سامر يقول:

- الحمد لله نحن بخير، أنا وسعيد نشتاق لكم جداً، نشتاق لك جداً يا فاطمة.

عند هذه اللحظة لم تعد فاطمة تتمالك نفسها، أجهشت بالبكاء وهربت إلى غرفتها بعد أن رمت الجهاز في أحضان أبيها، أخذت سعاد الهاتف وأكملت مع سامر محادثتها قائلة:

- أهلاً يا ولدي يا سامر، لا تقلق على فاطمة، فأنت تعرف كم تحبكما أنت وسعيد،

أمورنا كلها بخير، أرجو من الله أن ينعم عليكما من فضله، وأعرف أنك رجل وتستطيع الصمود ومجابهة التحديات مهما كانت كبيرة، حفظك الله يا ولدي.

أجابها سامر وصوت سعيد بجواره:

– أشكرك يا خالة، كنت ولا تزالين في مقام والدتي التي فقدناها. أرجوكم أن لا تنسونا، أما نحن، فسنحتفظ برقمكم حتى نسأل عنكم بين الحين والآخر، ورقمي هذا لن أتخلى عنه مهما كانت الظروف.

انتهت المكالمة، وقد شحنت العواطف عند الجميع بعشرات الذكريات، للحظة تمنى زياد أنه لم يجرِ هذه المكالمة لما أعادت من آلام، لكنه حمد الله على أن سامر وسعيد ما زالا يقاومان قسوة الحياة.

كانت عدة أشهر هي ما فصلت بين وصول زياد وعائلته إلى مصر وبين سقوط الحكم في مصر، كان زياد يعاصر الأحداث أسبوعياً بحكم تواجده في المحل وسط أكثر الميادين نشاطاً من حيث المظاهرات في مدينة «6 أكتوبر»، كان ينأى بنفسه عن أي مشاركة أو حتى متابعة لما يحدث، حتى أنه كان يغلق المحل في بعض الأحيان عندما يرى أن هناك احتمالاً لحدوث عنف.

بعد أن سمع بسقوط الحكم، اجتاحته حالة من الرعب. حتى أن زوجته التي كانت تراقب معه التلفاز وهو يستمع إلى البيان الذي كان نقطة التحول، أصابها القلق لما رأته من وجوم على وجهه، سمعته يتحوقل ويدعو الله أن يلطف بهم وبالمسلمين. قاطعت وجومه قائلة:

– ما بالك يا أبا أحمد، لم كل هذا القلق؟

نظر إليها وعلامات الخوف على وجهه لا تخفى على أحد، سكت قليلاً ثم أجابها مع تنهيدة:

– ألم تسمعي ما سمعت؟ لقد تدخل الجيش المصري في الحكم، هذا يعني أن هناك مواجهات بينه وبين الشعب ستحدث عمّا قريب، وهذا يعني قتلاً وتشريداً، وصورة من صور القمع الذي عشناه في سوريا، اللهم ألطف بعبادك.

فزعت سعاد مما قاله زياد، أجابته والخوف قد بدأ يظهر في كلماتها:

– لكن يا زياد الوضع هنا مختلف، فأولاً لا يوجد طوائف ومذاهب دينية تتصارع على السلطة في مصر، ثم ما لنا ولكل ما يحدث هنا، نحن بعيدون تماماً عما يحدث، لِمَ كل هذا الخوف؟

أجابها وهو شارد الذهن وكأنه يكلم نفسه:

– كم سهل ما تقولين لو فكرنا فيه بهذه البساطة، لكن الواقع يقول إن الغد سيكون مختلفاً تماماً عما قبله، وأغلب الظن بأن أول ما سيفعله العسكر بأن يعملوا على قمع منافسهم الذي أسقطوه بقوتهم. لا أريد أن أفكر، فقط أرجو من الله أن يلطف بعباده.

تسارعت الأحداث بعد هذا اليوم بما كان يخشاه زياد، صار اهتمامه بمتابعة الأخبار أكثر بكثير، كان يبحث في كل خبر يسمعه عن أثره عليهم هو وأبنائه، وعن وضع السوريين في مصر، كان يسمع بوجل أخبار الاعتقالات التي طالت كل من ينتمي لجماعة الإخوان المسلمين، وكان خوفه يزداد يوماً بعد يوم كونه يعمل عند الحاج أبـي حاتم الذي ينتمي إليهم.

في يوم من الأيام، كان يجلس فيه مع الحاج أبـي حاتم في المحل، كان ساكتاً مطرق الرأس، قطع هذا السكوت صوت أبـي حاتم الذي تكلم كعادته بكل هدوء وهو يخاطب زياد قائلاً:

– زياد يا ولدي، يبدو أن الله اختارنا للابتلاء والامتحان، وأنا على أتم الاستعداد لهذا الابتلاء، بل وأحمد الله عليه، لأن الله إذا أحب عبده ابتلاه، ما أريد قوله لك يا ولدي، بأني أتوقع بأن يتم القبض عليّ في وقت قريب، لربما استطعت الخروج من البلد قبل ذلك، لكني غير متأكد من ذلك، فلو حدث أي من الأمرين فأريد أن أستأمنك على هذا المحل وما فيه، فإن قبلت هذه الأمانة فسأكون شاكراً وممتناً لك كل الامتنان، وما عليك سوى إعطاء زوجتي الحاجة أم حاتم ما يخرج من رزق، واطلب منها ما شئت من مبالغ إن احتجت شراء بضائع. فهل تقبل ذلك يا ولدي؟

سكت قليلاً زياد قبل أن يجيبه وقد احمر وجهه من وقع الكلام عليه:

– هذا حق لك عليّ يا حاج، لكني أرجو الله أن لا يحيجك لهذا.

سكت الحاج قليلاً مفكراً قبل أن يكمل حديثه:

– هذا أمر سيحدث لا محالة كما أرى بعد مشيئة الله. فالحمد لله على كل حال، وأريد أن أضيف أمراً آخر يا زياد، لك أن تأخذ ما يكفيك دون الرجوع لأحد، فأنا استأمنتك على كل شيء في هذا المحل بما فيه راتبك وكل ما تحتاج إليه، وإن ضاقت عليك الدنيا فلك أن تأخذ من دخل المحل ما يفك ضيقتك، كل ما أرجوه منك أن تخبر الحاجة أم حاتم عن الأمر، ولن تراجعك بأي شيء أبداً.

قال زياد راداً عليه باضطراب:

– لا تقل ذلك يا حاج، فكلامك يرعبني بحق، فوجودي بجوارك يعطيني إحساساً بالأمان لا يوازيه إحساس.

ردّ عليه الحاج بنفس هدوئه قائلاً:

– بل الأمان بالله يا ولدي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

كان هذا اللقاء هو الأخير بين زياد والحاج أبـي حاتم، فلقد علم زياد من صديقه حسام بأنه تم القبض على الحاج بتهمة العمل على قلب نظام الحكم. كان الخبر صاعقاً مع توقعه بالنسبة إلى زياد، فهذا يعني تحمله لمسؤولية المحل، عدا عن إمكانية تعرضه لمخاطر القبض عليه أو مساءلته كونه يعمل عند الحاج.

مع تسارع الأحداث بشكل يومي، بدأ يسمع زياد عن تغير في تعامل الحكومة المصرية

مع السوريين، كان أول الأمور أن منع السوريين من دخول مصر من غير الحصول على تأشيرة دخول مسبقة من ممثليات مصر في دول العالم، ثم بدأ يسمع عن بعض الاعتقالات التي طالت السوريين بحجة مشاركتهم في المظاهرات، في هذه الفترة حدث انقطاع بينه وبين صديقه حسام، كان يعتقد بأنه هو السبب في هذا الانقطاع لعدم سؤاله عن صاحبه، لكنه علم من زوجته سعاد بعد فترة بأن حسام معتصم في القاهرة مع المعتصمين في «ميدان رابعة العدوية»[26] حسب ما قالته لها زوجة حسام، عندما علم بالأمر زاد إحساسه بعدم الأمان، فبعد أن فقد الحاج أبـي حاتم، ها هو ينتظر فقدان حسام.

كان يوم فض الاعتصام في ميدان رابعة يوماً حزيناً مؤلماً، فما تناقلته بعض قنوات الأخبار من مناظر للقتلى وللدماء المتناثرة على الطرقات كان له أشد الأثر في زياد وعائلته، فلقد أعادت لهم أشد الذكريات ألماً، أحيت فيهم كل الآلام والأوجاع التي طالما عملوا على نسيانها. في هذه الليلة بالذات قال زياد لزوجته بصوت يملؤه اليأس:

– ها هي الدماء بدأت تروي الأرض في مصر، هذه ستكون نقطة تحول لما يحدث في مصر، ولا تراجع بعدها، فالدماء لا تسقط بالتقادم.

أجابته سعاد بوجل:

– وهل سيطولنا من هذه الدماء شيء؟

فأجابها بتردد:

– لا أتوقع ذلك، لكن الأمر سيكون بالتأكيد أسوأ بكل المقاييس. أرجو أن تنتبهي لأمر مهم جداً، احرصي على أن تنبهي الأولاد بشكل دائم على عدم الخوض بأي حديث عما يدور في مصر بينهم وبين زملائهم أو أبناء الجيران، وتحت أي ظرف أو ضغط. نحن الآن في أضعف وضع، ومن الممكن أن نتعرض للإبعاد لمجرد كلمة قد يقولها أحد أبنائنا دون قصد. اجعلي هذا الأمر نصب عينيك دائماً.

أومأت له بالإيجاب، وبقي كل منهما غائباً في عالمه الخاص.

بعد يومين من فض اعتصام رابعة، وبينما كان زياد عائداً إلى بيته، إذ به يلمح تجمّعاً حول العمارة التي يسكن فيها، بدأ يسمع أصوات بكاء وعويل يزداد كلما اقترب من بيته، أخذت نبضات قلبه تتسارع، وتتسارع معها خطواته، حتى بات مشيه هرولة، ومع وصوله إلى العمارة بدأ باختراق الحشود وهو يقفز قفزاً باتجاه بيته دون أن يتبين شيئاً مما يسمعه أو يراه، ما أن وصل لبيته ودخل حتى ارتاح قلبه عندما رأى أبناءه جميعهم أمامه يحيطون بأمهم. أغلق باب منزلهم وهو يسأل سعاد بقلق:

– خير إن شاء الله يا سعاد، هل تبينت سبب هذا الضجيج عند جيراننا؟

أجابته سعاد وهي تبكي:

– لقد مات حسام في فض ميدان رابعة بطلق ناري، وزوجته منهارة.

وجم زياد عند سماع الخبر، أخذ ينقل بصره بين أبنائه وقد غدا وجهه بلا دماء، لم يعد يحتمل رؤية الخوف في أعين أبنائه، عندما التقت عيناه بعيني ابنته فاطمة أحس بوخزة في قلبه، فهو يعرف تماماً هذه النظرة، نظرة خوف ويأس، كم تثقل كاهله هذه النظرات، كانت الدموع تملأ وجوه الجميع، اقترب منهم زياد وجلس بينهم واحتضنهم جميعاً محاولاً طمأنتهم، أخذ يهمس لهم محاولاً أن يتمالك نفسه:

– ادعوا للعم حسام بالرحمة والمغفرة يا أبنائي، فهذا ما ينفعه الآن، رحمه الله فلقد كان خير صديق.

قاطعه أحمد مستفسراً ببراءة:

– أبـي، هل ستقوم الحرب هنا في مصر كما حدث عندنا في سوريا؟

احتضنه زياد دون إخوته وهو يقول له:

– لا يا ولدي، ندعو الله ألا يحدث ذلك، لا تخف من شيء، فأنت في أمان هنا في البيت وفي المدرسة أيضاً. لا تفكر بهذا الأمر مطلقاً.

فأجابه أحمد على الفور:

– إذاً لماذا مات العم حسام، لقد كنت أحبه جداً. لقد سمعت زوجته وهي تصرخ بأن العسكر قتلوه.

فقال له زياد وهو يقبله على جبينه:

– لا يصح أن تقول ذلك يا أحمد، هذا قضاء الله، وهذا قدره، لا تفكر في الأمر يا حبيبـي، ولا تذكره أمام أحد من أصحابك، ما عليك قوله فقط، رحمك الله يا عم حسام.

توجه بعدها زياد إلى فاطمة وهو ما زال يرى نظرة الخوف في عينيها، احتضنها إلى صدره وهو يهمس في أذنها وكأنه لا يريد من البقية أن يسمعوا ما يهمس لها به:

– فاطمة يا ابنتي، ليس من المقبول أن تجزعي بهذا الشكل، ألا تؤمنين بالله وبأقداره وبلطفه، الحمد لله أن أوضاعنا هنا في مصر جيدة جداً، ونعيش بأمان وطمأنينة، ما حدث للعم حسام هو أمر مقدّر، عليك أن تكوني أقوى من ذلك وأصلب، فإخوتك يستمدون القوة منك يا ابنتي.

أزاحت فاطمة برأسها قليلاً عن صدر أبيها ونظرت إلى عينيه مباشرة وسألته وصوتها يملؤه الخوف والرجاء:

– هل حقاً يا أبـي ما زلنا نعيش بأمان هنا؟ كل ما أسمعه وأراه في الفترة الأخيرة لا

يوحي بذلك، وخبر استشهاد العم حسام حسم المسألة بالنسبة إليّ، ستتكرر مآسينا وخوفنا يا أب.ي، وأنا بت عاجزة عن الإحساس بالأمان.

وضع يده على رأسها وأعاده إلى صدره ورفع صوته قليلاً وهو يجيبها وكأنه يريد أن يسمع البقية ما يقول:

– أؤكد لك يا ابنتي أننا في أمان، ولتعلمي بأني لن أرضى بأن أبقيكم تحت أي ضغط، فإن وجدت بأن الأوضاع لن تكون مريحة لكم هنا، أعدكم بأننا نرحل إلى أي مكان تجدون فيه الأمان الذي تريدون.

قام زياد من جلسته مخاطباً سعاد:

– عليك أن تكوني بجوار جارتك وصديقتك الآن، فهي بحاجة لمن يواسيها في مصابها، وسأكون أنا مع باقي الجيران والأصدقاء لأرى ماذا سيفعلون حيال استلام الجثمان والدفن، رحمك الله يا حسام وتقبلك عنده وألهم أهلك الصبر والسلوان.

بعد وفاة حسام بات زياد واجماً معظم وقته لا يكاد يُسمع صوته في البيت أو المحل، كان يقضي كل وقته مفكراً فيما عليه أن يفعل إن ضاقت عليهم الأمور أكثر، فما يراه ويسمعه يومياً لا ينذر بخير، الاعتقالات طالت الكثيرين، وزبائن المحل أصبح عددهم لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة يومياً، وبعضهم كان يأتي ليسأل عن الحاج أب.ي حاتم فقط.

كان زياد قد أخذ قراراً مذ سمع بخبر اعتقال الحاج أب.ي حاتم بأن لا يترك أي مبالغ تذكر في المحل، كان يسلمها بشكل شبه يومي لزوجته أم حاتم، حتى أنها طلبت منه في إحدى زياراته لها بأن يحتفظ ببعض المبالغ لنفسه إن احتاج لذلك، لكنه رفض طالباً منها بأن تحفظها له لوقت الحاجة، فلم يعد حوله من يستأمنه على ماله غيرها.

استمر الوضع على ما هو عليه لعدة أسابيع، وبدأت الحياة تعود شيئاً ما لما كانت عليه، باستثناء حملات الاعتقالات التي استمرت على النهج نفسه، كان يسمع بأن بعض السوريين اعتقلوا، ولكن تم الإفراج عن معظمهم باستثناء القليل الذين تم إبعادهم عن مصر.

وفي أحد الأيام بينما زياد جالس في المحل، وإذ بسيارتي شرطة تقفان أمام الباب مباشرة، ويهبط من أولاهما ستة عساكر يحملون بنادقهم، ومن الثانية ضابط وعسكريان، دخلوا جميعهم إلى المحل بشكل عنيف وهم يصرخون، مع أن المحل كان خالياً من الزبائن، وقف زياد متفاجئاً وإذ بأحد العساكر يصرخ به:

– اثبت مكانك، إياك أن تقوم بأي حركة.

وقف زياد مكانه دون أي حركة والرعب يملؤه. كان يراقب الضابط وهو ينقل بصره متفحصاً المحل. نظر إليه الضابط بشكل مباشر وهو يسأله:

– ما اسمك يا ولدي؟

أجابه زياد باضطراب:

- زياد يا سيادة الضابط.

رد عليه الضابط مبتسماً:

- أنت سوري يا زياد؟

فأجابه زياد على الفور:

- نعم يا سيدي.

نظر الضابط إلى أحد العساكر وأشار له وهو يهم بالخروج من المحل قائلاً:

- أحضروه وأغلقوا المحل بالشمع الأحمر.

اقتاد أحد العساكر زياد بشكل عنيف إلى السيارة، وانشغل الباقون في إقفال المحل.

لم يمضِ وقت طويل حتى وصل الجميع إلى مركز الشرطة، اقتيد زياد بالعنف نفسه ووضع في الحجز المؤقت، لم يكن زياد يعي تماماً ما يحدث له، كان مذهولاً غائباً عن الإدراك، عشرات الأفكار تتزاحم في رأسه، جميعها مرعبة، ماذا سيحدث لأبنائه ولزوجته، فليس لهم الآن معيل أو سند يستندون إليه غيره في هذه الغربة، فلا قريب ولا صديق، هو يعرف مقدار الرعب الذي يصيبهم لمجرد تأخره أحياناً، فكيف وقد تم احتجازه. أشد ما آلمه أنهم جردوه من هاتفه المحمول بمجرد وصوله لمركز الشرطة، ولم تجدِ توسلاته للعسكري بأن يسمح له فقط بأن يبلغ زوجته بأنه سيتأخر في العودة للمنزل هذا اليوم. قضى زياد عدة ساعات في الحجز وهو في حالته هذه من الخوف والذهول حتى سمع باب الحجز الذي كان يعج بالمحتجزين يفتح، ويسمع اسمه من أحد العساكر وهو ينادي عليه، وقف من فوره وهو يقول:

- حاضر، أنا هو زياد.

أجابه العسكري باقتضاب:

- اتبعني.

سار زياد خلف العسكري دون أن ينبس ببنت شفة حتى وصل إلى غرفة كتب عليها غرفة التحقيق. أدخله العسكري إلى الغرفة بعد أن طرق الباب قبل دخوله، وقف أمام ضابط برتبة مقدم، سمع العسكري يقول للضابط بعد أن أدى التحية العسكرية:

- السوري زياد يا سيادة المقدم.

أشار له الضابط بإشارة تدل على الإذن بالانصراف، خرج العسكري وأغلق الباب خلفه، وبقي زياد واقفاً على حاله أمام الضابط.

نظر إليه الضابط متأملاً قبل أن يطلب منه الجلوس قائلاً:

- تفضل بالجلوس يا زياد.

جلس زياد منقاداً وكأنه لا يدرك ما حوله، انتبه من شروده على صوت الضابط وهو يسأله:

- هات ما عندك يا زياد، أريد أن أسمع منك قبل أن أسألك أي سؤال، قل لي أي شيء ترغب بقوله لا على التحديد. ها أنت ترى أنه لا أحد يشاركنا هذه الجلسة، فلا يوجد محضر ولا كاتب ولا غيره، أرغب بأن تكون جلستنا هذه جلسة أصدقاء، وبعدها أقرر هل عليَّ أن أجعلها جلسة رسمية أم لا.

كانت هذه الكلمات مطمئنة لزياد بعض الشيء، ما جعله يبادر الضابط بتوسل قائلاً:

- هل لي أن أطلب منك طلباً؟ أو اعتبره رجاء سيادة المقدم.

تبسم الضابط وهو يجيبه:

- بالطبع، تفضل واطلب ما تشاء.

اعتدل زياد في جلسته شيئاً ما وقد بدأت الحيوية تعود إلى وجهه، ثم قال:

- أرجوك أن تسمح لي فقط بإخبار زوجتي وأولادي بأني بخير، ولن أخبرهم أني محتجز عندكم، ليس لهم بعد الله غيري، وأعرف أنهم الآن يعانون الكثير لغيابي.

تبسم الضابط وهو يضغط على أحد الأزرار بجواره ليدخل العسكري الواقف أمام الباب، قال له المقدم:

- أحضر حاجيات زياد من الأمانات بسرعة.

انطلق العسكري من فوره، وعاد خلال دقائق، كان الصمت هو المخيم على الجلسة في غرفة التحقيق، ما أن استلم الضابط حاجيات زياد حتى أخرج من بينها الهاتف المحمول وسلّمه زياد وهو يقول له:

- تفضل يا زياد، ولا بأس بأن تقول لهم أنك باستضافتنا لبعض الوقت، وأنك ستخبرهم في حال اضطررت للبقاء لوقت أطول عندنا.

تناول زياد هاتفه بلهفة، وأخذ يضغط الرقم باضطراب، تقصّد أن يضع المكالمة على مكبر الصوت حتى يسمع الضابط المكالمة، لم يرن الهاتف سوى رنة واحدة في الطرف الآخر حتى سمع صوت زوجته في الطرف الآخر تقول بصوت باك مرتفع:

- ألو، زياد، أين أنت يا زياد، ألو.

أجابها زياد بهدوء ليحاول امتصاص الخوف الذي لديها:

- السلام عليكم، كيف حالك؟ لِم كل هذا الاضطراب يا سعاد؟

كانت أصوات أبنائه المنادية بابا بابا بدأت تعلو، وبعضها كان باكياً، ردت عليه باللهفة نفسها:

- كيف تغيب بهذا الشكل دون أن تطمئننا عليك؟ أين أنت؟ ولِمَ لا تجيب على اتصالاتي؟ حلفتك بالله أن تقول الحقيقة، بعض الأطفال أخبرونا أنه تم القبض عليك. هل هذا صحيح؟

أجابها بهدوء وهو يحاول طمأنتها:

- هدئي من روعك يا سعاد، ولا تخشي شيئاً، أنا الآن باستضافة مركز الشرطة لإنهاء بعض الأمور المتعلقة بالمحل، وسأكون في البيت عما قريب إن شاء الله، صدقيني ليس هناك ما يدعو للقلق.

حاولت سعاد أن تستمر بالاستفسار كي تطمئن على زوجها، لكن زياد أنهى المكالمة بهدوء بعد أن وضّح لها بأنه لا يستطيع الاستمرار في المكالمة أكثر من ذلك، أعاد هاتفه المحمول للضابط وهو يشكره بامتنان واضح، ثم عاد لصمته، بقي على هذه الحال والمقدم ينظر إليه بتفحص للحظات، قاطع الضابط هذا الصمت وهو يعود للحديث مع زياد قائلاً:

- اعتبرها حركة ذكية منك يا زياد، أن تجري المكالمة أمامي مستعملاً مكبر الصوت دون أن أطلب منك ذلك، ولا أخفيك أنها أراحتني بعض الشيء، لكنها لن تغني عن حوارنا حول بعض الأمور. أريد أن أسمع منك معلومات عامة قبل أن أبدأ بأسئلتي، تفضل وتكلم.

بدا واضحاً بأن زياد قد عاد من وجومه بعد هذه المكالمة، بدأ حديثه مع الضابط بالتعريف باسمه كاملاً ثم بأفراد أسرته فرداً فرداً، ثم ذكر له باختصار وبنقاط واضحة مذ بدأت رحلتهم من «حمص» بعد الدمار الذي حلّ بها وحتى وصوله لمصر وعمله في محل الحاج أبـي حاتم. عند هذه المرحلة أوقفه الضابط وهو يقدّم له سيجارة كي يدخنها قائلاً له:

- جميل جداً ما ذكرت، وأراه أكثر من كافٍ، والآن لنبدأ ما يهمنا في هذا الحديث، ما نوع علاقتك بأبـي حاتم؟ وماذا تعرف عنه؟ وبالتفصيل الممل.

قال هذه الكلمات وأمسك قلماً كان على مكتبه، وبدا مستعداً لتسجيل بعض الملاحظات. أجابه زياد بعد أن اعتذر عن قبول السيجارة قائلاً:

- يا سيادة المقدم، كما أخبرتك من قبل، الحاج أبو حاتم احتواني وقدّم ليّ المعونة دون أن يشعرني ولو للحظة أنه يقدمها كمساعدة أو شفقة، ولكي أجيبك على ما تبحث عنه، بعد عملي عنده بفترة، علمت من أحد الأصدقاء أن الحاج أبـي حاتم ينتمي لتنظيم الإخوان المسلمين، وقد راعني الأمر حينها وكدت أن أترك العمل عنده خوفاً على نفسي وعلى أولادي من الدخول في أي

مساءلة حيال هذا الأمر، لكني عدلت عن ذلك بعد أن استخرت الله، وقد عقدت العزم بشكل صارم أن أكون بعيداً كل البعد عما يخص الحاج أب.ي حاتم وأعماله في الجمعية الخيرية، حتى أني كنت أتجنب الجلوس بجواره في زياراته المتقطعة للمحل إن كان معه أحد أصدقائه، وقد تفهم الحاج موقفي ولم يحاول ولا مرة أن يقحمني في أي أمر خارج عن إطار المحل إطلاقاً، فعلاقتي معه كانت مقصورة بالمحل فقط.

تبسم الضابط لجواب زياد المباشر، وقال له:

– يبدو أننا متفاهمون تماماً يا زياد، وهذا يريح كلانا، أخبرني الآن كيف تسيّر أمر المحل؟ أقصد من يتابع معك شؤونه المالية بعد أن تم اعتقال أب.ي حاتم؟

أجابه زياد بتردد:

– لا أدري كيف أجيبك سيادة المقدم، لكن أرجو من الله ألا أكون خائناً للأمانة، فالحاج أبو حاتم قبل اعتقاله بفترة أخبرني بأنه بحال اختفائه أن أتعامل مادياً مع زوجته الحاجة أم حاتم، وأن أتابع معها أمور المحل بشكل دوري، وهذا ما أفعله، فأنا أسلمها مدخول المحل مع ورقة صغيرة مكتوب فيها البضاعة المباعة، واحتياجاتنا لأي بضاعة جديدة.

سكت بعدها زياد وهو ينتظر أي سؤال آخر من الضابط ويراقب حركة يديه. وضع المقدم القلم الذي بين يديه على مكتبه دون أن يكتب أي شيء، أكمل نفث دخان سيجارته وهو يتأمل زياد للحظات، وقف بعدها بهدوء وهو يمد يده مسلماً على زياد، وبيده الأخرى يسلمه الظرف الذي كان يحوي حاجياته التي سلمها للمأمور عند دخوله الحجز، وقال له:

– لا أدري يا زياد لِمَ شرح الله صدري تجاهك؟ وأجدني متسرعاً في قرار إخلاء سبيلك دون تسجيل قيد ضبط لك، وبالوقت نفسه مرتاح له، لكني لا أعدك بأن الأمر سينتهي عند هذه النقطة، فملف الإخوان المسلمين شائك جداً، وهناك عدة جهات أمنية تتابعه، وربما تم استدعاؤك أو حجزك من أحدها أو منها جميعاً، فكن مستعداً لهذا الأمر. أعرف أنه ليس لك ذنب في هذا، لكن الظروف التي تمر بها البلد استثنائية، أتعاطف معك حقيقة ومع كل ما مررت به من صعوبات، كان الله بعونك، هيا اذهب لزوجتك وأولادك.

سلّم عليه زياد وهو لا يكاد يصدق ما جرى أمامه، أبهذه السهولة يفرج عنه، ربما كان هذا الضابط متعاطفاً معه كونه سوري الجنسية، أو ربما كان متعاطفاً مع قضية الإخوان المسلمين بكاملها، لكنه الآن لا يعنيه كل هذا الأمر، ما يعنيه الآن عودته بأقصى سرعة إلى بيته وأولاده، لا يريد أن يفكر بأي شيء الآن.

توجه زياد إلى منزله من فوره ورجلاه لا تكادان تحملانه، ما أن وصل لبيته حتى ارتمى في أحضان زوجته وأولاده يحيطون بهما وهم يبكون، كان يحاول طمأنتهم وهو يمسح على رؤوسهم، وبالوقت نفسه يبحث عن الأمان في أحضان زوجته. استمرا على هذا الوضع لدقائق حتى أحس بأن النفوس هدأت بعض الشيء. قبّل أبناءه واحداً واحداً ثم أمسك بيد زوجته ليخرجا إلى السطح وينفردا بالحديث وهو يقول لها:

- أعدّي لنا فنجانين من القهوة يا سعاد.

بعد دقائق جلست سعاد بقربه وهي تمسك يده بعد أن وضعت فنجان القهوة أمامه وهي تقول له:

- ما الذي حدث يا أبا أحمد؟ أحلفك بالله ألا تخفي عليّ أي أمر، كم كانت صعبة تلك الساعات التي مرّت عليّ وأنت غائب فيها عنّا، لا أظنني قادرة على تحمّل مثل هذا الموقف مرة أخرى.

ارتشف رشفة من فنجان قهوته، نظر إلى عينيها بشكل مباشر لعدة ثوان ثم ذهب بنظره للبعيد قبل أن يجيبها قائلاً:

- لا أخفيك أمراً يا سعاد، يبدو أننا سنواجه مرحلة جديدة من المعاناة، لا أريد أن أزرع الخوف في قلبك، ولكن علينا أن نكون مستعدين للمرحلة القادمة، وفي الوقت نفسه، لا أريد أن آخذ أي قرار متعجل مبني على ردة فعل، فما مررنا به في سوريا يجعلني متأكداً من مقدرتنا على مواجهة أي تحد بعد توفيق الله وتيسيره.

كانت سعاد تستمع لزوجها والاحتقان باد على وجهها، أحس زياد بمدى خوفها من ارتجاف يدها التي ما عادت تستطيع السيطرة عليها، قالت له بصوت باكٍ تحاول السيطرة عليه:

- نعم، سنكون عوناً لبعض لآخر يوم في حياتنا يا زياد، لكني أريد أن أعرف كل ما حدث معك بالتفصيل.

ربت على يديها بهدوء وهو يعيد نظره إلى عينيها بشكل مباشر، ثم أخبرها بتفاصيل ما حدث معه، وما أن انتهى حتى أحس بأن أنفاسها قد هدأت شيئاً ما، صمتا قليلاً قبل أن تقول له:

- الحمد لله، ما حدث معك يطمئن ولا يدعو للقلق، ما الذي يخيفك إذاً؟

أجابها بابتسامة خفيفة مصطنعة:

- ليت الأمر بهذه البساطة يا حبيبتي، لهذا الأمر ما بعده، فكلام الضابط كان واضحاً عندما قال لي بأن هناك عدة جهات قد تستدعيني مستقبلاً، وربما كان ما حدث معي اليوم مجرد فاتحة، فأنباء الاعتقالات أسمعها بشكل يومي مع محدودية اختلاطي بالناس، والذي يخيفني أنها طالت بعض السوريين بحجة دعم الإخوان وغيره، ويبدو لي بأن الحاج أبا حاتم كان ذا شأن في الجماعة.

سكت بعدها وهو ينظر إلى البعيد مفكراً، قاطعت هذه اللحظات بسؤاله:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

أجابها بعد تنهيدة أطلقها من صدره:

– الآن، لا شيء كما قلت لك، لا أريد أن أتعجل بأي شيء، سننتظر لعل الأمور تهدأ قليلاً، وبذلك لا نكون مضطرين لتغيير أي شيء في حياتنا، فالأشهر التي عشناها هنا تعتبر الأفضل لنا ولأبنائنا منذ اندلاع الثورة في سوريا، ولا أريد أن أخسر هذه الطمأنينة والهدوء مرة أخرى.

مضت عدة أيام بعد هذا الحدث الذي مرّ به زياد، زار خلالها الحاجة أم حاتم ليسلمها المفاتيح وينهي كل المتعلقات بينهما. عندما زارها، طلبت منه الدخول على غير العادة، فلقد تعود أن يسلمها المبالغ والكشوفات دون أن يدخل المنزل. ما أن دخل إلى صالة المنزل وجلس حتى قالت له:

– جزاك الله خيراً يا ولدي، فلقد أحبك الحاج – فرّج الله أسره – واعتبرك بمقام ولده، أعرف أن الفترة التي قضيتها معه تعتبر قليلة، لكن الله فتح على قلبه في حبك والثقة بك، والحمد لله كنت محلّ لهذه الثقة.

أجابها زياد وشيء من الخجل بات واضحاً على وجهه دون أن يرفع عينه عن الأرض قائلاً:

– فرّج الله كرب الحاج، فلقد أصبح بمقام والدي رحمه الله في هذه الفترة، لم يترك لي مجالاً في يوم من الأيام أن أسأله حاجة، كان مبادراً دائماً في قضاء حوائجي قبل أن أطلب منه. والآن يا أمي، وبعد أن تم إقفال المحل، لا أدري كيف أستطيع أن أخدمكم، فحق الحاج عليّ كبير، ولن أستطيع جزاءه على ما قدم لي مهما فعلت.

أجابته الحاجة بوقارها المعهود:

– أستغفر الله يا ولدي، لم يفعل الحاج إلا ما أمره الله به، والشكر لك على كل ما فعلت، لكني أردت أن أعرف منك ما هي مستحقاتك عند الحاج، وهل لك حاجة في أي شيء، فلقد أوصاني زوجي قبل أيام من اعتقاله بأن ألبي كل حاجاتك مهما كانت، وأنا على هذا العهد.

احمر وجه زياد خجلاً، كيف لهذه المكلومة بزوجها المعتقل بأن تبحث في حاجة غيرها، بل كيف تعرض عليه المساعدة وهو من يجب عليه أن يقدم لها المساعدة. تلعثم قبل أن يجيبها:

– أبداً يا حاجة، لا شيء على الإطلاق، فلقد كنت أستوفي أجري أولاً بأول، فجزاك الله عني وعن أولادي كل الخير. وأعدك بأن تكوني أول باب أطرقه في حال احتجت لأي أمر.

وقفت الحاجة وهي تجيبه مبتسمة إيذاناً له بالانصراف:

– سأعتبر هذا وعداً منك يا ولدي، ادع الله لعمك الحاج أبي حاتم بالفرج. فرّج الله كربنا وكربكم وكرب المسلمين أجمعين.

مرّ على زياد عدة أسابيع وهو يعاني من عدم مقدرته على إيجاد عمل في أي مكان يذهب إليه، ولقد انتبه بأن كل أصحاب المحلات التي زارها باحثاً فيها عن فرص عمل، كانوا

يُعرضون عن إكمال مقابلته بمجرد معرفتهم بأنه كان يعمل عند الحاج أب.ي حاتم لخوفهم من المساءلة القانونية. وفي هذه الفترة نفسها، تم استدعاؤه ثلاث مرات لمخفر الشرطة نفسه الذي ذهب إليه عند إقفال المحل، لكنها كانت زيارات قصيرة، فلقد كانوا يطلقون سراحه بمجرد أن يعرفوا بأن الضابط المسؤول قد حقق معه سابقاً وأطلق سراحه دون أن يسجل له محضراً.

وفي يوم من الأيام بينما هو جالس في منزله مساءً، وإذ به يسمع طرقاً قوياً على باب المنزل، فُجع وأبناؤه من شدة صوت الطرق ومن طريقته العنيفة، أسرع ليفتح الباب، ما أن فتح الباب حتى اقتحم المنزل خمسة رجال بلباس مدني يحملون أسلحة دون استئذان، صرخت سعاد وأبناؤها من هول المفاجأة، وأسرعت لتناول غطاء تستر به نفسها هي وفاطمة، أما الرجال الذين اقتحموا المنزل فلقد أمسك اثنان منهما بزياد بشكل عنيف واضعين إحدى يديه خلف ظهره كي يمنعاه من الهرب إن حاول ذلك، دخل بعدهم رجل يلبس بدلة أنيقة وهو يسير على مهل ممسكاً بهاتف محمول بيده، نظر إلى زياد وهو يسأله:

– أنت زياد السوري.

أجابه زياد والخوف يكاد يقطع أنفاسه:

– نعم يا سيدي أنا هو، من أنتم؟ وماذا تريدون؟ وكيف تقتحمون البيت بهذه الطريقة؟ ألا تراعون حرمة البيت وحرمة النساء؟

وكزه أحد الرجلين اللذين كانا يمسكانه وهو يقول له:

– جاوب على قدر السؤال ولا تسبب لنفسك إهانة أمام أولادك.

كان صوت بكاء الأولاد قد بدأ يعلو وهم يحيطون بأمهم والرعب يملأ أعينهم.

نظر الرجل ذو البدلة إلى المنزل بعين متفحصة، نقل بصره بين زياد وأبنائه، ثم وجه كلامه لمن كانوا معه بصيغة الأمر قائلاً:

– أحضراه معكما، وأما الباقون، فعليكم تفتيش المنزل وإحضار كل ما تجدونه من أوراق أو أجهزة حاسب آلي أو ملحقاتها. هيا أسرعوا.

عرف حينها زياد بأن هؤلاء الرجال يتبعون لإحدى الجهات الأمنية التي نبهه المقدم في المخفر عن احتمالية استدعائهم له والتحقيق معه بشأن الحاج أب.ي حاتم، وهاهي نبوءته تتحقق ويدخل في دائرة الرعب مرة أخرى.

كان خوف زياد هذه المرة أشد بكثير من المرات السابقة التي اعتقل أو استدعي بها، ففي هذه المرة تم اقتحام منزله ولم يراعِ أحد حرمة بيت أو نساء، أخذوه من بين أبنائه، عدا عن كونهم يلبسون لباساً مدنياً ويحملون أسلحة يشهرونها في اقتحامهم. ثم صراخ أبنائه والخوف الشديد الذي رآه في أعينهم هم وزوجته آلمه أيما إيلام.

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى وصولهم إلى جهتهم، لم يكن يعلم ما هذه الجهة، ومن هم

هؤلاء الذين اعتقلوه من منزله، اقتيد بعنف داخل المبنى حتى أُودع في زنزانة مليئة بالرجال بعد أن تم تسجيل دخوله والتحفظ على كل ما كان معه، لم يكد يجد مكاناً يجلس فيه لولا أن انتبه لأحدهم وهو يحاول أن يتحرك ليصنع له مساحة كافية لجلوسه مشيراً إليه أن يجلس بجواره. تحرك زياد باتجاه الرجل كي يجلس بجواره بلا إرادة أو تركيز. كانت الرائحة العفنة تفوح من الزنزانة، وأشكال الرجال فيها متباينة جداً، ولا يمكن التنبؤ عن هوياتهم.

مرّت الساعات الأولى على زياد وهو يترقب أي حركة خارج الزنزانة علّه يسمع أحدهم ينادي على اسمه أو يستدعيه للتحقيق معه، كان يتأمل بأن تكون هذه المرة مشابهة للمرات السابقة، ساعات قليلة ويتم إخلاء سبيله بعدها. لم تفارق ذهنه الصورة التي ترك أولاده عليها طوال هذه الساعات، كان يحس بألم يعتصر قلبه، فالإحساس بالعجز بأن يوفر لأبنائه الأمان الطبيعي الذي يستحقونه كان يؤلمه أيما إيلام، حتى أنه صار يحس وكأنها سكاكين توخز قلبه. استمر في هذه الساعات بالنظر إلى السماء والدعاء بصمت علّ الله يجعل له من أمره فرجاً. غمضت عينه وهو يجلس بالطريقة نفسها دون أن يدري من شدة التعب والإجهاد الذي أحس فيه، استيقظ فجأة على صوت باب الزنزانة وهو يفتح، تنبهت جميع حواسه علّ الفرج قد أتى وسينادون على اسمه. أحس بإحباط عندما رأى أحد العناصر يدفع برجل بشكل عنيف إلى داخل الزنزانة وهو يقول له:

- ادخل يا ابن الكلب.

ثم أقفل الباب وعاد الأمر لنفس الهدوء السابق. نظر زياد إلى الساعة ليدرك بأن الصبح على وشك البزوغ، دبت حركة خفيفة بين الموجودين وهم يذهبون إلى دورة المياه التي تفوح منها روائح النتن والعفن، وآثار الوضوء بادية عليهم. قام زياد من مكانه ليفعل ما فعلوا، توضأ واصطف مع من اصطف للصلاة بعد أن أزاح بعضهم جسده ليجعلوا مكانا مناسباً للصلاة لمن يرغب بأدائها. عاد الجميع إلى حالهم وبعضهم يرفع كفيه للسماء داعياً الله ودموعه تنهمر.

مرّت على زياد خمسة أيام قضاها كأصعب أيام مرّت عليه مذ أن وعى على هذه الدنيا، لم تمر عليه فيها لحظة إلا وذاق فيها طعماً جديداً من الخوف والألم والحسرة، كان يتناوب الأحاسيس فيما بينها حتى يريح ذهنه من أن يفقد صوابه، ولم تكن اللحظات التي يناجي بها ربه في صلواته وما بينها سوى لحظات هدنة محارب، وبينما هو يتجرع هذه الآلام ويتصارع مع أفكاره وإذ به يسمع أحدهم ينادي على اسمه وهو يفتح باب الزنزانة، لم يدرك ما سمع حتى وكزه من كان يجلس بجواره منبها له، تكرر النداء على اسمه، وعندما انتبه هبّ واقفاً وكأن أفعى لدغته، قفز قفزاً وهو يتخطى باقي المحتجزين متجها إلى باب الزنزانة وهو يصيح:

- أنا زياد، أنا هو زياد.

ردّ عليه الرجل باقتضاب وهو يغلق باب الزنزانة بعد أن أخرجه منها مع بقائه ممسكاً بيده بشكل قوي قائلاً:

- تحرك أمامي.

انقاد زياد أمام الرجل بشكل لا إرادي، وأحس عندها بأن جسمه لا يكاد يسعفه في هذه

الحركة البسيطة، كان يجرّ رجليه جراً ليجبرهما على حمل جسده، تذكر حينها بأنه لم يتناول طعاماً يذكر طوال الفترة السابقة إلا ما ندر، فلم تطعه نفسه على تقبل الطعام الذي يقدمونه لهم في الزنزانة. بعد دقائق وجد نفسه يقف أمام غرفة مغلقة الباب نصف إغلاقة، كانت تفوح منها رائحة عطر نافذة، وبها مكتب فاخر يجلس خلفه رجل كبير السن، قاسي الملامح، وقريباً منه مكتب صغير يجلس خلفه رجل عجوز ممسكاً بقلمه ويكتب به على دفتر كبير أمامه.

أدى الرجل المرافق لزياد التحية العسكرية بعد أن دخلا الغرفة وهو يقف أمام المكتب الفخم قائلاً:

- زياد السوري سيادة العقيد.

أجابه الضابط دون أن يرفع عينه عن الأوراق التي كان يتصفحها:

- دعه وانصرف، ولا تسمح لأحد بالدخول.

انصرف الرجل بعد أن أعاد التحية مرة أخرى، وبقي زياد واقفاً على حاله ينتظر أي كلمة من العقيد. بقي على هذه الحالة عدة دقائق، سمع بعدها العقيد وهو يخاطبه:

- اسحب الكرسي إلى حيث تقف، واجلس عليه، رائحتك مقرفة جداً ولا أحتمل اقترابك.

فعل زياد ما أمره به الضابط وتهاوى جسده المتعب على الكرسي بشكل ملحوظ.

قال له العقيد بعد أن وضع الأوراق التي في يده على المكتب الذي أمامه:

- يبدو أنك متعب جداً يا زياد، هل تعاني من أي أمراض مزمنة؟

أجابه زياد بهدوء:

- أبداً، لكني ربما كنت مجهداً بسبب عدم تناولي الطعام لعدة أيام، وأنا السبب في ذلك، فالحرس يأتوننا بالطعام بشكل يومي، لكن نفسي لم تتقبل ما يقدمونه.

ردّ عليه العقيد بعد أن عاد لتصفح الأوراق التي أمامه:

- عليك أن تعوّد نفسك على تقبل ما يقدم لكم هنا، وإلا ستعاني كثيراً، ولا تنسى أنك هنا في سجن ولست في فندق راق يقدم لك ما تشتهيه نفسك.

جفل زياد من هذه الكلمات واصفر وجهه حتى بات بلا دماء، فمعنى كلام الضابط بأن بقاءه هنا سيطول، أطرق بنظره للأرض ولم يشعر بدمعة هربت من عينه بصمت. بقي على هذا الوضع حتى قاطع أفكاره سماعه الضابط يسأله:

- زياد، ما علاقتك بالإخوان؟

أجابه زياد بهدوء دون أن يحرك ساكناً:

- ليس لي بهم أي علاقة سيدي.

عاد الضابط لسؤاله ولكن بصوت أعلى وبشيء من الحدة:

- كيف تقول إنه ليس لك أي علاقة بهم وقد عملت عند أحد قيادييهم لعدة أشهر؟ هل تراني غبياً؟ أم أنك تستخف بـي؟ أنصحك بأن تتكلم بكل ما تعرف، فهذا أفضل لي ولك، صدقني أنك لن تحتمل التحقيق تحت الضغط، فلا تضطرني للجوء إليه.

وكأن زياد لم يسمع أو لم يفهم تهديد الضابط، رفع نظره شيئاً ما وهو يجيبه بالهدوء نفسه:

- أرجوك أن تصدقني سيادة الضابط، ليس لي بهم أي علاقة، ولا أعرف عنهم أي شيء، علاقتي بالحاج أبـي حاتم لم تكن تتجاوز المحل الذي أعمل به، وربما لو كنت أعرف أنه من الإخوان قبل أن أعمل معه لما كنت عملت معه نهائياً، لكن قدّر الله وما شاء فعل.

بقي الضابط يحدق إليه طويلاً وهو يطرق بطرف قلم كان يمسكه بيده على سطح المكتب. وبحركة هادئة قرع الضابط على جرس صغير بجواره ليدخل مباشرة الرجل نفسه الذي أحضره، قال له الضابط بصيغة آمرة هادئة:

- أحضر لزياد كأساً من الليمون الطازج الآن مباشرة.

خرج الرجل بعد أن أدى التحية، وعاد بعد دقائق عدة ليضع كأس الليمون أمام زياد ويخرج مرة أخرى.

قال الضابط لزياد بهدوء:

- اشرب يا زياد، يبدو أنك منهك جداً، وسنكمل حديثنا بعد أن تنتهي.

بدأ زياد بشرب عصير الليمون ودموعه تنساب لا إرادياً من عينيه، أنهى عصيره ووضع الكأس مكانها وهو يشكر الضابط.

سأله الضابط:

- ما يبكيك؟ هل قررت أن تتكلم؟

أجابه زياد بعد أن استعاد شيئاً من قوته:

- ما يبكيني سيدي أني لا أدري هل أبنائي عندهم من يقدم لهم مثل هذه الكأس من الليمون أم لا! أنا يا سيدي رجل غريب في هذا البلد، هربت بأولادي وزوجتي من جحيم الحرب وشدة الهوان والذل لأجد عندكم الراحة والأمان، بعد أن استضفتمونا خير استضافة، ولست أبحث سوى عن الستر والأمان، ومن المؤكد أنه ليس لي أي أطماع سواها حتى يفرجها الله على بلدي لأعود لمنزلي ولمن بقي من أحبابـي، ومذ أن خرجت من سوريا لم أهتم بغيرهما أبداً، الستر

والأمان لأولادي، أمّا تعاملي مع الحاج أبـي حاتم فلم يتجاوز في يوم من الأيام حدود المحل، وكنت حريصاً جداً على هذه الحدود، وكان هو متفهماً لرغبتي ولم يحاول في يوم من الأيام أن يقحمني بأعماله الخاصة، ثم أن عملي معه لم يتجاوز الأشهر البسيطة. ولو كان لديّ ما أقوله لقلته دون أن تسألني.

استمر الضابط بالنظر إلى زياد بشكل مباشر وكأنه يقرأ دواخله، وبقي زياد محافظاً على هدوئه دون النظر إلى شيء بعينه. عاد الضابط إلى الأوراق التي أمامه وهو يقلبها دون أن تظهر على ملامحه أي تعابير، ثم قرع الجرس ليدخل نفس الشخص الذي أحضر زياد، قال له الضابط:

– خذ زياد إلى غرفة الحجز الثالثة، وأعطوه مجالاً ليستحم، واهتموا بطعامه.

أجابه الرجل:

– أمرك سيدي.

وقف زياد بهدوء وهو ينظر إلى الضابط والدموع تترقرق في عينيه، انتبه الضابط بأن زياد يريد أن يقول له شيئاً ولكنه لا يستطيع، فقال له:

– هل لديك ما ترغب في قوله، أرى أن هناك كلاماً في عينيك.

تماسك زياد قبل أن يجيبه:

– نعم يا سيدي، أولادي، ما مصيرهم؟ أكاد أُجن، فليس لهم سواي في هذه الغربة.

أجابه الضابط دون أن ينظر إليه:

– لا تقلق، فهناك من يهتم بأمورهم ويساعدهم على قضاء حوائجهم.

شكره زياد وهو يسير ببطء أمام الرجل باتجاه باب غرفة الضابط، عندما وصل إلى باب الغرفة للخروج منها سمع الضابط ينادي عليه، فتوقف والتفت إلى الضابط ليسمعه يقول له:

– إن قررت أن تتكلم أو أن تقول لي ما عندك ستجدني بانتظار سماعك دائماً.

أومأ له زياد بالإيجاب وهو يخرج، وأشد الألم يعتصر قلبه، فمعنى الجملة الأخيرة التي قالها الضابط بأن مقامه هنا قد يطول.

وصل زياد غرفة الحجز الجديدة، كانت مختلفة شيئاً ما عن سابقتها، أكبر مساحة وأقل زحاماً وأكثر نظافة. اعتبر زياد بأن هذا مؤشر خير، فلعل الضابط ينوي إخراجه لكنه يحتاج لإكمال بعض الأوراق المتعلقة به.

استمر حجز زياد لثلاثة أسابيع لاحقة، تغيرت أحواله بعد أن تم تغيير مكان احتجازه، فلقد أصبح الطعام مقبولاً شيئا ما في غرفة الحجز الجديدة، ويستطيع أن ينام بهدوء، لكن إحساسه

بقي وكأن كل يوم يمر عليه كدهر، وزاد على ثقلها أصوات الصراخ التي كان يسمعها من وقت لآخر، والتي كانت تبعث الرعب في نفسه، كان متأكداً بأنها نتيجة لممارسات عنيفة يتبعها المحققون مع بعض المحتجزين، كان مقطوعاً عن العالم الخارجي بشكل كامل خلال فترة احتجازه، عرف خلالها بأنه محتجز بأحد فروع أمن الدولة، تم التحقيق معه خلال هذه الفترة ثلاث مرات ومن ضباط مختلفين، كان الحوار نفسه يدور في كل مرة، ومما عرفه من بعض المحتجزين معه بأن مجرد بقاءه لفترة أطول في هذا الحجز مع التحقيقات التي تمت معه، هو علامة خير، فلو كان عليه شيء لتم تحويله للسجن العام. وفي اليوم الثاني من خامس أسبوع لاحتجازه سمع أحدهم ينادي على اسمه قبل أن يفتح باب الحجز، هبّ واقفاً وهو يحس بأن هذه المرة سيكون الوضع مختلفا، اتجه لباب الزنزانة وهو يدعو الله من أعماقه بأن يجعل له فرجاً من كربه.

عندما دخل غرفة التحقيق المعتادة، أحس بشيء من الراحة عندما وجد الضابط نفسه الذي حقق معه في المرة الأولى، والذي أمر بنقله لغرفة الحجز المتميزة، وقف بعيداً عن مكتبه منتظراً توجيهه، أشار له الضابط على المقعد المقابل لمكتبه إيذاناً له بالجلوس، فما كان من زياد إلا أن اقترب وسحب المقعد بعيداً شيئاً ما عن مكتب الضابط كما فعل في المرة الأولى، ابتسم الضابط لتصرفه دون أن يكلمه، جلس زياد منتظراً ما سيقوله له الضابط. لم يطل انتظاره حتى سمع الضابط يقول له:

– اسمع يا زياد، سنطلق سراحك الآن، لكن أريد منك أن توقع على تعهد بأن تخبرنا عن أي شيء تراه يثير أي شبهة وله علاقة بالإخوان المسلمين، مهما كان صغيراً. وربما نحتاج لاستدعائك لاحقاً.

أومأ زياد برأسه إيجاباً دون أن ينطق بكلمة، كان همّ زياد حينها فقط أن يعود لبيته وأبنائه، ويخلق الله ما لا تعلمون. وقّع زياد على التعهد الذي طلبه منه الضابط، وأنهى أمور إخلاء سبيله ثم انطلق لا يلوي على شيء.

أخذ يتجول في الشوارع لأكثر من ساعتين وهو لا يدري ما الذي يمنعه من العودة إلى منزله وأولاده، كان يتجول في الشوارع وهو تائه الفكر والمشاعر، لم يستطع التمييز بين مشاعر الفرح والخوف، كل ما كان يدور حوله تفكيره، ماذا بعد؟ يريد أن يستوعب ما معنى الحرية التي حُرم منها لما يقارب الشهر الواحد فقط، وما معنى أن يعيش بأمان، والذي حُرم منه لما يقارب الثلاث سنوات هو وأسرته. لم يتعود أن يفكر بكل هذا العمق، ما معنى أن تكون حراً؟ وكيف لشخص أن يحرمك هذه الحرية لا لذنب اقترفته أو لخطأ وقعت فيه، بل لكونه قادراً على فعل ذلك. ثم ما معنى أن تحيا بأمان. وتذكر فجأة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي طالما سمعه من والده وهو صغير «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»، آمن في سربه، يا الله ما أجمل هذا التعبير. انتبه فجأة من غفلته ليدرك بأنه قضى ما يقارب الساعتين يتجول على قدميه دون أن يتوجه إلى منزله. أحس بالأنانية فجأة، أوقف إحدى وسائل المواصلات التي عليه ركوبها للوصول إلى منزله، بدأت مشاعر الشوق والحنين تعود إليه بعنف، صارت خفقات قلبه مضطربة لاقتراب لحظة اللقاء مع أولاده وزوجته بعد كل هذا الغياب.

عندما وصل لباب منزلهم قرع الباب بشكل هادئ وهو يحاول تمالك نفسه كي لا يصيب أولاده بالذعر، فهو مدرك تماماً لما عانوه في فترة غيابه. فتحت ابنته هبة الباب، ما أن رأته حتى همت بالصراخ، إلا أنه وضع يده على فمها وهو يحتضنها ويقبلها، تعلقت به بشكل عنيف ودموعها تنساب بشكل غزير، أخذت تقبله وهي تخبره بمقدار حبها وشوقها له، بعد ثوان قليلة سمع صوت زوجته سعاد وهي تنادي على ابنتها هبة سائلة إياها من بالباب، أغلق الباب بهدوء ودخل حيث كان يجلس الجميع، عندما رآه الجميع هبّوا تجاهه يحيطونه بالأحضان والقبلات باستثناء سعاد، لم تستطع أن تفعل شيئاً سوى أن تضع يدها على فمها وتنظر إليه وعيناها تفيضان بدمع حارق، أخذ زياد يقبل أبناءه ويحتضنهم وينقل بصره بينهم وبين أمهم، أنهى هذه اللحظات دون أن ينطق بكلمة، ثم اقترب حيث كانت تجلس زوجته وهي على حالها وكأن صدمة أصابتها، وضع يده على رأسها واحتضنه إلى صدره بعد أن قبله، ما أن لمس رأسها صدره حتى أحاطته بيديها وانهارت في بكاء مرير، كانت تغرس أصابع يدها في ظهره، تريد أن تتأكد بأنها تلمسه حقاً، لم تعد قادرة على تمالك نفسها، صارت تهذي بجمل لا تعرف ما هي، فهم منها بعض الكلمات، خوف، غياب، شوق، أمل، موت، غربة، رجاء، وفي كل هذا كان يربت على رأسها ويقبله وهو يقول لها:

- الحمد لله، وحّدي الله يا حبيبتي، فها أنا معكم ثانية، أعدك بأن لا أترككم مرة أخرى إن شاء الله.

كان الأولاد يحيطون بأبيهم وأمهم دون أن ينطقوا بأي كلمة، فقط هي الدموع من كانت سيدة الموقف، تغسل وجوههم وأفئدتهم.

قضى زياد الأيام القلائل التي تلت خروجه من الحجز في منزله، لا يخرج منه ولا يحدث أحداً، علم خلالها من زوجته بأن هناك من كان يأتيهم بشكل دوري ويعطيهم مبلغاً من المال كي يقضوا حوائجهم، وفهم حينها بأن منزله كان مراقباً، وهذا ما دعا الضابط بأن يقول له عند أول تحقيق معه بأن هناك من يهتم بأولاده، ربما كان للحاجّة أم حاتم يد في الأمر، كان تفكيره طوال هذه الأيام منصباً على كيفية خروجه من مصر، فلن يحتمل البقاء تحت هذا الضغط، فلا مصدر للرزق ولا أمان، كانت الخيارات التي يفكر بها محدودة جداً، وجميعها فيها مخاطرة، وقد لا تؤدي للنتيجة التي يبحث عنها. من ضمن هذه الخيارات كانت الهجرة إلى الغرب من خلال البحر، أو السفر إلى تركيا أو إلى ليبيا. كان يناقش زوجته في كل أفكاره ويطرح جميع الخيارات بمخاطرها ومكاسبها المتوقعة أمامها لتشاركه التفكير واتخاذ القرار، كانت أبعد الخيارات إلى القبول بالنسبة إليهم هو السفر إلى ليبيا، فليس هناك استقرار أمني، ولا مصدر ثابت للرزق ومضمون، وكان أقربها لنفوسهم الهجرة إلى إيطاليا عبر البحر، لكنه سمع عن مخاطرها الشديدة، أما تركيا فكانت الخيار الأكثر مناسبة لهم، لكنه لا يريد أن يعاني مرة أخرى من الحاجة، فبعد طول أمد الحرب في سوريا، لم يعد الوضع في تركيا كما كان من ناحية التعامل مع اللاجئين السوريين. لا يريد أن يكون لاجئاً، يريد أن يرى في عيني أبنائه الإحساس بالأمان لا أكثر.

وفي إحدى جلسات النقاش بينه وبين سعاد حول الخيارات التي أمامهم قالت له:

- ضمن الخيارات التي أمامنا، أرى أن الهجرة لإيطاليا هي الحل الذي يضمن لنا

الاستقرار على المدى الطويل بعد مشيئة الله وتوفيقه، لم أعد قادرة على الدخول في أي وضع يجعلني أحس بعدم الأمان أو الاستقرار، حتى الوضع الذي نعيشه الآن، لا أعرف ما الذي سيحدث لي لو استمر لفترة أطول. أرجوك فكر بحل يضمن لنا الاستقرار للأبد، اترك التفكير بالعودة إلى سوريا الآن خلف ظهرك، حتى يكتب الله الفرج من عنده، بعدها يخلق الله ما لا تعلمون.

أجابها زياد بهدوء:

– أعرف تماماً ما تقصدين، لكن مسألة الهجرة إلى إيطاليا بالنسبة إليّ لها محوران، وكلاهما صعب جداً، ولا أستطيع تجاهل أي منهما، أولهما مخاطر الهجرة غير الشرعية، فأبواب الهجرة الشرعية مغلقة تماماً. وعندما أتكلم عن المخاطر فأنا أتكلم عن مسألة حياة أو موت يا سعاد، هي مغامرة بحرية شديدة الخطورة، وحالات الغرق باتت متكررة ويضج بها الإعلام بشكل أسبوعي.

قاطعته قبل أن يكمل قائلة:

– أعي ذلك تماماً يا زياد، لكنها مغامرة أخيرة نقوم بها، وتنتهي رحلة العذاب هذه، أريد لأبنائي أن يعيشوا عيشة طبيعية تخلو تماماً من أي ألم أو خوف أو حرمان أو اضطهاد يا زياد.

سكت قليلاً قبل أن يجيبها:

– حسناً، سنعود لهذه النقطة، أما المحور الثاني والأهم بالنسبة إليّ يا سعاد، كيف سنهاجر لنعيش في بلاد الكفر، نحن بذلك نرضى أن نعيش بين ظهراني الكفار، ونبتغي العزة بهم وليس بالله، لمجرد أن أتخيل عيشتي هناك أخاف من المستقبل، هل سنكون قادرين على تربية أبنائنا كما نحب لهم أن يكونوا؟ سعاد، الحرية في الغرب بلا قيود، بل ويحمون الفساد الأخلاقي ويشجعون عليه، هل تتخيلين بأن لابنتك الحق بأن تحضر صديقها لبيتك دون أن تعترضي. هل تعي ماذا يعني هذا الأمر. لا سيطرة لنا على أبنائنا هناك، وبذلك نكون خسرنا الآخرة التي خرجنا بحثاً عنها.

أجابته بهدوئها المعهود:

– أتفق معك يا زياد، لكني أرى الأمر من زاوية أخرى، لِم لا تفكر بأن الله اختارنا لنكون سبباً في هداية غيرنا، ألم تخبرني مراراً بأن الإسلام دخل وانتشر في قارة آسيا دون حروب، بل انتشر من خلال التجار المسلمين، لم لا نكون دعاة لدين الله بسلوكنا والتزامنا؟ كلامك يعني أنك لا تثق بتربيتنا لأبنائنا، وأن المسلمين الذين يعيشون في بلاد الغرب كلهم غافلون أو منحلون أخلاقياً، وهذا غير صحيح يا زياد.

أجابها بعد أن سكت لفترة مفكراً:

– لا أختلف معك في هذا الأمر، لكننا يجب أن نأخذ هذه المخاطرة بعين الاعتبار، بأننا إن قررنا هذا القرار فأمامنا تحدٍّ يجب أن نعيه وأن نتعامل معه على قدر حجمه وأثره.

أجابته وهي تمسك يده:

– أكيد، ومن المستحيل أن أقصر في حق أبنائي في هذا الأمر، لنتوكل على الله، ولنصلِّ صلاة الاستخارة علَّ الله يفتح علينا من فضله. وهذا رأيي الأخير، ولا أظنني سأغيره، والأمر بيدك لتختار ما تراه الأنسب لنا. المهم أن نخرج من هذا الضغط الذي نعيش فيه.

ابتسم لها وهو يقبل يدها وأجاب:

– لنتوكل على الله، سأبدأ من الغد بحول الله بالبحث في هذا الأمر، وأرجو من الله أن ييسره لنا.

بدأ زياد صباح اليوم التالي بالبحث عن موضوع الهجرة، كان يسأل عن كل التفاصيل وأدقها، كان يعرف بأن هناك سماسرة يتاجرون بأرواح الناس، ولم يكن يعرف كيف يميز بين الصادق والكاذب منهم، فلا ضمانات في مثل هذه العمليات. في هذه الأثناء ذهب في زيارة خاطفة لبيت الحاج أبـي حاتم، كان يريد استشارة الحاجة أم حاتم فيما هو مقدم عليه، ويطلب منها المساعدة في توفير قيمة رحلته الأخيرة، فهي من بقي له في مصر. عندما قابلها أخبرها بشكل مختصر ما حدث معه، سألها عن رأيها فيما هو مقدم عليه، فأجابته بعد أن أطالت التفكير:

– أرض الله واسعة يا ولدي، ولعل الله يجعل لكم في هذه الرحلة الفرج بعد الضيق، لكني أسألك بالله أن تكون حريصاً أشد الحرص على اختيار أفضل الطرق وأيسرها وأكثرها أماناً، فأولادك وزوجتك أمانة في عنقك، ولا يجوز لك أن تغامر بحياتهم دون اتخاذ كل الأسباب التي تحفظ أرواحهم.

أجابها:

– بالتأكيد يا والدتي، فوالله ما اتخذت هذا القرار إلا من أجلهم، فلقد ضاقت الدنيا بهم ولم يعد بمقدورهم أن يحتملوا كل هذا الضغط، حتى أن ابنتي فاطمة قد بدأ يظهر عليها بعض الأعراض النفسية التي أرجو من الله أن يساعدها على التخلص منها إن كتب الله لنا الخلاص.

نظرت إليه الحاجة بحنو وهي تقول له:

– أرجو من الله أن ييسر أمركم ويكتب لكم التوفيق والنجاة، والآن يا ولدي، أخبرني بحاجتك، فأنا أعرف بأن مثل هذه الرحلة قد تكلفك مبلغاً كبيراً لا تملكه، وصية الحاج أبـي حاتم – فك الله أسره – قائمة، وأنا ملتزمة بتأديتها على أكمل وجه.

احمّر وجه زياد خجلاً من كلامها، فهي لم تُحجه حتى أن يطلب منها، بل بادرت هي بعرضها، أجابها وعيناه تنظران حيث قدميه:

– لا أعرف ما أقول لك يا والدتي، فأنا عاجز عن شكرك عما فعلته مع أولادي أثناء غيابـي، وها أنت تعرضين عليّ المساعدة وأنا في أشد الحاجة لها دون أن أطلبها منك، ولن يكفي مهما فعلت لك بأن أجازيك أنت والحاج أبا حاتم صنيعكما معي.

قاطعته الحاجة وهي مبتسمة:

- لا تقل ذلك يا ولدي، فهذا واجبنا تجاهك كابن وأخ، حدد حاجتك وأخبرني بها، ولا تتردد في أي طلب.

قال لها:

- لست متأكداً بعد من مقدار المبلغ الذي قد أحتاجه لرحلتي هذه، فلم أصل لرقم نهائي، ولم أصل لمن أثق به بعد لأنهي معه اتفاقي.

وقفت الحاجة بشكل مفاجئ، أحضرت ورقة صغيرة وقلماً، وكتبت عليها بعض الكلمات، ثم قدمتها لزياد وهي تقول له:

- خذ هذه الورقة يا زياد، بها عنوان شخص اسمه المعلم أبو سعد في مدينة «الإسماعيلية»[27]، اذهب إليه وأعطه هذه الورقة، وأخبره بحاجتك، وهو سيساعدك بما يستطيع، وإن لم يُقضَ أمرك من خلاله عُد إليّ وسأجد لك من يساعدك، أما مسألة تكاليف السفر فلا تحمل همها إن اتفقت معه.

أنهت كلامها، ثم دخلت إحدى الغرف وعادت بعد دقائق وهي تحمل معها ظرفاً، ناولته لزياد وهي تقول له:

- تفضل يا ولدي هذا المبلغ، لكن لا تستخدمه إلا في رحلتك، أما مصاريف رحلتك فأنا سأتكفل بها. رتب أمورك مع الشخص الذي أعطيتك عنوانه واتفق معه على كل شيء، أما الأمور المادية فسأتابعها معه هاتفياً.

دمعت عينا زياد من شدة تأثره بهذا الموقف، وقف وهو يمد يده آخذاً الظرف من الحاجة وهو يقول لها:

- أرجو من الله العلي القدير أن يفرج همكم ويقضي حوائجكم ويجعل لكم بعد عسر يسراً.

اتجه بعدها للباب خارجاً من المنزل، فإذا به يسمع الحاجة تناديه بصوت باك، فالتفت إليها ليسمعها تقول:

- يا ولدي، ما أرجوه منك أن تدعو الله دائماً أن يفك الله أسر الحاج أبا حاتم ويفرج كربه، فدعاء المسافر ليس بينه وبين الله حجاب، ودعاء المظلوم أيضاً.

أدار وجهه حابساً دموعه وولى خارجاً دون أن ينطق بأي كلمة.

سافر زياد إلى «الإسماعيلية» لمقابلة المعلم أبـي سعد الذي أخذ عنوانه من الحاجة أم حاتم، وجده صاحب محل أسماك كبير معروف هناك، عندما قابله سلّم عليه وأعطاه الورقة الصغيرة التي معه، بمجرد أن قرأها أبو سعد رحّب به أيما ترحيب، ثم أمر أحد العمال الذين

يعملون لديه بأن يحضر لهما كأسين من الشاي إلى المكتب الداخلي، وألا يسمح لأحد بمقاطعتهما. ثم أمسك بيد زياد وأدخله معه إلى مكتب صغير في زاوية المحل، وبعد أن أجلسه سأله عن حاجته، فأجابه زياد بما هو مقدم عليه وبحاجته. عندما انتهى زياد من طرح ما لديه قال له المعلم:

لأكن صادقاً معك يا أخي، فأنت صاحب عائلة، ومعك أطفال صغار ويجب أن تعي تماماً ما أنت مقدم عليه، هذه رحلة فيها مخاطر كثيرة، ومهما أخذنا من الأسباب فلن نلغي نسبة المخاطر هذه، ما أتعهد لك به أن نتعامل مع أشخاص صادقين، هذا ما أستطيع توفيره لك، أما المخاطر فما تزال قائمة، أولها خفر السواحل لحين تجاوز المياه الإقليمية، وثانيها هيجان البحر وأمواجه المرتفعة. هذان أمران لا أحد يستطيع ضمانهما لك.

أجابه زياد بجدية:

– أتفهم ما تقوله تماماً، ولكني عزمت أمري وتوكلت على الله، ويكفيني أن تساعدني بالتنسيق مع من سيأخذنا.

سكت الرجل قليلاً قبل أن يجيبه:

– صدقني يا أخي بأني لا أسعى في مثل هذه الأمور خوفاً من أن يحاسبني الله إن أُزهقت نفس في هذه الرحلة أن أكون أحد الأسباب لذلك. لكني على ثقة بأن الحاجة أم حاتم لم ترسلك إليّ إلا لأنها مقتنعة بأن هذا الخيار هو الأنسب لك. سأبدأ بالسؤال والبحث، ما أطلبه منك الآن أن تنتقل إلى هنا أنت وأولادك خلال أسبوع بعد أن تصفّي كل أمورك في القاهرة، ولكن أرجوك ثم أرجوك، ألا تحدّث أحداً نهائياً بعزمك هذا، فالأمر خطير، وهناك تشديد في الفترة الأخيرة على هذه الرحلات لاتفاقات عقدتها الدول الأوروبية مع الحكومة الحالية حيال الهجرة غير الشرعية. لدي هنا شقة صغيرة مكونة من غرفة وصالة يمكنك المكوث فيها لحين إيجاد ما يناسبكم، اقطع جميع اتصالاتك، وتخلص من شريحة هاتفك النقال قبل مغادرتك القاهرة، وبمجرد وصولك إلى هنا سأرسلك مع أحد العمال ليدلك على مكان سكنك.

وقف زياد ماداً يده لمصافحة الرجل وهو يقول له:

– جزاك الله خيراً يا أخي، سأنفذ كل ما تفضلت به، وسأكون عندك خلال أيام بحول الله.

صافحه المعلم أبو سعد وهو يرد عليه قائلاً:

– توكلنا على الله، فرج الله عن الحاج أبـي حاتم، فهو نعم الأخ والصديق، وبما أنك من طرفه فسأعمل ما أستطيعه لخدمتك.

عاد زياد إلى منزله ليلاً ليخبر سعاد بما حصل معه، ويطلب منها أن تبدأ بتجهيز أمور الأولاد لرحلتهم الأخيرة بإذن الله، كانت مشاعر سعاد متضاربة بشدة بين الفرح والخوف والرجاء، حاولت أن تخفي هذا الاضطراب عن زياد، لكنها عجزت، أمسك زياد بيدها وهو يطمئنها قائلاً

لها:

– سعاد، ستكون هذه رحلتنا الأخيرة بإذن الله، وفي هذه الرحلة أحتاجك بأن تكوني بجواري أكثر من أي وقت مضى، لقد عزمنا أمرنا واستخرنا وتوكلنا على الله، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، لذا عليك أن تتمالكي نفسك وأن تكوني قوية مؤمنة بأن الله يختار لنا الخير حيثما كان.

أجابته بعد تنهيدة قصيرة:

– ونعمى بالله، لا أدري ما سبب هذه النغزة التي أُحسها في صدري، مع سعادتي بأننا سنخطو هذه الخطوة التي ستنهي معاناتنا بحول الله، إلا أن هناك اضطراباً في قلبـي لا أستطيع التحكم فيه، لكن لا عليك، سأسيطر على مشاعري قدر الإمكان. أخبرني ما عليّ فعله بالضبط.

أخبرها زياد بما عليها فعله وبضرورة كتمان الأمر تماماً حتى عن الأولاد لحين مغادرتهم القاهرة خوفاً من أن يخبر أحدهم أصدقاءه بنيتهم المغادرة، وحدد لها ثلاثة أيام لينهي بها كل التزاماته.

أنهى زياد ما بقي من التزاماته مع من حوله، وباع بعض الحوائج التي كانوا يملكونها مما اشتروه مذ قدومهم إلى مصر، وبعضاً مما أحضروه معهم من لبنان، وما لم يستطع بيعه تصدق به على من يعرف. كان جوابه الدائم على أبنائه عند سؤالهم عن سبب هذه التحركات المفاجئة بأنه يعتزم الانتقال إلى مدينة «المنصورة»[28] حيث وجد عملاً مناسباً سيكفيهم شر العوز، فقط فاطمة من علمت من أمها عن نيتهم الهجرة لكثرة سؤالها وعدم اقتناعها بالحجة التي قالها أبوها لهم.

في اليوم المحدد، ودّعت سعاد جاراتها على أمل التواصل والتزاور قريباً بمجرد استقرارهم، كانت المشاعر حزينة، وبخاصة عندما حانت لحظة وداع سعاد لزوجة حسام، فاضت القلوب مما بها من حزن، وكأن كلتيهما كانت تخبر الأخرى بأن الموعد لن يكون في هذه الدنيا.

بمجرد أن تحرك زياد وعائلته في السيارة التي ستنقله إلى «الإسماعيلية» أخرج زياد شريحة هاتفه المتنقل ورمى بها من النافذة، وأمر زوجته أن تفعل الأمر ذاته، ثم أعطاها شريحة بديلة كما فعل هو بجهازه الخاص، استمرت رحلتهم إلى وجهتهم ما يقارب الساعة ونصف، لم يدر بينهم أي حديث سوى بعض الكلمات التي قالها زياد للسائق ليصف له وجهته.

عند وصولهم إلى محل المعلم أبـي سعد الذي اتفق معه على رحلتهم الأخيرة، ترجل من السيارة هو وأولاده، وجعلهم ينتظرون أمام المحل لحين تحديد وجهتهم.

ما أن رأى المعلم أبو سعد زياد وأسرته حتى رحّب به ونادى أحد العاملين كي يرافقه إلى سكنه المؤقت. كان السكن المؤقت قريباً من المحل بحيث لا يحتاجون إلى سيارة لتنقلهم إليه، كان السكن عبارة عن غرفة وصالة صغيرتين فيهما بعض الأثاث القديم، مع حمام ومطبخ صغيرين يقضيان حاجتهم المؤقتة، عاد زياد إلى محل المعلم أبـي سعد بعد أن اطمأن على أولاده في سكنهم كي يعرف منه ما استقر أمرهم عليه.

بدأ المعلم أبو سعد حديثه مع زياد حامداً الله على سلامة وصوله وأهله ثم مطمئناً على أنه التزم باتفاقهما بكتمان أمر سفرهما عن الجميع، وبعد أن أجابه زياد بالإيجاب، قال له المعلم أبو سعد:

- زياد، لقد رتبت لكم أمر رحلتكم بما أستطيع، أثق تماماً بالشخص الذي رتبت معه الأمر، فهو رجل صادق وسمعته جيدة جداً، ولا أعرف أو لم أسمع في مرة من المرات من سنوات عديدة بمن اتهمه بعدم الصدق أو أكل أموال الناس بالباطل، وهذا أهم أمر قد يعينك في رحلتك، فأنت لا تريد أن تقع ضحية تاجر كاذب يلقي بكم إلى التهلكة. ولكن هذا لا يلغي ما قلته لك سابقاً، فالرحلة محفوفة بالمخاطر التي لا يمكن لأحد أن يضمن لك تجاوزها إلا بإرادة الله.

عند هذه الكلمة قاطعه زياد قائلاً:

- أولاً أشكرك جزيل الشكر يا معلم أبا سعد، فما قمت به أكثر مما كنت أحتاجه بكثير، فجزاك الله خيراً، أما عن مسألة المخاطر، فلو علمت ما مررنا به قبل أن أجلس أمامك لهانت عليك حسابات أي مخاطر متوقعة قد نمرّ بها مستقبلاً، وأولاً وآخراً، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا يا معلم، وتوكُلنا دائماً على الله، وإيماننا بحسن تدبيره هو أملنا. ما يهمني الآن ما هي الخطوة التالية، وهل هناك تفاصيل عليّ معرفتها الآن أم أن الأمور لم تصبح جاهزة بعد؟

ابتسم المعلم أبو سعد لرد زياد وأجابه بصوته الأجش الهادئ:

- ونعمى بالله يا أخي، ولكن لا تصح العجلة في مثل هذه الأمور، سأرتب لك لقاء مع المسؤول المباشر عن الرحلة، وهو أمر نادر الحدوث، فعادة ما يتم ترتيب هذه الأمور من خلال منسقين، لكني أحببت أن تكون من أمورك على بيّنة وأن تعرف تفاصيل الرحلة وأن تسمع منه مباشرة عمّا عليك فعله وتجهيزه وما عليك تجنبه، وسأخبرك خلال اليومين القادمين عن موعد لقائه، أما ما يتعلق ببقائكم في سكنكم المؤقت، فسيكون على ضيافتي، وقد أمرت العامل بأن يجهز لكم ما تحتاجونه من مأكل ومشرب لحين موعد رحيلكم، فلا تتردد بطلب أي شيء منه، ولن أسامحك إن علمت بأنك دفعت أي مبلغ لقاء سكنكم أو مؤونتكم خلال إقامتكم في ضيافتي.

أحس زياد بإحراج من الجملة الأخيرة التي قالها المعلم أبو سعد، واحتار في رده عليه، فشكره ثم سلم عليه بشدة وعاد إلى سكنه وهو ينتظر موعد اللقاء المرتقب مع مسؤول رحلتهم الأخيرة.

بعد ثلاثة أيام، أرسل المعلم أبو سعد في طلب زياد، وعند حضوره وجد عنده رجلاً كبيراً في السن، قاسي الملامح، أجش الصوت، سلّم عليهما زياد وجلس منتظراً حديث المعلم أبي سعد، فاتحه المعلم أبو سعد قائلاً:

- هذا المعلم عطية يا زياد، وهو من وعدتك بمقابلته قبل عدة أيام، سله ما شئت، وسيكون صادقاً معك كعادته بحول الله.

قبل أن يتكلم زياد، بدأ المعلم عطية بالحديث متوجهاً لزياد قائلاً:

– أريد أن أخبرك بأمر مهم يا أخ زياد قبل أن تسألني أي شيء، تأكد بأن مكانة المعلم أبـي سعد كبيرة جداً عندي، ولولا ذلك لما كنا نجلس معاً اليوم، ما نقوم به خطير جداً، وخسائره كبيرة في حال فشلنا في أي رحلة نقوم بها، لذا فإن حرصي في الأمر كبير، ولا أترك أي مجال للخطأ أو الغفلة عادة بعد توفيق الله، فهناك أرواح معلقة في رقبتي، ولا أريد أن أقابل الله وأنا مفرّط في دم أحد، لذا أرجو أن أحصل منك على وعد أكيد بأن ما سيدور بيننا من حديث بدأ من دخولك إلى هنا وحتى انتهائنا، سيبقى سراً بيننا نحن الثلاثة، ولن تخبر به أحداً حتى زوجتك أو أولادك.

أجابه زياد وقد انتبهت كافة حواسه مع المعلم عطية:

– لك مني هذا العهد، هل لي أن أسألك الآن؟

أجابه المعلم عطية باهتمام:

– تفضل.

اعتدل زياد في جلسته، ثم سأله قائلاً:

– أولاً، أريد أن أعرف مسار الرحلة بالتفصيل مع الأوقات المتوقعة لكل مرحلة منها.

أجابه المعلم عطية:

– ليس بيدي أن أحدد لك الأوقات بدقة، لكن يمكنني أن أعطيك وقتاً تقريبياً لكل مرحلة، أول مرحلة أن تنتقلوا معي عندما يصبح العدد المطلوب جاهزاً إلى سكن جماعي قريب من نقطة الانطلاق، سنبقى في هذا السكن عدة أيام لن تتجاوز الخمسة أيام بحول الله، وسيكون في إحدى الليالي المعتمة، سيكون الانطلاق قُبيل منتصف الليل، وستستغرق الرحلة إلى نقطة الانطلاق ما يقارب الساعة، ستقلكم حافلة من السكن الجماعي إلى هذه النقطة، بعدها ستحملكم قوارب صغيرة نسبياً إلى خارج المياه الإقليمية، وعادة ما تستغرق هذه الرحلة السبع ساعات أو تزيد بعض الشيء، بعدها ستنتقلون إلى مركب صيد كبير من عدة طوابق، وهو الذي سينقلكم إلى المياه الإقليمية الإيطالية، قد تستغرق هذه الرحلة سبعة أيام أو يزيد، فالأمر متعلق بهدوء البحر وبالرياح. هذا ما أستطيع أن أخبرك به، وبالتفصيل.

سكت زياد قليلاً وهو يفكر بعمق، ثم سأل مرة أخرى:

– أصدقني القول يا معلم عطية، ما هي المخاطر التي قد تواجهنا في هذه الرحلة، وما نسبة وقوعها بعد إرادة الله، فأنا معي زوجة وأطفال، وأريد أن أكون جاهزاً لهذه الرحلة.

نظر إليه المعلم عطية بعمق، نقل بصره بينه وبين المعلم أبـي سعد، ثم أجابه:

– سأكون صادقاً معك يا أخي، كل من يعرف البحر يعرف أن هناك خطراً في ركوبه ولا أحد يستطيع التنبؤ بهذا الخطر حتى وإن أعدّ له كل ما يستطيع، البحر يا أخي كبير عميق، وله صولات وجولات وغدرات لا يأمنها إلا غافل أو مستهتر، ما أقصده يا زياد أنك عندما تكون

في عرض البحر، لن تأمن الرياح والأمواج بأي حال من الأحوال، ما أفعله عادة وأكون حريصاً عليه أن يكون المركب الكبير جاهزاً بمحركين اثنين، وأن يكون قادراً ببنيانه على مجابهة أمواج البحر، وأن يكون قائده من ذوي الخبرة والكفاءة، ومع ذلك لا يوجد نسبة أكيدة أستطيع أن أقولها لك عن عدم مواجهتكم لهذا الخطر، أغلب الرحلات تمت دون أي خسائر والحمد لله، لكن بعضها واجه بعض الأمواج وخسر بعض الركاب رحمهم الله.

أجابه زياد بقلق:

- وهل خسرتم أي مركب قبل ذلك؟

أجابه المعلم عطية بشكل مباشر:

- لا والحمد لله، لكني أعرف أحد المراكب التي غرقت في البحر هي ومن عليها جميعهم، رحمهم الله، وأتوقع أنك سمعت بالحادث المؤلم.

أجابه زياد:

- نعم سمعت به، وهذا ما دعاني لسؤالك، لكني اكتفيت بإجابتك، ولندع الأمر لله. وماذا عن خفر السواحل؟ ألا تعتبره خطراً حقيقياً في رحلتنا؟

أجابه المعلم عطية بابتسامة بعد أن صمت قليلاً:

- يبدو أنك بحثت عن موضوع الرحلة بشكل كبير، نعم يعتبر من المخاطر الكبيرة أيضاً، لكن والحمد لله أستطيع أن أطمئنك بأني تجاوزت هذا الخطر، وعادة ما أنسق مع الحرس قبل أن أبدأ أي رحلة، ويتم الأمر دون أن يعلم أحد بهذا التنسيق بما في ذلك البحّارة الذين يعملون معي في الرحلات، فلا تقلق من هذا الأمر. هل بقي عندك ما تستفسر عنه؟

أطرق زياد قليلاً قبل أن يجيب:

- نعم، وهو آخر سؤال لدي. لو اعتبرتني أخاك أو ولدك، وقد اضطرته الظروف للهجرة من خلال هذه الرحلة، ما الذي عليّ فعله أو تحضيره أو أخذه معي؟ ما التجهيزات التي عليّ أن أقوم بها؟ وما الأشياء التي عليّ أن أتجنبها تماماً؟ بعبارة أخرى، بم تنصحني كي أكون مستعداً أكثر لمثل هذه الرحلة؟

تغيرت ملامح المعلم عطية بعض الشيء وهو ما زال ينظر إلى زياد، أغمض عينيه تأثراً بسؤال زياد غير المتوقع، أو بالطريقة التي طرح بها زياد سؤاله، أجابه بعد فترة من الصمت:

- أتمنى من الله أن ييسر أمركم يا أخي، فوالله كلكم إخوة لي، سأخبرك ببعض الأمور التي عليك عملها قدر الإمكان، أولاً، أحضر ستر نجاة خفيفة وألبسها للجميع، ولكن تحت ملابسهم الداخلية، واحرص على عدم ظهورها نهائياً، فلو رآها البحارة فسيجبرونكم على خلعها، وسيعطونكم ستر نجاة في مركب الصيد الكبير. مع ذلك احرص عليها، ففي لحظة تكون الحاجة ماسة لها سيكون عدم وجودها معناه الغرق لا سمح الله، ثانياً تأكد من أن ترتدي ملابس توفر لكم

الدفء الكافي، حتى وإن أحسستم بالحر أو الرطوبة الشديدة، فالمرض في البحر مع عدم وجود أي عناية طبية قد يعني الهلاك، ثم احرص على أن تكون في وسط القارب الصغير الذي سيقلكم لخارج المياه الإقليمية، واحرص على أن تكون على أطراف مركب الصيد الكبير مع وجود ما تتمسك به أو تربط نفسك به أنت وأولادك في حال ارتفاع الأمواج. هذا ما أستطيع نصحك به.

عند هذه الكلمات، توقف زياد عن الأسئلة، شكر المعلم عطية بشدة، كما فعل مع المعلم أبـي سعد، وقبل أن يخرج من المكتب، سأل المعلم عطية:

- متى سأتوقع انتقالنا إلى السكن الجماعي للبدء بالرحلة؟

أجابه المعلم عطية:

- يعتمد الأمر على اكتمال العدد المطلوب، كما أن معي شركاء أحاول قدر إمكاني أن أمنعهم من زيادة الحمل أو تعريض الآخرين للخطر، نحن الآن في منتصف الشهر الهجري، أي أن الأمر إن سار على ترتيباتنا، فسيكون بعد أسبوعين من الآن تقريباً، وسيصلك الأمر من خلال المعلم أبـي سعد قبل تحركنا بيوم على أقل تقدير.

عاد زياد إلى بيته وكثير من الأفكار تدور في ذهنه، والأصعب بأنه لن يستطيع مشاركة مخاوفه وأفكاره مع زوجته. مرّت أيام الانتظار مملة قلقة على زياد وأسرته، فما بعدها مجهول ومخيف لهم جميعاً، كانت جلساتهم طويلة، أما حديثهم فقليل، كان زياد يتجنب أي حوارات حول رحلتهم كي لا يزرع الخوف في قلوب أبنائه، كانت بعض الحوارات تدور أحياناً بينه وبين زوجته بوجود فاطمة فقط، كان يحاول أن يختم هذه الحوارات بالأمل بالمستقبل الذي ينتظرهم بعد هذه الرحلة، يحاول من خلال ذلك أن يطمئن فاطمة التي يعلم تماماً أنها الأضعف في أسرته من ناحية مواجهة التحديات، ربما لوعيها بنوعية هذه المخاطر.

اقترب الموعد المتوقع لرحلتهم الأخيرة، كان زياد قد جهّز نفسه بكل ما نصحه به المعلم عطية، بل وقام بتجربة كل شيء في منزلهم استعداداً لأي طارئ.

وفي اليوم المحدد جاءه أحد العمال الذين يعملون لدى المعلم أبـي سعد إلى منزله وقال له:

- المعلم أبو سعد يقرؤك السلام ويقول لك كُن مستعداً غداً في تمام الساعة الثامنة مساءً.

شكره زياد وهو يحاول أن يتمالك نفسه، عاد إلى زوجته ينظر إليها بشكل مباشر دون أن يستطيع إخفاء اضطرابه. فهمت سعاد من نظراته بأن الموعد قد حان، أزاحت بصرها عنه كي يخف احتقانه، انتظرت حتى نام أولادهما جميعاً لتسأله:

- هل حان الموعد يا زياد؟

أجابها بعد تنهيدة:

– نعم، لقد حان، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن سهلاً.

أجابته وهي تمسك بيده:

– ولم كل هذا الاضطراب يا زياد، لقد عزمنا أمرنا وتوكلنا على الله، وأنا معك في هذه الرحلة، نتشارك بها كما تشاركنا في كل أمور حياتنا.

أجابها وهو ينظر إلى عينيها بشكل مباشر:

– لا أدري ما سبب القلق المفاجئ الذي انتابني عندما أخبرني الرجل أننا سنبدأ رحلتنا غداً، وكأن نغزة أصابت قلب.ي فجأة، مرّت عليّ كل الأيام السابقة وأنا أنتظر هذه الليلة، والآن أنا مضطرب قلق متوجس منها، لا حول ولا قوة إلا بالله.

أجابته بحنو:

– لا تقلق، فمذ هاجرنا من بلدنا ونحن مؤمنان بأن الخير في ما يختاره الله، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هيا لنخلد للنوم، فلربما حُرمنا من النوم لأيام عديدة.

قام زياد في صباح اليوم التالي وتوجه إلى محل المعلم أب.ي سعد، سلّم عليه وشكره بشدة على كل ما قدمه له، وودعه على أمل أن يلتقيا يوماً ما في سوريا بعد أن يفرج الله كربهم.

انطلق زياد مع أسرته في نفس الموعد المحدد مساء ذلك اليوم، كانت حركتهم مضطربة مترددة، نقلتهم سيارة خاصة من مكان سكنهم إلى منزل واسع موجود في منطقة معزولة داخل مزرعة، وكان فيها عدة رجال متفرقون عند مدخل المزرعة وحول المنزل.

عند نزولهم من السيارة ودخولهم المنزل حسب توجيه السائق لهم، وجدوا رجلاً قادهم داخل المنزل إلى غرفة منزوية وهو يقول لهم:

– ستجلسون جميعاً في هذه الغرفة ريثما يحين موعد الانطلاق، كونوا مستعدين دائماً للانطلاق، والذي سيكون خلال اليومين القادمين، ستجدون في هذه الغرفة ما تحتاجون إليه خلال إقامتكم هنا، وسيتم توزيع الوجبات عليكم بشكل دوري، هناك دورة مياه مشتركة في هذا القسم تستطيعون استخدامها في أي وقت، من غير المسموح خروجكم من هذا المبنى تحت أي ظرف إلا حين يتم استدعاؤكم، وإن احتجتم لشيء ما فستجدون من يلب.ي طلبكم.

أنهى الرجل كلامه وتركهم حيث يقفون أمام الغرفة وانصرف، دخل الجميع الغرفة ليجدوا فراشاً أسفنجياً أرضياً كبيراً يكفي لشخصين، وبعض الوسائد الملقاة بشكل عشوائي، بالإضافة لبعض الألحفة، دخل زياد وأسرته إلى الغرفة وجلس على حافة الفراش، وأجلس أحمد في حجره وهو ينظر بابتسامة خفيفة إلى الباقين كي يتبعوه، بادرته زهرة في الكلام سائلة:

– أب.ي، لم جئنا إلى هنا؟ هل هناك من يلاحقنا؟ هل علينا أن نخاف من شيء ما؟

احتضنتها أمها وسارعت في إجابتها قبل أن يرد عليها أبوها، قائلة:

- لا يا حبيبتي، ليس علينا أن نخاف من أي شيء أبداً ما دام الله معنا، نحن نتصرف بهذه الطريقة زيادة في الحرص ليس إلا، وأريد أن أبشركم بشيء آخر، لقد عزمنا أمرنا أنا وأبوكم على أن نهاجر جميعاً إلى إيطاليا. فما رأيكم؟

قفز أحمد من على حجر أبيه صارخاً:

- نعم، أنا موافق، بشرط، ألا يكون هناك حرب في إيطاليا. لكن هل المسافة طويلة من هنا لإيطاليا؟ وهل سنركب الطائرة مرة أخرى يا أمي؟

عاد زياد وأمسك بابنه أحمد من يده ثم احتضنه وهو يداعبه قبل أن يجيبه ناقلاً بصره بين أبنائه جميعاً:

- لا تخف يا حبيبي، لا يوجد حرب أو شقاء في إيطاليا، وستكون الرحلة الأخيرة بإذن الله، سيكون وقت الرحلة طويلاً بعض الشيء، لكن في البحر وليس في الجو، أي أننا سنركب في السفينة، وليس الطيارة هذه المرة.

صرخ أحمد فرحاً مرة أخرى وقام يصفق ويتراقص، بينما سألت هبة بفزع:

- هل حقاً سنسافر بالبحر يا أبي، أنا أخاف من البحر جداً، ولقد سمعت عن مخاطر السفر بالبحر وبأن المهاجرين عبر البحر يموتون غرقاً.

تدخلت سعاد مرة أخرى مطمئنة إياها وهي تقول:

- لا يا ابنتي، ستكون رحلتنا آمنة بحول الله، ثم تذكري دائماً ما علمتكم إياه، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ولقد استخرنا الله كثيراً قبل أن نقرر القيام بهذه الرحلة، ولن يختار الله لنا إلا الخير، وسنكون معاً بكل حال، فمم الخوف يا ابنتي؟ لنرتحْ الآن ولنكن مستعدين لهذه الرحلة، وهذا الكلام لكم جميعاً، وسيكون الله معنا.

انتهت هذه الكلمات وساد السكون الغرفة، انشغل أحمد مع أختيه هبة وزهرة، أما فاطمة فأسندت رأسها إلى كتف أمها وهي تحتضن يدها، واستلقى زياد منتظراً وقت الرحيل.

قبيل منتصف الليل من اليوم التالي، طُرق باب الغرفة، هبّ زياد فزعاً بشكل غريب، أثار فزعه انتباه أولاده وزوجته، استترت سعاد وفاطمة بحجابهما قبل أن يفتح زياد الباب، فتح الباب ليجد رجلاً يقول له:

- أحضر أولادك وتعالَ إلى الخارج خلال دقائق، هناك سيارة نقل ستنقلكم الآن حيث القوارب، أسرعوا.

أغلق زياد الباب والتفت إلى أولاده الذين سمعوا كلام الرجل، هبَّ الجميع واقفين وبدأت سعاد بترتيب هندام أبنائها وبالتأكد من أنها حزمت أمورهم بشكل جيد، تأكدت من ملابسها أيضاً، بدأت تنقل نظرها بين أبنائها وبين زياد، اقترب منهم زياد وفتح يديه ليحتويهم جميعاً وهو يقول:

- هيا قولوا ورائي جميعاً، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إن شئت سهلاً، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هون علينا سفرنا هذا واطوِ عنا بعده، اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم قنا من وعثاء السفر وكآبة المنظر وسوء المنقلب في المال والأهل. اللهم آمين.

فردد وراءه الجميع قائلين: آمين.

خرج زياد وأولاده في عتمة الليل ليجدوا سيارة نقل ركاب صغيرة قديمة بانتظارهم، وكانت شبه ممتلئة برجال ونساء وأطفال. ركب الجميع السيارة وانطلقوا في بداية رحلتهم الأخيرة.

رحلة الهروب إلى الموت..

- هيا لينزل الجميع بسرعة، أسرعوا إلى القارب الذي يرسو بجوار الشاطئ، الجميع يركض بأقصى ما يمكنه، لو رآكم حرس الحدود سيقبضون عليكم ولن تستطيعوا بعدها الإفلات من قبضتهم، تحركوا بسرعة.

هكذا بدأ يصرخ سائق الحافلة التي تُقل زياد وعائلته وعشرين آخرين بين رجل وامرأة وطفل، كانت طريقته في الصراخ المفاجئ تبعث الهلع في قلب الجميع.

بدأ الجميع بالترجل من الحافلة المهترئة والهرولة إلى الجهة التي أشار إليها السائق، زياد يحمل ابنه أحمد بيده اليمنى، ويسحب باليد اليسرى ابنته زهرة، أما فاطمة وهبة فكانتا تمسكان بيد أمهما. وها هو يرى معنى الخوف على هذه الوجوه البريئة مرة أخرى، لعلها تكون المرة الأخيرة. كانت المسافة تتجاوز المائة متر بقليل، أرض رملية غير مستوية، عتمة كالحة، الخطوات متعثرة، والاتزان شبه مفقود، ينقل بصره بين غايته وبين زوجته، والمسافة بينهما تتزايد مع كل خطوة يخطوها، كانت سترات النجاة التي يلبسونها تحت ملابسهم تثقل حركتهم شيئاً ما، تذكر في هذه اللحظات توصيات المعلم عطية وما حذره منه بأنه يمنع منعا باتاً حمله هو وأفراد أسرته أي شيء بأيديهم يثقل حركتهم، وحتى تحذيراته له بأن لبسهم لسترة النجاة غير مسموح لأن ألوانها تلفت النظر من بعيد، على أنهم سيوزعون عليهم ستر النجاة بعد أن يتجاوزوا منطقة مراقبة حرس الحدود. بدأت أصوات بناته تعلو شيئاً فشيئاً من الخوف والتعب مع سرعة المشي على هذه الرمال الرطبة، حتى الرائحة المنتنة صارت تثقل على أنفاسهم اللاهثة، أبطأ قليلاً وهو يلتفت إلى زوجته، ناداها بصوت مبحوح:

- سعاد، عجلي أرجوك، افعلي ما بوسعك، أسرعي قدر استطاعتك، لا يوجد خط للتراجع الآن، أرجوك ابذلي جهداً أكبر.

أجابته ووجهها يملأه الخوف والاضطراب، وأنفاسها تتلاحق:

- لا تلتفت إلينا، أسرع في طريقك ونحن خلفك، لا تلتفت.

حمل زياد ابنته زهرة وألقاها على كتفه وهو ما زال يحمل أحمد بيده اليمنى، وأخذ بالجري بشكل أسرع وأشد، لم تمضِ لجظات حتى وصل إلى القارب. كان القارب يرسو في الماء على بعد عشرة أمتار أو يزيد حتى لا يعلق في أتربة الشاطئ، كان زياد أول الواصلين، أحس بالماء وبرودته قد وصلت إلى وسط جسمه، ووجد على متن القارب رجليين، أحدهما يقف في مقدمة القارب ينظر إلى البعيد، والآخر يحفزه على الإسراع، ملامحهما كلها قسوة واكفهرار. بادره الرجل الواقف في خلفية القارب صارخاً:

- ناولني الصغار بسرعة.

وبشكل لا إرادي استجاب له زياد بأن ناوله أحمد أولاً، فما كان من الرجل إلى أن تناول أحمد الصغير من يده وتلّه وكأنه يحمل كيساً من الأرز، ورماه بشكل تلقائي على سطح القارب، مما جعل أحمد يفزع باكياً بشكل مباشر وهو يصيح «بابا».

صرخ زياد بالرجل والغضب بادٍ على وجهه:

- على مهلك يا رجل، هذا طفل صغير.

فما كان من الرجل إلا أن رد عليه بشكل عنيف:

- وهل تظن أني أعمل عند أمك.

أرعب هذا الرد زياد، فوراءه ما وراءه، تحوقل بينه وبين نفسه وناوله ابنته زهرة، ولكن هذه المرة حملها بشكل كامل ليوفر عليها ألم السحب من هذا الرجل الغبي. مدّ الرجل يده لزياد ليساعده على الصعود للقارب، لكن زياد تجاهله وعاد أدراجه ليساعد زوجته سعاد في اجتياز هذه الأمتار المائية، وصل إليها قبل أن تصل للماء، حمل هبة وأمسك بيد سعاد التي بدورها كانت ممسكة بيد فاطمة، خاضوا هذه الأمتار بصعوبة، ناول ابنته هبة للرجل الذي على القارب وهو يدفعها للأعلى، صرخت من الألم وأبوها يصبرها، ثم أمسك بدوره بيد الرجل ليعاونه على الصعود، وقام بدوره بمساعدة فاطمة وسعاد على الصعود للقارب، ما أن أصبحوا جميعاً على القارب حتى وجههم الرجل الواقف في مقدمة القارب إلى التوجه للمقدمة ليتمكن الآخرون من الصعود، ضمت سعاد أبناءها إليها وهي تحاول تهدئة روعهم شيئاً ما، مع الخوف البادي على وجهها.

وقف زياد بجوار الرجل الجلف في مؤخرة القارب ليساعده في إركاب باقي الهاربين. صعد جميع من كان بالحافلة الصغيرة مع زياد على متن القارب الصغير، إلاّ أن القارب لم يتحرك، بقي واقفاً وكلا البحارين ينظر إلى عدة جهات وكأنهم ينتظرون شيئاً ما، مرت عدة دقائق على هذه الحال، سكون مطبق، لا يكاد أحدهم يسمع شيئاً سوى أنفاس من هو بجواره، ظهر بعدها أثر لأشخاص يهرولون باتجاه القارب من جهتين مختلفتين، بعث هذا الأمر الخوف والفزع في قلوب بعض من يجلسون في القارب، فالقارب صغير، وبالكاد يكفيهم، بدأ وصول الأشخاص للقارب، وبشكل لا إرادي قام زياد من مكانه وبدأ يساعد النساء والأطفال بالصعود دون أن ينبس ببنت شفة، كان يستمع لتوجيهات أحد البحارة للراكبين الجدد بالتوجه لأنحاء القارب وترك مسافات للبقية كي يصعدوا على متنه. سمع زياد من خلفه صوت أحد الرجال كبيري السن وهو يخاطب أحد البحارة قائلاً له:

- لن يكفي هذا القارب للمزيد من البشر، أنتم تعرضون أرواحنا للخطر بهذه الطريقة.

فأجابه البحار بصفاقة وحِدَّة:

- اجلس في مكانك وأعرنا صمتك، وإن كنت خائفاً على حياتك فيمكنك النزول الآن والعودة من حيث أتيت، لا أريد أن أسمع صوتك نهائياً حتى وصولنا لهدفنا، هل كلامي واضح؟

سكت الرجل العجوز وعاد إلى الزاوية التي كان يجلس بها وهو كسير النفس.

اكتظ القارب الصغير بمن عليه، حتى أن من يراه يكاد يجزم بأنه لا يمكن إضافة أي شخص عليه مهما كان صغيراً، عدّ البحارة الوجود ثم بدأ أحدهم بتوجيه كلامه للموجودين قائلاً:

- سنتحرك الآن باتجاه المياه الإقليمية حيث سننتقل إلى سفينة الصيد التي ستُقِلّكم لشواطئ إيطاليا، ما يهمني الآن أن تلتزموا بالتعليمات بشكل حرفي، الجميع يخفض رأسه، من كان يحمل هاتفاً نقالاً عليه الآن أن ينزع الشريحة والبطارية، وكل من يرافقه أطفال عليه أن يتأكد من صمتهم تماماً، فإنه إن تم القبض علينا من قبل خفر السواحل سيكون مصيرنا جميعاً السجن، ولن نسمح بذلك، سنسير ببطء شديد لحين الخروج من تحت مراقبة خفر السواحل. لنقرأ الآن جميعاً سورة الفاتحة على نية التوفيق.

رفع الجميع أيديهم للسماء وبدأوا لا إرادياً بقراءة الفاتحة.

قال رجل كبير في السن كان يجلس بين الهاربين بصوت خافت:

- أذكر الله يا ولدي وأرفق بنا، فلقد عانينا الأمرين، ونحن في غنى عن أي ضغوط زائدة منكما.

أجابه الرجل الثاني بلهجة قاسية مقيتة وهو يبتسم:

- التفت لأمورك يا عم الحج، ووفر نصائحك، فلربما تحتاج لبعض الطاقة كي لا تموت في هذه الرحلة الممتعة.

ساد الصمت المطبق بعد هذا الرد، ولم يعد يُسمع سوى صوت محرك القارب وأنفاس الأشخاص القاطنين فيه.

بعد ما يقرب الساعتين وقبل بدء الفجر بالبزوغ، همهم العجوز بصوت خافت، نويت صلاة الفجر لله تعالى، نظر لمن حوله وهو منحني الرأس علّه يجد من يشاركه في صلاته، أومأ له زياد بإشارة القبول، وكذلك فعلها بعض الرجال بشكل تلقائي، كبّر الرجل بصوت خافت وبدأ صلاته على الحالة التي هم فيها، وتبعهم بعض النسوة، لم يبق سوى شاب واحد كان مطرق الرأس، لكن دون أن يشاركهم. عندما انتهوا من صلاتهم، بادر الشاب بالقول بصوت خافت:

- تقبل الله يا جماعة، أنا مسيحي.

نظر إليه العجوز بابتسامة هادئة، وأومأ له، بعد وقت قليل، وبعد أن بدأ النهار بالبزوغ، بدأت الأنظار تنتقل بين قاطني هذا القارب، وفي كل نظرة تجد عشرات الرسائل المفهومة، كانت النظرات متفحصة في الوجوه، وفي الأرواح بنفس الوقت.

بعدها بدقائق سمع الجميع صوت طلقات نارية آتية من البعيد، كان الصوت واضحاً جداً بسبب الهدوء الشديد الذي كان يخيم على المكان. بمجرد أن سمع البحارة هذا الصوت أطفأوا المحرك وانحنوا جالسين بين بقية الركاب وهم يقولون همساً:

– ليخفض الجميع رأسه، والتزموا الصمت تماماً.

كان هذا التصرف كفيلا بأن يبعث الذعر في قلوب الجميع، بعض الأطفال بدأ يتأوه من الاضطراب، لكن الأمهات كنّ يفعلن ما يستطعن لكتم أصوات أطفالهن. كانت دقائق عصيبة جداً على الجميع، سمع الموجودون على المركب البحارة يتهامسون:

– يبدو أن خفر السواحل قبضوا على مركب حمادة، فالصوت جاء من منطقة انطلاقه.

أجابه الآخر:

– يبدو ذلك بالفعل، هل علينا الانتظار طويلاً؟ أم نستمر بالتحرك ونكسب الوقت للخروج إلى المياه الدولية. خاصة أنهم الآن سيكونون مشغولين بالصيد الذي حصلوا عليه، وستساندهم باقي الفرق في تحركهم. ما رأيك؟

فأجابه الأول على الفور:

– نعم، أرى ذلك أفضل، لننتظر بعض الوقت حتى تهدأ الأمور أولاً، ثم نسير بشكل أسرع بعض الشيء لنعوض الوقت الذي ضاع.

عاد القارب للسير بعد ساعة من هذا التوقف، والذي أرهق الجميع بما فيهم البحارة، وعادت النفوس لهدوئها السابق، وكل واحد من الركاب له عالمه الخاص الذي يبحر فيه.

كان القارب يحمل ما يزيد عن سبعين شخصاً بين رجل وامرأة وطفل، بدأ زياد يجول بنظره متأملاً بين الحضور علّه يعرف أحدهم، استطاع أن يميز القريبين منه، شابين مصريين، وشاب سوري، وعائلة سورية مكونة من امرأتين شابتين وامرأة عجوز ورجل عجوز وثلاثة أطفال، وعائلة أخرى فلسطينية مكونة من رجل في الثلاثين من عمره وامرأة عجوز وأخرى شابة، بدأ التعارف بين الجالسين بالأسماء المجردة، ومن اللهجة عُرف كل فرد لأي منطقة ينتمي. بدأت الشمس تعلو شيئاً فشيئاً، ومع كل لحظة تمرّ تزداد حرارة الشمس، وتزداد معها نبضات القلوب الخائفة. رائحة العرق، وأنفاس الأطفال اللاهثة، وتنهدات العجّز المتعبة، وشيء من الهمسات المسبِّحة تعلو وتخفت بين الوقت والآخر.

بدأت أصوات الأطفال تنادي ببكاء مكتوم، فالعطش والتعب مع الخوف أضناهم، اعتدل الرجل العجوز «أبو محمد» بجلسته، وتوجه لأحد البحارين مخاطباً بلهجة فيها رجاء:

– ألا يوجد لديكم ماء نعطيه لهؤلاء الأطفال يا ولدي، الشمس أرهقتهم، ولا يحتملون هذه الأجواء، أنظر إليهم يا ولدي.

أجابه الرجل بنبرة فظة:

– لدينا كمية محدودة من قوارير الماء، لكل شخص قارورة واحدة فقط، وما زال أمامنا حوالى الثلاث ساعات، إهدار الماء لن يفيد، سنوزع عليكم الماء بعد قليل، الزم الصمت وتابع همهماتك.

تنهد الشيخ أبو محمد، ورد عليه:

- لكن يا ولدي هؤلاء أطفال ولا...

سكت عن إكمال حديثه عندما أحس بيد زياد تربت على يده وهو يومئ له بعينيه بما يوحي بأن الجدل مع هؤلاء لن يجدي نفعاً.

بدأ التعب والإرهاق يظهر على الجميع، فالأمواج بدأت بالارتفاع، مما سبب اهتزازات أكثر للقارب، وبدأت علامات الغثيان ودوار البحر تظهر على النساء وكبار السن من الرجال، كانت تسمع أصوات متقطعة بين الفينة والأخرى من البعض عند كل اهتزازة عنيفة يتعرض لها القارب.

لم يمرّ الكثير من الوقت وهم يسيرون بهدوء قاتل، لا يسمع شيء سوى صوت المحرك الخافت وصوت عُباب البحر، وبعض التنهيدات المتقطعة، انتبه زياد للبحار الذي في مقدمة القارب وهو يشير بيده لزميله لنقطة ما باتجاه الشمال، حاول زياد أن يمعن النظر في الجهة التي أشار لها البحار، استطاع أن يرى نقطة صغيرة تشبه المركب الكبير يقف في وسط البحر، أحس زياد بانقباضة في قلبه ولا يدري ما سببها، أخفض رأسه مرة أخرى وشرع في ذكر الله وتسبيحه ودعائه.

لم تمضِ أكثر من نصف ساعة حتى قطع السكون صوت البحّار الذي يقف في مقدمة القارب موجهاً كلامه للجميع:

- اسمعوني جيداً، سنصل للمركب الرئيسي الذي سينقلكم لشواطئ إيطاليا خلال ساعة، عندما نصل ستنتقلون إليه بهدوء، ستكونون آخر الواصلين إليه، بمعنى أنه سيسير مباشرة فور انتقالكم إليه، وسيكون المركب مزدحماً، لذا عليكم الانتقال إليه بحذر شديد، وحاولوا أن تضعوا الأطفال والنساء في وسط المركب كي لا يؤثروا على توازنه إن فزعوا من شيء أثناء الرحلة.

كانت هذه الكلمات كافية لتبعث الروح لجميع من في القارب الصغير، فها هي سفينة الخلاص باتت أمام أعينهم، تغيرت الملامح وتهللت الوجوه وظهرت الابتسامات وسُمعت بعض التكبيرات تخرق الصمت البهيم، حتى أن بعض الأمهات بدأن يشرن إلى المركب لأطفالهن كي يبعثوا فيهم الفرح والطمأنينة.

مرت هذه الدقائق سريعة لما رافقها من فرح وحماس لدى الجميع، اقترب قاربهم الصغير من مركب الصيد الكبير بهدوء شديد، ومع كل لحظة يقترب فيها القارب، تتبدل عند البعض الابتسامة ليحل محلها علامات الخوف والقلق. فلقد كان مركب الصيد ذو الطابقين والذي لا يتجاوز طوله العشرين متراً ملبئاً عن بكرة أبيه، بدأت هذه الأسئلة المخيفة تشغل تفكير زياد: كيف سينتقلون لهذا المركب؟ أين سيجلسون؟ كيف سيبحر بنا؟ ألا تتضاعف المخاطر مع وجود هذا العدد الكبير على مركب صيد بهذا الحجم؟ وبالوقت نفسه كان مدركاً تماماً أن كل ما يفكر به لن يغير من هذا الواقع شيء، فهو الآن مع عائلته في عرض البحر، ولا خيارات أمامهم.

وصل قاربهم الصغير لمركب الصيد من الخلف، كان بعض البحارة على المركب الكبير

بالانتظار، وبأيديهم بعض الحبال لسحب القارب وربطه وتثبيته في المؤخرة ليتمكن الركاب من الانتقال إلى مركبهم بشكل آمن. ما أن انتهوا من عملية التثبيت حتى صاح أحد البحارة بالركاب:

- أعطوني الأطفال أولاً حتى لا يسقط أحدهم في الماء أثناء الانتقال.

بدأت الحركة على القارب الصغير، ومعها بدأ القارب بالاهتزاز بشكل عنيف، وكان الموج أحد عوامل هذه الاهتزازات العنيفة، ومع هذه الحركة كان الكثير يفقد توازنه، لكن الازدحام وتمسك الجميع ببعضهم كان يحول دون وقوعهم.

تم نقل كافة الأطفال بما فيهم أحمد وزهرة وهبة إلى المركب الكبير بأمان، وبدأت المرحلة التالية في انتقال السيدات وكبار السن، كان البحارة يوجهون الأطفال لداخل المركب المزدحم ويؤشرون لمن كانوا عليه سابقاً بأن يهتموا بالأطفال لحين صعود أهلهم على المركب، بدأ كبار السن بالانتقال للمركب الكبير بصعوبة شديدة، كل واحد منهم يلقى معونة من أربعة بحارة من الطرفين حتى لا يسقط في البحر، ومع تناقص العدد شيئاً فشيئا من القارب الصغير، صارت حركته واهتزازه أكثر عنفاً، انتقلت كافة السيدات، ولم يبق سوى سعاد وفاطمة، كانت فاطمة تعاني بشكل واضح من إعياء شديد بسبب رحلتهم المخيفة بالقارب، كانت ممسكة بأمها بشكل عنيف جداً لا تريد أن تفلتها بأي حال من الأحوال، أشار زياد لسعاد بأن تبدأ بالتحرك حتى تعينه بالطرف الآخر من المركب في انتقال فاطمة، حاولت سعاد التحرك وأن تفلت يد ابنتها فاطمة، إلا أن فاطمة بقيت متمسكة بها بشدة وعلامات الرعب بدأت ترتسم على وجهها أكثر، أدرك زياد ما تعانيه ابنته فاحتضنها وهو يهمس في أذنها:

- لا تخافي يا حبيبتي، دعي أمك تنتقل بهدوء للمركب، وستقوم بمساعدتك بدورها لتلحقي بها، ها نحن قاربنا على تجاوز كل المحن، أرجوك يا حبيبتي ساعدينا.

نظرت فاطمة إلى عيني أبيها علها تأخذ منهما الأمان والقوة، أفلتت أمها وهي تتمسك بأبيها بشدة. في هذه اللحظة انطلقت سعاد قافزة إلى المركب الكبير دون أي مساعدة.

جاء دور فاطمة، فلم يبق غيرها من النساء على القارب الصغير، وأصبحت حركته شديدة ومزعجة، حتى أن صوت احتكاك أطرافه بأطراف المركب أصبح مخيفاً، بدأ البحارة بالصراخ في وجه فاطمة كي تسرع بالقفز للمركب الكبير وهي ما تزال متشبثة بأبيها ترفض تركه أو التحرك، قام بعض الرجال باستغلال هذه الفجوة الزمنية والانتقال للمركب الكبير، بدأ زياد بدفع فاطمة بهدوء تجاه الحافة، وأمها تناديها بصوت حانٍ من الطرف الآخر كي تنتقل لعندها، عندما وصلت فاطمة لطرف القارب وهمّت بالانتقال للمركب، اختل توازنها إثر موجة كبيرة مفاجئة ارتطمت بالقارب، مما جعلها تصرخ فزعة وتسقط في البحر بين القارب والمركب، صرخ بها أحد البحارة قائلاً:

- ابتعدي بسرعة قبل أن يهرسك القارب، لن تستطيعي النجاة إن علقتِ بين القاربين.

في هذه اللحظة علا صوت الرجال وهم يصيحون بها كي تبتعد، أما زياد فلم يتمالك نفسه، قفز وراء ابنته مباشرة، أحاط بها وأخذ يحاول دفع جسديهما برجله معتمداً على القارب

الصغير، كان يشعر بارتطام طرف القارب الصغير بكتفه ورأسه دون أن يأبه بذلك، مرت دقيقة حتى استطاع الابتعاد بابنته عن خطر إصابتهما بين القارب والمركب، لكنه أحس بإعياء شديد لا يدري ما سببه، لحظات مرت وهو يرى البحارة يحضرون حبلاً به دولاب الإنقاذ ليرموه لهم، وفي الوقت نفسه يسمع صوت البحارة يصرخون بمن بقي على القارب بأن يسرعوا بالانتقال للمركب الكبير كي لا يتكرر المشهد، أمسك زياد بدولاب الإنقاذ الذي رُمي إليه، وضعه حول ابنته وبقي متمسكاً به، وأحد البحارة يسحبهما باتجاه المركب بعد أن تم إبعاد القارب الصغير عن المركب مع بقائه مربوطاً بمؤخرته. استطاع زياد أن يصعد للمركب بمساعدة بعض الرجال والبحارة بعد أن أخرج ابنته من الماء، ما إن وصل للمركب حتى تمدد على سطحه مع إحساسه بإعياء شديد وهو ينظر لابنته في أحضان أمها وهي تحاول التهدئة من روعها. ابتسم ابتسامة خفيفة ثم غاب عن الوعي.

استعاد زياد وعيه بعد دقائق على أثر رائحة عطر نفاذة، وجد حوله زوجته وأبناؤه يقفون خلفها، وأحد البحارة وبعض الرجال، سمع أحداً يخاطبه قائلاً له:

- حمداً لله على سلامتك أستاذ زياد، لا تخف فالمسألة بسيطة.

انتبه زياد لما حوله وقام من تمدده، نظر إلى الجميع، أشار لأبنائه كي يأتوا إليه، ثم قام باحتضانهم جميعاً مع أمهم وهو يحمد الله بصوت خافت.

قال له الرجل نفسه وهو يعطيه قارورة صغيرة من الماء:

- اشرب بعضاً من الماء، فأنت بحاجة إليه، لا بأس عليك.

شرب زياد الماء وبقي هادئاً وهو يحيط بأبنائه. انتبه جميع الحضور إلى صوت أحد البحارة وهو يخاطب جميع الركاب بصوت عال قائلاً:

- انتبهوا جميعاً، رحلتنا هذه ستستغرق حوالى السبعة أيام حتى نصل إلى شواطئ جزيرة «لامبيدوزا»[29] الإيطالية، ويعتمد الأمر على الرياح والأمواج، هناك بعض الأمور المهمة التي أود التنبيه عليها، اسمي الريس عطية، أنا قبطان هذه السفينة، سيكون معنا ستة بحارة مسؤولون عن تسيير أمور هذه الرحلة، ستتعرفون على أسمائهم لاحقاً، التعليمات التي سأقولها لكم على الجميع الالتزام بها حتى تصبح رحلتنا أقل عناء وجهداً، أول هذه الأمور تقسيم الركاب على هذه السفينة، سيجلس الرجال على سطح السفينة في الدور العلوي، أما النساء والأطفال فسيكونون في الدور الأرضي وفي الدور السفلي حيث يوجد بعض الأسِرّة للراحة، سيتم توزيع وجبتين يومياً، أرجو أن تكونا كافيتين، ولا ننسى أهمية الاقتصاد في الأكل والشرب حتى تكفينا المؤونة إن صادفتنا صعوبات أدت إلى تأخرنا في الوصول، يوجد في الدور الأرضي دورة مياه واحده، من الضروري جداً استخدامها بشكل جيد وعدم الإسراف في صرف المياه، فقد نحتاج لها إن تعرضنا لأي تأخير. أخيراً، سيتم توزيع ستر النجاة عليكم الآن، على الجميع ارتداؤها وعدم نزعها لأي سبب من الأسباب، وبخاصة الأطفال، هذا ما لدي الآن، لنقرأ الفاتحة على نية التوفيق والسلامة.

رفع الجميع أيديهم وهم يقرأون الفاتحة ويوجهون نظرهم للسماء بعيون يملؤها الرجاء بأن

ييسر الله لهم هذه الرحلة...

بدأت رحلة النجاة بالنسبة إلى زياد وأسرته وهو يتأمل من بعدها راحة من كل المعاناة التي عاناها خلال السنة التي مضت، لم يكن حينها مستعداً لتذكر أي شيء يتعلق بهذه السنة، كان تفكيره منصباً على وضعه الحالي وما ينتظره من تحديات خلال الأيام القادمة.

كانت السفينة تعج بالركاب بما يزيد عن مائتي شخص بين رجل وامرأة وطفل، وزياد لا يزال جالساً في مكانه تحيط به أسرته بعد الحادث العرضي الذي تعرضت له ابنته فاطمة وكاد أن يودي بحياتهما معاً.

أول شخص تعرف إليه زياد في هذه الرحلة هو الدكتور ضياء، فهو الذي كان يجلس بجواره بمجرد أن استعاد وعيه.

بدأ مركب الصيد في سيره بهدوء يمخر عباب البحر، وبدأ معه تحرك الركاب في أرجائه بهدوء، وشيء من الإعياء بادٍ على وجوه الجميع، فمعظمهم كان لا يزال يعاني من رحلة القوارب الصغيرة، عدا عن الاضطراب والقلق الذي انتابهم من حادثة فاطمة ابنة زياد، كان زياد يراقب هذه التحركات بهدوء وهو ملقٍ رأسه على رجل زوجته سعاد التي بقيت محتضنة رأسه مذ أغمي عليه، خاطبها زياد بصوت خافت قائلاً:

– سعاد، خذي الأولاد وجدي لكم مكاناً مناسباً لترتاحوا فيه، ولا عليك مني، فأنا أصبحت بحالة أفضل، الطريق طويلة وأنتم بحاجة إلى الراحة، واهتمي جيداً بفاطمة، فالإعياء بادٍ على وجهها.

عقّب الدكتور ضياء الذي ما زال يقف بجوارهم على كلامه قائلاً:

– نعم يا أختي، كلام الأخ صحيح، أنتم بحاجة للراحة، وبالذات الأطفال، ولا تشغلي بالك بالسيد، فسأبقى بجواره حتى أتأكد بأنه بخير وعافية، أنا طبيب، وحالته لا تدعو للقلق، فلم يتعد الأمر عن جرح بسيط في الرأس وبعض الرضوض في الكتف جراء ارتطامه بقاع القارب الصغير، وسيتعافى منها تماماً خلال أيام قليلة، وهي لن تعيق حركته أو تؤثر عليه بأي شيء إن شاء الله.

مدّ زياد يده مسلماً تجاه الدكتور ضياء وهو يقول:

– أشكر أفضالك دكتور ضياء، أنا زياد من حمص، وهذه زوجتي سعاد، وهؤلاء الأربعة أبنائي. جزاك الله عنا كل خير.

فجاوبه الدكتور ضياء بلكنة دمشقية واضحة:

– لا عليك يا أخي زياد، فلم أقم بشيء بعيداً عن واجبـي.

تحركت سعاد بهدوء محاولة ضم أبنائها كي تبحث لهم عن مكان مناسب يستقرون فيه، وقبل أن تبتعد سمعت زياداً ينادي على ابنته فاطمة، أدارت وجهها لترى زياداً فاتحاً يديه وهو

ينظر إلى ابنته داعياً لها لاحتضانه. عادت فاطمة باتجاه أبيها رامية نفسها بين أحضانه وهي تجهش بالبكاء. فما كان من زياد إلا أن احتضنها وهو يربت على رأسها ويهمس في أذنها:

– لا تخافي يا ابنتي، الحمد لله على سلامتك، توكلي على الله ولا تخافي، «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، ها أنت بخير وعافية والحمد لله، أمك بحاجتك يا ابنتي، فكوني لها عوناً، الحمد لله نحن الآن بأمان، ولم يبقَ علينا سوى أيام قليلة، وتنتهي محنتنا للأبد بحول الله، لكن عديني بأن تكوني عوناً لأمك.

مسحت فاطمة دموعها وهي تجيب أباها بصوت باكٍ:

– إن شاء الله يا أبي، أعدك.

عادت فاطمة لأمها وإخوتها يبحثون بأعينهم عن مكان مناسب يجلسون فيه، بدأت سعاد تتحرك ببطء وهي تلتفت باحثةً عن مكان يكفيها هي وأولادها بين هذه الجموع، بقيت على هذه الحالة عدة دقائق، كانت تتنقل بصرها بين الوجوه علّها تنال رحمة من إحداهن فتفسح لها ولأولادها المجال كي تستقر فيه، فتأخرهم في الوصول إلى السفينة، ومن ثم تأخرهم في الصعود إليها وما حدث من سقوط فاطمة جعلهم آخر من يحاول إيجاد مكان مناسب للجلوس ضمن هذا الكم الكبير من النساء والأطفال، لم يطل انتظار سعاد، حيث لمحت امرأة عجوز في إحدى الزوايا تشير لها بيدها وهي مبتسمة تدعوها للقدوم حيث تجلس، ابتسمت لها سعاد وهي متوجهة حيث أشارت، تخطت الجموع الذين ملأوا المركب وهي تعتذر منهم مع أطفالها، وصلت حيث أشارت لها المرأة العجوز فوجدته مكاناً بالكاد يكفي لجلوس شخصين، ابتسمت لها المرأة العجوز وهي تقول لها:

– اجلسي هنا يا ابنتي وضعي الصغير في حجرك، ولتجلس بجوارك ابنتك العروس حفظها الله ولتضع أختها الصغيرة في حجرها، أما هذه الجميلة فلتجلس بجواري هنا.

أجابتها سعاد وابتسامة الامتنان والرضا مرسومة على وجهها:

– شكراً لك يا خالة، وسع الله عليك وبارك بعمرك.

توجهت بعدها لأبنائها تجلسهم حيث أشارت إليها المرأة العجوز، استقر الجميع ضمن المساحة التي توفرت لهم، مدت سعاد يدها مصافحة المرأة العجوز وهي تعرفها بنفسها وبأبنائها:

– أنا سعاد، من حمص، وهؤلاء أبنائي، فاطمة وزهرة وهبة وأحمد.

ردت المرأة العجوز السلام مرحبة بسعاد وهي تعرفها بنفسها قائلة:

– تشرفت بك يا ابنتي، وحفظ الله لك أبناءك، والحمد لله على سلامتكم جميعاً، جعلها الله رحلة سهلة ميسرة، وأنجانا مما هو قادم، أنا خالتك أم خالد، بدأت رحلتي هذه وحيدة ذاهبة لولدي في هولندا، فهو من رتّب لي هذه الرحلة ودفع كافة تكاليفها، رضي الله عليه.

في الوقت نفسه كان زياد يوثق تعارفه بالدكتور ضياء ليعرف منه أنه كان من سكان أحد أحياء دمشق الجنوبية، وأنه عانى كثيراً من المضايقات كونه فلسطينياً يحمل وثيقة سورية، وأنه

بات عاجزاً عن العيش في ظل ما يحدث، وأصبحت حياته معرضة للخطر، فقرر أن يهاجر للحاق بأهله الذين هاجروا قبله من فترة إلى «السويد».

مرت الأيام التالية والناس على متن المركب يزدادون تعارفاً وارتباطاً، فغرائزهم كانت الأقرب إلى الفطرة والصفاء في ظل هذه المحنة التي يتشاركون جميعهم في خوضها، وتشكلت مجموعات تتوزع الجهد والراحة، ومجموعات تتوزع المساعدة، وأخرى شكّلت مجتمعاً صغيراً بين مجموع الناس في المركب. كانت تمر الساعات ثقيلة أحياناً، وسريعة أحياناً أخرى، يقضي معظمهم جُلها في التأمل والتفكير، فلم يكن هناك ما يفعلونه سوى الكلام مع ضيق المكان ومحدودية الموجودات على متن المركب، كانت مناسبة وجبات الطعام والصلوات الخمس هي ما تبعث الحياة حقيقة في المركب.

وفي الليلة الخامسة، قُبيل الفجر بقليل، كان معظم الركاب نائمون، وبالذات النساء والأطفال والعجائز، لم يكن مستيقظاً سوى بعض الشباب الذين يلعبون الورق على سطح السفينة، وبعضٌ آخر يتجاذبون الأحاديث فيما بينهم، وكان بينهم زياد والدكتور ضياء، ورجل عجوز توطدت العلاقة بينهم أثناء هذه الرحلة كان يُدعى أبا ياسين.

أحس الركاب بأن حركة المركب زادت عمّا تعودوا عليه خلال الأيام السابقة، لدرجة أن بعضهم بدأ يفقد توازنه وهو جالس، اضطرب زياد بعض الشيء وبدأ يراقب حركة الملاحين القلقة مع قبطانهم، صارت تحركاتهم سريعة وتنقلاتهم في المركب مثيرة، أما العلامات التي بدت مرسومة على وجوههم، فلا يمكن أن تخطئها عين. كان القلق والخوف واضحين على ملامحهم، واهتزازات المركب ما زالت تزداد شيئاً فشيئاً. قام زياد من مكانه مستنداً إلى يد الدكتور ضياء وهو يقول له:

- سأسأل القبطان عن هذا التغير في حركة المركب، وهل علينا أن نأخذ حذرنا ونستعد لما هو أكبر أم لا؟

أجابه ضياء:

- ونعم الرأي.

توجه زياد باتجاه مقصورة القبطان وهو يترنح ممسكاً بكل شيء ثابت يمكن الاستناد إليه أثناء حركته حتى وصل إلى مقصورة القبطان الصغيرة، قبل أن يقرع الباب مستأذناً. أقلقه منظر القبطان وشدة تركيزه وطريقة تشبثه بمقود المركب، توكل على الله في قلبه ونقر نقرات صغيرة على نافذة الباب مستأذناً. نظر إليه القبطان نظرة خاطفة شديدة الغضب، ثم فتح له الباب وهو يقول بصوت منخفض لكنه حاد:

- نعم، تفضل.

اضطرب قليلاً زياد قبل أن يسأله وهو يتكلم بهدوء وثقة.

- أردت أن أسألك يا قبطان، هل علينا أن نأخذ أي احتياطات من الآن كي لا نربككم

في عملكم، يبدو أننا سنواجه أوقاتاً عصيبة قريباً جداً.

ارتاح القبطان للهجة زياد المتفهمة للوضع، نظر إلى زياد بشكل مباشر، وبنظرة تضع في نفس متلقيها المسؤولية أجاب:

– نعم، أتوقع ذلك، لكني لا أريد أن أبعث الفزع في قلوب الركاب بشكل مفاجئ، سأعلن بعد قليل الأمر، على الجميع أن يتشبث بأي شيء ثابت على المركب، وعلينا أن نتأكد بأن الجميع يلبس سترات النجاة، وعلينا أن نقيد الأطفال والنساء بأطراف المركب قدر الإمكان كي لا يسقط أحدهم في الماء، يبدو أننا سنواجه عاصفة قوية، قوية جداً، أراها أمامي مباشرة، ولا مجال لتفاديها أو حتى للهروب منها، قد ترتفع الأمواج لأكثر من ثمانية أمتار، وأتمنى أن يساعدنا الله في اجتيازها دون أي خسائر. أرجو منك أن تساعد في تنبيه الركاب، ولكن بهدوء لو سمحت، فلا حاجة لنا الآن لأي اضطرابات أو فزع يربك الجميع.

ربت زياد على كتف القبطان وهو يجيب:

– توكل على الله، أعانك الله، تذكر أن حياتنا جميعاً بيدك بعد إرادة الله، وكلنا نثق بمقدرتك على تجاوز الأمر.

أغلق زياد الباب وهو ينظر إلى البعيد حيث يحدق القبطان، نظر إلى السماء بعد أن أفزعه المنظر الذي رآه. أسرع في عودته تجاه الدكتور ضياء، عندما لمحه أشار إليه كي يأتي باتجاهه، وصل ضياء حيث يقف زياد فنقل له ما أخبره به القبطان طالباً منه مساعدته في تنبيه الركاب بشكل تدريجي، اتفقا على أن يخبرا الرجال الذين يعلمون أن لديهم عوائل في الدور السفلي من المركب كي يهتموا بعوائلهم واحداً واحداً، وبعدها يخبروا الشباب كي يساعدوا العجائز ومن ليس لديهم من يساعدهم. كانت عائلة زياد في الدور السفلي أيضاً على سطح المركب، نزل زياد مباشرة ليخبر زوجته، وتوجه ضياء لأحد الرجال الجالسين ليخبره بما عليه أن يفعله، ومع هذه التحركات، كانت حركة المركب تزداد عنفاً. وصل زياد للطابق السفلي الذي تجلس فيه سعاد وأبناؤها، وجدها مستيقظة والقلق بادٍ على وجهها، تخطى بعض النساء والأطفال النائمين حتى وصل لها، أمسك بيدها وهو يقول لها بصوت خافت:

– سعاد، يبدو أننا سنواجه بعض الصعوبات، فأمامنا عاصفة شديدة، نسأل الله أن ينجينا منها، عليك الآن أن تيقظي الأولاد بهدوء كي لا يفزعوا، تأكدي من أن ستر النجاة التي يلبسونها مربوطة عليهم بإحكام واجمعيهم حولك، عليّ أن أساعد البعض ثم سأعود إليكم كي أربط الجميع بحبل واحد، تأكدي أن تحجزي مكاناً مناسباً بجوار العمود الكبير الذي خلفك كي نتمسك به، انتبهي لفاطمة ولا تفزعيها.

أجابته سعاد وهي تبدأ بإيقاظ فاطمة كي تساعدها:

– حسناً، توكل على الله، اللهم ارحمنا برحمتك، لا تتأخر يا زياد، فأنا جد خائفة.

ربت على رأسها وهو يهمس مبتسماً كي يزرع بها بعض الثقة:

- لا تنسي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

قال زياد هذه الكلمات وتحرك من فوره عائداً للسطح العلوي كي يساعد ضياء بتنبيه الرجال، أثناء صعوده وجد البحار حمادة ينزل مسرعاً على السلم، أوقفه لحظة وهو يسأله:

- حمادة، أصدقني القول، فأنا أب لأربعة أبناء، وحملي ثقيل في تجاوز هذه المحنة، أي الأماكن أفضل الآن؟

نظر إليه حمادة بعمق وخوف وهو يهمس في أذنه:

- ابق قريباً من أحد الأسيجة الخارجية، حتى وإن ابتللتم، ولكن يجب عليكم أن تتشبثوا بقوة في السياج، أو أن تربطوا أنفسكم بعقد قوية ولكن يسهل فكها والتخلص منها بسهولة، فإن انقلب المركب لا سمح الله فسيكون من السهل عليكم الابتعاد عنه كي لا يسحبكم معه، في مثل هذه الظروف البقاء في الداخل خطورته قد تكون أكبر، فانقلاب المركب معناه غرقكم الأكيد معه.

قال هذه الكلمات، وانطلق لوجهته مسرعاً، أما زياد فقد أرعبه كلام حمادة أيما رعب، فالرجل له خبرة في البحر، وعندما يتكلم بهذه الطريقة عن احتمالية انقلاب المركب فهو يعني بالتأكيد ما يقول، أكمل زياد سيره إلى سطح المركب العلوي وهو ينظر إلى السماء ويهمس: «يا رب».

زادت حركة المركب بشكل واضح جداً، وبدأ الركاب بالاستيقاظ والهمهمة بصوت واضح، كانت حركة زياد وضياء وبعض الشباب سريعة كي يحاولوا تأمين أكبر قدر من النساء والأطفال والعجائز قبل أن تعم الفوضى، بعد مرور عدة دقائق ومع ازدياد الحركة في أنحاء المركب، سمع الجميع حمادة وهو ينادي على الركاب بصوت مرتفع وهو يقول:

- ليسمعني الجميع الآن بانتباه، الجميع يستيقظون الآن، أيقظوا من بجواركم الآن، سنواجه عاصفة قوية لا يمكننا تجنبها، ستكون قاسية جداً على الجميع، سترتفع الأمواج لأكثر من ثمانية أمتار، ستحسون باهتزازات عنيفة وسقوط مفاجئ في بعض الأحيان، على الجميع أن يتأكدوا من سترات النجاة التي يرتدونها، وإن كان لدى أحدكم بعض الأغراض الضرورية فعليه أن يضعها في أكياس كي لا يتلفها الماء وأن يخبئها بشكل محكم داخل ملابسه، تشبثوا جيداً بأقرب عمود أو سياج أو أي شيء ثابت، لا تتحركوا نهائياً من أماكنكم، وفي حال انقلب المركب لا سمح الله، أول ما عليكم فعله أن تسبحوا مبتعدين عن المركب، من كان مسؤولاً عن نساء أو أطفال، عليه أن يجلس بجوارهم الآن فوراً، في حال سقوط أحد في الماء لا سمح الله، لا يحاول أحد أن يسعفه أو يتحرك من مكانه لالتقاطه، فهذا يعني المزيد من الخسائر دون أي نتيجة، هيا فليتحرك الجميع الآن، فليس أمامنا سوى دقائق بسيطة حتى نصبح في مواجهة مباشرة مع العاصفة.

سكت قليلاً بعدها، ثم أكمل وهو يرى النظرات تراقبه:

- ادعوا الله جميعاً أن نتجاوز هذه المحنة بسلام. هيا توكلوا على الله بسرعة.

ما إن انتهى حمادة من هذه الكلمات حتى هرع بدوره ليساعد أصدقاءه البحارة في ربط ما يمكن ربطه من حمولة على المركب، كانت العلامات البادية على وجوههم تثير الرعب، وحركتهم عنيفة سريعة لا يكاد أحدهم يلتقط أنفاسه، وكلهم يصغون إلى توجيهات حمادة بتركيز وهو يشير إليهم حول ما عليهم أن يربطوه بالحبال، أو يحركوه من مكانه.

أما الركاب، فلا يمكن وصف حالة الرعب التي دبت بينهم، مع ازدحام المكان وضيق المساحات التي يمكن أن يتحركوا من خلالها، إلا أن حركة عشوائية مرعبة دبت فيهم جميعاً، بدأ الرجال الذين لديهم عوائل بمزاحمة الآخرين كي يلتفوا حول عائلاتهم في مكان يستطيعون فيه احتواءهم وأن يتشبثوا في الوقت نفسه بشيء ثابت، بدأت الأصوات تعلو بين ساخط وداع الله بالستر واللطف، وبدأ الأطفال بالبكاء من هول الاضطراب الذي دب في الجميع، ولم يختلف عنهم كثيرٌ من النساء، أما زياد فكان قد استمع لنصيحة حمادة وعاد إلى زوجته سعاد وأبنائه وأخذهم إلى إحدى الزوايا بجوار أحد الأسيجة الخارجية للمركب مستغلاً انشغال الغالبية بحركة غير منظمة. عندما بدأوا بالحركة، أشار زياد لأبنائه كي يتبعوه دون إصدار أصوات، ما أن تحركوا من المقصورة حتى انتبه زياد بأن الخالة أم خالد تمسك بطرف ثوب فاطمة وهي تسير معهم، ابتسم لها ابتسامة صغيرة وهو يرى الرعب في عينيها، وصل زياد إلى المكان الذي يرغب أن يجلس فيه هو وأبناؤه فوجد فيه بعض الشباب، احتار في أمره ولم يعرف ما يفعل، استمر واقفاً للحظات والمركب يتمايل بهم بشكل عنيف ما جعل أولاده يتصايحون بشكل مخيف وهم يحاولون التمسك به وبأمهم بشكل عنيف، انتبه زياد لأحد الشباب وهو يصرخ به رافعاً يده:

– أبا أحمد، هات أولادك واجلس مكاني، وأنا سأجد لي مكاناً آخر، تعالَ بسرعة.

تقدم زياد بأولاده من فوره تجاه الشاب وهو يشكره وعلامات الخوف بادية عليه، شكر الشاب وبدأ يرتب الأولاد بما يراه مناسباً، جلس على أرضية المركب ملاصقاً للسياج على جنبه الأيسر فاتحاً قدميه أمامه، وأجلس سعاد مقابله تماماً بالطريقة نفسها جاعلاً جنبها الأيمن على طرف السياج، وضع أحمد في حجره وأمامه فاطمة، وأمسك بأيديهم وجعلهم يلفونها حول رجليه ليتمسكوا بها، أما سعاد فأجلست زهرة وهبة بنفس الطريقة، ضمّ رجليه عليهما بقوة، وطلب من سعاد أن تفعل نفس الأمر مع زهرة وهبة، مدّ يده للخالة أم خالد لتجلس مقابلهم لتحيط بالجميع، أمسك بيده اليسرى السياج بقوة وجعل سعاد تمسك بيدها اليمنى السياج، ثم أمسك بيدها اليسرى وأحاط بأم خالد لتدخل معهم في تكتّلهم، تكلم بصوت خافت مع الجميع قائلاً:

– سنبقى على هذه الحالة إلى أن تنتهي هذه المحنة على خير بإذن الله، لا تفزعوا يا أحبابـي، ولا تتوقفوا عن الدعاء لله بالمعونة واللطف بنا، إياكم أن تفلتوا أرجلنا أنا وأمكم، وأنت يا سعاد إياك أن تفلتي السياج أو أن تفلتي يدي مهما حدث.

ثم نظر بشكل مباشر إلى عيني أم خالد ليرى نظرات تخلو من الحياة، ابتسم لها وهو يقول لها:

– خالة أم خالد، لا تفزعي يا أمي، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، ستكونين معنا وسينجينا الله من هذه المحنة إن شاء الله، لن تحتاجي سوى أن تبقي على وضعك، وسنكون أنا وسعاد بجوارك في كل وقت.

لم تستطع أم خالد النطق، فقط وجهت عينيها إلى السماء، ثم أغمضتهما وهي تتمتم بالدعاء.

استمر الصخب في المركب لعدة دقائق حتى جلس كل فرد حيثما استطاع. اختلطت العوائل فيما بينها وبين الشباب، توزعت المسؤوليات بشكل تلقائي على الشباب وكل من وجد في نفسه المقدرة على توفير شيء من المساعدة، وخاصة للعجائز والنساء والأطفال الذين ليس لديهم من يعينهم على مواجهة هذه العاصفة، بقيت مجموعة كبيرة منهم داخل المقصورات في الطابقين الأرضي والسفلي، وخاصة النساء والأطفال، كانوا يبحثون عن الأمان بأي طريقة، بعض العجائز من الرجال بقي على السطح بجوار بعض الشباب علّهم يحصلون على شيء من المساعدة إن اقتضت الحاجة. كانت صورة اللحمة والتكاتف على أعلى مستوياتها، الجميع يمسكون بعضهم ببعض، التغت في هذه اللحظات كل الفوارق الدينية والجنسية والعرقية، ولم يبقَ سوى الإنسان بتجرد تام.

سكنت الحركة تماماً على سطح المركب، وفي المقابل، بدأت حركة المركب تصبح أعنف، صار تمايله شديداً، وصعوده وهبوطه أكثر شدة، لم تمر سوى دقائق معدودة حتى بدأت الأمطار تهطل بشكل عنيف على المركب، ومعه بدأت تعلو أصوات الدعاء، ففي هذه اللحظة دخل المركب فعلياً في محيط العاصفة.

اكفهرت السماء، وبدأت تصرخ في هذه البقعة من الأرض، كانت صرخاتها رعداً وبرقاً ومطراً، صراخ عنيف ينزع القلوب، ولم يكن المركب الذي يحمل هؤلاء الباحثين عن الحياة سوى ورقة شجر خريفية ساقطة في مهب الريح، ومع زمجرة السماء كانت تعلو أصوات تدعو رب هذه السماء.

وبدخول المركب خضم الأمواج العالية، سكت صوت أحد المحركين اللذين يدفعان المركب بعد أن أطفأه قبطان المركب تحسباً لما بعد العاصفة، كان القبطان يحاول بشتى الوسائل أن يجتهد في مجابهة الأمواج التي يزداد ارتفاعها شيئاً فشيئاً بمقدمة المركب كي يتجنب الانقلاب، كان يدرك تماماً ما معنى أن يعلو المركب إحدى الأمواج بشكل مائل على هذا العلو، أما باقي البحارة فقد تمركزوا على أطراف المركب ينظرون إلى البعيد علّهم يرون ما بعد العاصفة، كانوا متمرسين على البحر، ومع ذلك كان الرعب يسيطر عليهم. وحده حمادة من كان يشارك القبطان في مقصورته كي يساعده في تحريك دفة المركب إن احتاج لذلك.

في هذه الأثناء كان زياد يحيط بأبنائه بشدة وهو لا يزال يمسك السياج بيد ويمسك بيده الأخرى سعاد، ومع ارتفاع الموج وتمايل المركب وهطول الأمطار الغزيرة صارت قبضة يده ورجليه ككماشة تحيط بالجميع، سمع أنين فاطمة من شدة ضغط رجليه عليها، فحاول أن يخفف من ضغطه دون أن يترك لأي أحد مجالاً للحركة. كان صوت الرعد ووميض البرق يسببان ردة فعل لا إرادية في ازدياد الضغط عليهم، كان ينقل بصره بينهم جميعاً بما فيهم أم خالد، ويعود بنظره إلى سعاد ليشحنها بالعزيمة والصبر، كانت الأمطار الغزيرة قد بللتهم جميعاً، بالإضافة للأمواج التي تعلو وتعلو مع مرور الدقائق.

في هذه اللحظات، كان عقله يهيم في تاريخ ليس بالبعيد، دماء وأشلاء تملأ ميدان

الساعة، الحاج أبو شادي وزوجته، بَرَكَتا الحارة، مروان الذي استشهد وهو يوفر الحماية لزوجته، أبو نصري، سامر وسعيد، صديقه حسام، الحاج أبو حاتم، شريط يدور بسرعة رهيبة أمام عينيه، تلاحق اللقطة منه الأخرى مع كل نفس يدخل إلى صدره، كان يحس بشيء من الأنانية مع شدة الجزع والرجاء اللذين كانا ينتابانه، نعم الآن عليه أن يدعو لهم جميعاً، هذا وقت يرجو فيه الإجابة من الله، لكن نفسه البشرية كانت تزاحمه، إن كانت له دعوة مستجابة عند الله، أفلا يستأثر بها لنفسه ولأولاده، يعلو صوته للحظات ثم يخفت بالتي تليها وهو يدعو الله.

مع دخول المركب العاصفة، أصبح المركب يتحرك بزاوية ارتفاع حادة، يُسمع معها أنين محركه، ثم يهبط لعدة أمتار بشكل عنيف ليرتطم بالأمواج التي تغرق كل من يجلس بجوار الأسيجة الخارجية، ومع كل هبوط تعلو صرخات الفزع، تكرر الأمر لعدة مرات، ومع كل مرة تضعف الأيدي المتمسكة بالأسيجة لشدة الهبوط وقوة الأمواج التي تغرق مقدمة المركب وأطرافه، وما أن تمر الموجة حتى يبدأ المركب بصعود الموجة التي تليها يرافقها علو الأصوات الداعية بالرحمة واللطف من الله، وبعد دقائق من هذه المقاومة، وفي واحدة من هذه الموجات، وبعد أن هوى المركب هابطاً من قمة إحداها، وعند ارتطام مقدمته في قاع الموجة التي تليها، غطت مقدمة المركب كمية هائلة من ماء البحر، وكانت هذه الموجة أولى الموجات التي بدأت تأكل معها بعضاً من الباحثين عن الحياة، كان أول الغارقين الشيخ أحمد أبو ياسين، فلتت يده الضعيفة الممسكة بأحد الأعمدة فسحبته الموجة معها إلى حيث يلاقي رباً رحيماً، فزع الشباب الذين كانوا يحيطون به عندما انتهت الموجة ولم يجدوه بينهم، صرخ أحدهم:

– أين العم أبو ياسين؟ هل رمته الموجة إلى الداخل، ابحثوا عنه أرجوكم، هذا المسكين لم يكن يبحث عن الحياة، كان يريد أن يرى أبناءه وأحفاده قبل أن يموت، سأبحث عنه ربما يحتاج لمساعدة، قد أنقذه إن كان مصاباً.

صرخ به أحد الشباب بعنف:

– اثبت مكانك ولا تتحرك، لن تستطيع فعل شيء له في هذه الأجواء حتى وإن كان بحاجة إلى مساعدة، مع أغلب الظن بأن البحر قد ابتلعه، لن نضاعف الخسائر بردات أفعال ليست محسوبة، اثبت في مكانك وادع له الله بأن يلطف به ويرحمه.

ما أن انتهت هذه الكلمات حتى سمع الجميع صراخ حمادة من طرف كبينة القبطان وهو يقول:

– تمسكوا جيداً جميعاً، أمامنا أمواج عالية جداً، ادعوا الله.

مع انتهاء كلماته، بدأ المركب بالصعود على موجة عالية جعلت كل من على المركب يمسكون أنفاسهم حد الموت من شدتها ومن شدة ما يتوقعونه بعدها، كان محرك المركب يئنّ بشدة وهو يدفع هذا الثقل المضاعف في مقاومة البحر، لحظات مرت على الجميع كأنها سنوات، انقطع الجميع عن عالمهم وانتقلوا إلى عوالم يملؤها الخوف والرجاء، عوالم يختلط فيها الإحساس بالحياة والموت معاً. كانت الصرخات كلها تنادي يا رب، هوى بعدها المركب بشكل عنيف جداً باتجاه القاع، ومع ارتطامه بالقاع، علت موجة ماء كبيرة المركب غطته بالكامل، وكان نصيب هذه

الموجة أكبر من التي سبقتها، حيث جرفت معها أكثر من عشرين شخصاً ممن كانوا على سطح المركب، علت أصوات البكاء والنحيب، وبخاصة لمن هم في داخل المقصورات، فارتطام المركب وشدة حركته أدت إلى ارتطام الكثير منهم ببعض، وأدى ببعض النساء والأطفال إلى السقوط كالدمى بعضهم على بعض، والكثير من البكاء والدعاء، عدا عن كثير من الإغماءات.

تتابعت الموجات بهذا الشكل لما يزيد عن عشر دقائق، ومع كل موجة كان البحر يأكل في جوفه بعضاً من هؤلاء الركاب.

كان القبطان وحمادة قد أُجهدا أيما إجهاد وهما يحاولان السيطرة على مسار المركب كي لا ينحرف عن مساره في مجابهة علو الأمواج وانخفاضها، كان بالنسبة إليهما هذا هو الفاصل بين الموت أو الحياة لهما ولكل من يركب معهما في هذا المركب، واختفت من حساباتهما كل الأمور باستثناء الإنسان، مع شدة الاختلاف بينهما حول الطباع والأفكار والتربية، إلا أن العامل المشترك هذا جعلهما على قلب واحد، كان حمادة يراقب بين الفينة والأخرى زملاءه حيث كانوا يقفون، واكتشف أن سعيد قد اختفى من مكانه مع آخر ارتطام للمركب، همس للقبطان وهو يمسك معه الدفة استعداداً لمواجهة الموجة التالية:

- لقد فقدنا سعيد يا قبطان.

جاوبه القبطان دون أن يحرك ساكناً ونظره ما زال متعلقاً في البعيد:

- رحمه الله، ربما يكون الذي أمامنا أصعب من السابق، هل تسمع أنين المحرك، لا أظنه سيحتمل المزيد، ولن أغامر بتشغيل المحرك الثاني الآن، فهو ضعيف وقد يتعطل كلاهما مرة واحدة، وبذلك سنكون قد حكمنا على أنفسنا بالموت غرقاً أو جوعاً.

سكت قليلاً ثم علا صوته وهو يخاطب حمادة قائلاً:

- انظر يا حمادة، بت أرى نهاية العاصفة، سرعة الرياح تحرك الغيمة بشكل كبير، ربما أمامنا بعض الموجات فقط وتنتهي هذه المحنة.

ربت حمادة على كتفه مبتسماً وهو يقول له:

- نعم أراها، سنفعلها يا قبطان، بإذن الله سنجتاز هذه المحنة، يا رب.

في هذه الأثناء كان زياد على حاله التي بدأ بها استقبال هذه الموجة، إلا أن الإعياء والوهن بات واضحاً عليهم جميعاً، وبخاصة سعاد، فقط أُنهكت قواها تماماً، ولم تعد قادرة على التمسك أكثر من ذلك، باتت تحس بأن تيبّساً أصاب عضلاتها مع ألم شديد في كل أطرافها، أما الأولاد فكانوا ما زالوا على وضعهم متمسكين بأرجل أبويهم، لم يكن يصدر منهم أي صوت باستثناء فاطمة التي كانت تبكي طوال الوقت وهي تدعو الله بصوت مرتفع، مع ارتجافة شديدة في جسدها، انتبه زياد ليد ابنه أحمد، فإذا به يراه ممسكاً بطرف ثوب أم خالد، يالهذا الصغير، ما الذي ستفعله هذه اليد الضعيفة في مقاومة جبروت البحر وعنفه، هي الفطرة الإنسانية.

أحس زياد بوهن زوجته وخَوَر قواها، انتظر هدوءاً نسبياً في حركة المركب، ثم عمل على ربط يدها التي تمسك السياج بحبل صغير كان يخبئه معه، كان يتحرك بسرعة وهو يعقد عقدة قوية يسهل فكها إن لزم الأمر، كان الجميع يراقبه وهو يعقد العقدة والهلع ينتابهم لإحساسهم بأنهم فقدوا الأمان بعدم إحاطتهم بيديه القوية لهذه اللحظات، كان المركب يميل بعنف تجاه الأعلى وهو يصعد على قمة موجة عالية، صارت فاطمة تصرخ في أبيها وهي تهز رجليه التي تمسكها:

- أسرع يا أبـي بالله عليك، سيهبط المركب الآن وسنسقط جميعنا في البحر، أسرع أرجوك.

أنهى زياد العقدة وهم على قمة الموجة تماماً، أعاد تمسكه بسرعة بالسياج وحاول أن يمسك بيده الأخرى يد سعاد التي تحيط بأم خالد، لكن سرعة هبوط الركب للقاع وشدته حالت دون ذلك، حاول أن يمسك بيد أم خالد قدر إمكانه، لكنه فشل، كانت صرخات سعاد وأم خالد أعلى من أن تجعله يتحكم بتصرفاته، رأى أم خالد وهي ترتفع عن أرضية المركب محاولة التمسك بيده دون جدوى، وما أن ارتطم المركب بالموجة التي غطتهم بماء البحر حتى فقد أم خالد، ذهبت الموجة بأم خالد وبحلمها بأن تلتقي بولدها، هدأ المركب لثوان، نظر إلى وجوه أبنائه وزوجته، ليرى وجوه أموات يتنفسون الخوف، كان الصمت الذي أصابهم صمت أموات لا أحياء، الجميع جاحظو العيون مقطوعو الأنفس، ومع صعود القارب للموجة التي تليها سمع زياد ابنه أحمد يقول:

- أين الجدة أم خالد، لماذا لم تمسكها جيداً يا أبـي، لم أستطع أن أمسكها يا أبـي.

كان أحمد يقول هذه الكلمات وهو يبكي، شده زياد أكثر لحجره وهو يقول له:

- يا ولدي، جدتك أم خالد ذهبت عند رب يحبها وسيكرمها، أدع لها يا ولدي، فمن ذهبت إليه أشد رحمة بها من هذا العالم الجائر.

أجابته فاطمة باكية:

- ولم لا تدعني أذهب معها يا أبـي، لماذا تصرّ على أن تجعلنا نعيش كل هذا الخوف، أنا أريد أن أذهب مع الجدة أم خالد.

لم يستطع زياد أن يتمالك نفسه وهو يسمع هذه الكلمات، انفجر بالبكاء وهو يصيح بعلو صوته:

- يا الله، رحمتك بـي وبأبنائي، يا رب، ليس لي سواك.

تشبث أكثر بسعاد التي كانت تجهش بالبكاء ليغطي المساحة التي كانت تشغلها أم خالد، احتضن برجله ويديه جزءاً من جسمها، تكوّر أكثر على أبنائه، حاول أن يصغي لفاطمة، فوجدها صفراء غائبة عن الحياة، فاقدة الحس بكل شيء، ذاهلة، تنظر إلى المجهول، فقط أنفاسها ما يدل على أنها ما زالت مرتبطة بهذه الدنيا، أما باقي معالمها فتدل على أنها في عداد الأموات، اقترب منها أكثر ليسمع تمتماتها، ففجع بسماعها تهمس قائلة:

– أريد أن أموت، أريد أن أموت، يا رب، أريد أن أموت، لا أريد أن أستمر في المعاناة.

بدأ يهمس في أذنها وكأنه يلقنها الشهادة:

– رددي ورائي يا ابنتي، اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إن شئت سهلاً، اللهم لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه، اللهم ارفع عنا مقتك وعذابك.

كانت فاطمة تردد ما يقول أبوها بلا إرادة، في هذه اللحظات هبط المركب مرة أخرى بقوة وعنف، ومع هبوطه تكررت الصرخات، وازداد الغارقون، كان الفرق هذه المرة بأن بصيص أمل بدأ يظهر للجميع في الأفق، فالغيمة بدأت بالانقشاع، والمطر أصبح أقل قوة، لكن الأمواج ما زالت عالية جداً.

أما القبطان وحمادة، فكان خوفهما أكبر من قبل، فصوت الانقطاعات التي بدت واضحة لصوت المحرك جعلتهم يدركون أن الدقائق القادمة فاصلة، قال القبطان لحمادة بجزع:

– سأعمل على تشغيل المحرك الثاني، لا أظن بأن هذا المحرك سيصمد ليخرجنا من الموجات القليلة المتبقية، إن انطفأ المحرك الآن سينقلب المركب لا محالة.

أيده حمادة وهو يقول:

– نعم الرأي، سأعمل على تشغيله، واثبت أنت مع الدفة.

حاول حمادة أن يدير المحرك الثاني عدة مرات دون جدوى. صرخ بالقبطان بفزع:

– يبدو أن الماء قد دخل للقادح، سأنزل لقاع المركب لأعمل على تشغيله يدوياً، لا تحرك أي شيء هنا حتى تسمع صوت المحرك.

هز القبطان رأسه مجيباً وهو ينظر إلى حمادة بفزع ورجاء، ثم قال له:

– كن حذراً يا حمادة، الموجتان القادمتان مرتفعتان جداً، وهبوطنا سيكون قوياً.

أومأ له حمادة وهو يفتح باب المقصورة ثم يغلقه خلفه وهو يتمسك بقوة في الأسيجة. تحرك بحذر شديد وهو يهبط حيث المحرك، فجأة أصبح السكون يعم المكان، ومع هذا السكون كان الرعب قد أصبح في أعلى مستوياته، فالسكون يعني أن المحركين أصبحا لا يعملان، في هذه اللحظة ترك حمادة حذره وصار يتحرك بسرعة باتجاه المحرك علّه يستطيع تشغيله قبل أن يصل المركب في مواجهة مباشرة مع موجة مرتفعة، أحس بأن المركب بدأ يميل عن مساره، حاول بشتى الطرق أن يتمسك بأي شيء كي يصل للأسفل لكن دون فائدة. في هذه اللحظة كانت نظرات حمادة تلتقي بنظرات زياد الذي كان يراقب حركته، فهم زياد من نظرات حمادة بأنهم مقبلون على أمر كانوا يدعون الله أن ينجيهم منه، أشار حمادة لزياد بإشارة تدل على ضرورة ابتعاده عن القارب.

ثوان فاصلة هي التي كانت أمام زياد ليوصل ما يريد أن يوصله لأبنائه ولسعاد، كان الصراخ وصل لأعلى مستوياته بين دعاء وخوف، والجميع يحس بشدة ميلان القارب وانحرافه عن مواجهة الموجة. قال زياد صارخاً بأبنائه:

- إذا انقلب المركب بنا، عليكم جميعاً فور سقوطكم في الماء أن تسبحوا بعيداً عنه، سأحاول أنا وأمكم أن نكون خلفكم لنحميكم من الانجراف مع المركب، لا تخافوا من الغرق، فجميعكم يلبس السترِ الواقية، أغلقوا عيونكم وأفواهكم كي لا تبتلعوا الماء، وبمجرد أن تطفوا على سطح الماء اسبحوا بأي طريقة بعيداً عن المركب، هل فهمتم ما أقول؟

ثم نظر إلى سعاد بعين يملؤها الإصرار وهو يقول لها:

- سعاد، لن أفرط بأحد من أبنائنا، هل تفهمين ما أقول، سأفك الحبل الآن.

ما أن فك العقدة حتى مال المركب ميلاناً شديداً جعل معظم من على المركب يتهاوون إلى البحر والصراخ يملأ المكان، لكن زياد وسعاد وأبناءهما ما زالوا يتشبثون بالسياج، بعدها بلحظة مال القارب بشكل عكسي تماماً للجهة السابقة حيث إنه كان قد وصل لقمة الموجة وبدأ يهوي دون أي توجيه، وانقلب المركب رأساً على عقب نتيجة هذا السقوط وصار كل من عليه تحت الماء.

في هذه الأثناء كان زياد يتشبث بأحمد وفاطمة قدر الإمكان، فلتت فاطمة من يده وهم تحت الماء، وجدها تقاوم هذا الهبوط الحاد تحت الماء، قرر حينها بأن يسبح خارجاً لسطح البحر كي ينقذ أحمد من ابتلاع الماء ويبعده عن الانجراف تحت المركب، لحظات مرت حتى وصل إلى سطح البحر، استجمع قواه وهو يرفع أحمد قدر استطاعته، قذفه بعيداً عن المركب وهو يقول له:

- اسبح بعيداً يا أحمد عن المركب، حرك يديك ورجليك دون توقف حتى أعود لك، سأعود لك بعد دقائق.

حاول زياد بعدها أن يغوص حيث كانت فاطمة بجوار المركب لينقذها، بذل مجهوداً كبيراً كي يهبط تحت الماء لكن دون جدوى، فسترة النجاة كانت تمنعه من الغوص، حاول أن يتخلص منها لكن دون جدوى، فلقد كان يرتديها تحت ملابسه، في اللحظة نفسها وجد سعاد تطفو على سطح البحر معها زهرة وهبة، سبح تجاههم مسرعاً، أمسك بهبة واحتضنها، خاطب سعاد وهو يلهث قائلاً:

- اسبحوا باتجاه أحمد، هاهو هناك أمامكم بأمتار قليلة، ابتعدوا بسرعة عن المركب كي لا يجذبكم معه للأسفل، إياكم والاقتراب من أحد، هيا بسرعة.

صرخت به سعاد:

- وأين فاطمة يا زياد، أين ابنتي؟

أجابها وهو يقوم بخلع ثيابه كي يتمكن من الغوص في الماء:

-   ساعديني بخلع سترة النجاة، عليّ أن أغوص تحت الماء كي أنقذها، هيا أسرعي.

ساعدته سعاد على خلع سترته، ولبستها فوق ثيابها، وربطتها بشكل جيد.

انطلق زياد من فوره ليغوص في البحر علّه يجد ابنته فاطمة، حاول أن ينظر تحت الماء لعله يجد أي أثر لها، كان الموج قد أبعدهم بعض الشيء عن المركب، حاول السباحة باتجاه المركب، كانت دموعه تنساب من عينيه وقلبه يبكي خوفاً من أن يفقد ابنته، كانت قواه الخائرة تقتله ببطء، لا يستطيع عقله أن يتقبل الفكرة أن ابنته التي كانت بين يديه قبل دقيقتين قد ذهبت بلا عودة، كان كل ما فيه يدعو الله أن ألطف بـي يا رب. استمر في المحاولة عدة دقائق وهو يحاول بين لحظة وأخرى أن يغوص تحت الماء علّه يجد أي أثر لفاطمة، ثم يحاول النظر فوق سطح الماء باحثاً عن نفس الأثر، بدأ يفقد الأمل من عثوره عليها وهو يرى أن المسافة تزداد بينه وبين آثار المركب الذي انقلب رأساً على عقب، قرر بعدها أن يعود حيث سعاد وباقي أبنائه، بدأ بالسباحة باتجاههم وقلبه تقطعه سكاكين الألم والرجاء، بدأ يفكر أثناء سباحته باتجاه عائلته ماذا سيقول لسعاد، أنه ترك ابنته فاطمة تغرق من أجل أن ينقذ ابنه أحمد، هل هناك ما سيقنعها بأنه لم يكن ليتخذ أي قرار حينها، دقائق من السباحة هي ما كانت تفصله عن سعاد وأبنائه، ما إن اقترب منهم حتى سمعهم جميعاً وهم يصرخون:

-   أين فاطمة؟ لِم لم تحضرها معك؟ هل غرقت؟ هل ماتت فاطمة؟ ارجع يا أبـي وابحث عنها.

وصل زياد واحتضن جميع أبنائه بما فيهم سعاد وهو يقول لهم:

-   لا تخافوا، لربما نجت، لكني لم أعثر عليها الآن، وما زالت الأمواج مرتفعة، ولا تنسوا، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.

نظرت سعاد إليه وهي تمسح وجهها من الماء والدموع قائلة:

-   زياد، أرجوك أن تعود وتبحث عنها، لربما نجت وتحتاج لمساعدتك، والله لا أستطيع أن أحتمل فكرة فقدانها، أرجوك يا زياد أن تعود وتبحث عنها علك تجدها.

أمسك زياد يد سعاد وهو ينظر إليها وإلى أبنائه قائلاً:

-   يا سعاد هي ابنتي وقطعة مني، ولن أوفر جهدي باحثاً عنها، لكن لا فائدة من أي جهد نبذله في هذا الوقت، ها هي العاصفة بدأت بالهدوء، دقائق وستبدو الرؤية واضحة، عندها يمكننا أن نبحث عنها، وكلي أمل بأن يكون الله قد أنجاها.

أخذ زياد سترة النجاة من سعاد ولبسها وأحكم رباطها، ثم أحاط بأبنائه وبسعاد واستكان لقدر الله.

مرت دقائق ثقيلة على الجميع والأمواج ما زالت تتقاذف زياد وأبناءه، استمر الوضع على هذه الحالة وزياد ممسك بالجميع لما يقارب النصف ساعة حتى هدأ البحر تماماً، وبدأ الفجر

بالبزوغ. كان الإعياء قد أخذ معظم ما بقي من قوة عند زياد وعائلته، لكن ظهور الفجر أعطاهم بعض القوة، نظر زياد إلى أبنائه وهو يرى ما بهم من إعياء وضعف، أخرج من سترة النجاة الخاصة بسعاد حبلاً صغيراً كان قد خبأه بها سابقاً، ثم عمل على ربط ستر النجاة بعضها ببعض تاركاً مسافة بينها، ثم أخذ يحرك أبناءه كي يستلقوا على ظهورهم ليحسوا بشيء من الاسترخاء والراحة، بدأت سعاد تساعده وهي ترى ما يفعل، همس بأذنها:

- سأذهب لأبحث عن فاطمة، ابقوا هادئين ولا تجزعوا، وفري كل ما تستطيعين من جهد، فلربما طال بنا البقاء على هذه الحالة.

أومأت له وهي ترفع عينيها إلى السماء، بدأ زياد بالسباحة تجاه مكان غرق المركب، انتبه الأولاد لابتعاد أبيهم عنهم، خاطبت هبة أمها وهي مستلقية على ظهرها:

- أمي، أين ذهب أبـي؟ هل سيتركنا هو الآخر؟

احتضنتها أمها وهي تقول بصوت باكٍ:

- لا يا ابنتي، أبوك ذهب ليحضر لنا فاطمة، ادعو الله أن يردهما لنا سالمين.

استمر زياد بالسباحة بهدوء شديد كي يوفر طاقته قدر الإمكان، أخذ منه الأمر ما يقارب الساعة، كان ينظر باتجاه أبنائه بين فترة وأخرى كي لا يضيع أثرهم، والمسافة بينهم تزداد شيئاً فشيئاً حتى بات يراهم نقطة صغيرة، بالمقابل بدأ يرى آثار حطام المركب متناثرة حوله، كان يقترب ويرى هذه الآثار تزداد، كان الهلع يزداد في قلبه كلما اقترب، كان يرى من بعيد جثثاً تطفو على سطح البحر، اقترب أكثر وأكثر حيث يعج المكان بكل شيء، وبدأ بالبكاء بصوت عالٍ وهو يرى جثث الأطفال والنساء تطفو، أخذ يحركها ويحاول أن يتلمس أثر الحياة على كل جثة يمر بها، وفي كل لحظة يزداد قلبه رعباً من أن يصادف جثة ابنته فاطمة، أثناء حركته وجد عدة رجال ونساء وأطفال نجوا من الغرق، كان جميعهم هادئاً مستلقياً على ظهره، يرى في وجوههم الأمل والحياة، استمر بالبحث ينتقل بين الأحياء والأموات، دون فائدة، قرر أن يمسح المنطقة بشكل منتظم، استمر بالحركة إلى أن وصل لأقصى نقطة وصل لها آثار الحطام، ثم بدأ يمشط المنطقة قطعة قطعة، وفي أثناء حركته أحس بشيء يرتطم به من أسفل قدميه، فجع وارتعب خوفاً من أن تكون إحدى الأسماك الكبيرة الجائعة قد أثارتها حركة قدميه، حاول أن يبتعد عن مصدر الحركة للخلف، وإذ بجثة تطفو من تحت الماء بين يديه، ما إن أدرك ذلك حتى هدأت نفسه، وفي اللحظة نفسها توقف قلبه عن الخفقان، فهذا حجاب فاطمة وقميصها، أدار زياد الجثة بهدوء وخوف ليرى وجه ابنته فاطمة، لم يستطع حينها سوى أن يصرخ بعلو صوته قائلاً: يا الله، يا الله، احتضنها بكل ما أوتي من قوة، أخذ يقبل وجهها في كل ناحية منه، يمسك بوجهها، يتأمله ثم يعود لتقبيله، بقي على هذه الحالة لعدة دقائق، هدأ بعدها قليلاً، وأخذ يتمتم حامداً الله سائلاً إياه الصبر. عزم أمره، جعل فاطمة على ظهرها، ثم بدأ بسحبها بهدوء عائداً حيث ترك أولاده، كان يسبح بهدوء وعشرات الأفكار تتلاطم في عقله تلاطم الماء على جسده، كان يرى نظرات الحزن والشفقة في أعين من يراقبونه من الأحياء وهو يسحب جثة ابنته وراءه، وبعضهم يدعو الله له بالصبر والمعونة، بعد أن تجاوز معظم الجثث التي مرّ بها أثناء عودته، انتبه لوجود بعض قوارير الماء تطفو على سطح البحر، أخذ يجمع ما يستطيع جمعه منها ويضعها في ملابسه وملابس فاطمة،

لم تتوقف دموع عينيه طوال الوقت، أخذ منه وقت العودة ضعف الوقت الذي استغرقه في الذهاب، كانت الشمس قد بدأت بالانتصاف بالسماء، وبدأت أشعتها تزيد من الجهد والعناء على زياد. وما أن اقترب زياد من أولاده وبدأت ملامحهم تظهر حتى بدأ يشير إليهم كي يطمئنهم شيئا ما حتى يصل لهم. بدأ يسمع أصواتهم بشكل أوضح مع كل لحظة يقترب فيها منهم. سمع هبة وزهرة تناديان بصوت مجهد على أختهما فاطمة. كان ألمه يزداد مع كل صوت يسمعه، فقط سعاد من كانت تقرأ عبارات وجهه وهو يقترب منهم. بدأت سعاد بالسباحة تجاهه لتوفر عليه بعض الجهد، كان أبناؤها يلحقون بها بشكل تلقائي، ما أن أصبحت المسافة بضعة أمتار بين زياد وسعاد حتى صرخت سعاد بصوت حارق، صرخت وهي تنادي بعلو حسها على ابنتها فاطمة، انتابتها موجة صراخ وبكاء هستيرية، فما كان من زياد إلا أن ترك جثة فاطمة من يده وهرع سابحاً تجاه سعاد، بدأ الأولاد يبكون لبكاء أمهم دون أن يفهموا بعد ما سبب بكائها، احتضن زياد زوجته وهو يحاول تهدئتها وهي تبعد عنه محاولة السباحة تجاه جثة ابنتها، كانت تحرك أطرافها بشكل عشوائي دون أن تتحرك من مكانها، لا يُفهم من كلامها أي شيء سوى اسم فاطمة، وزياد يمسك بها محاولاً تهدئتها بأي طريقة كانت، أخذ منه الأمر بعض الجهد حتى استطاع أن يمسك برأسها بين يديه، نظر إلى عينيها وهو يصرخ بها قائلاً:

– سعاد، إياك أن تجزعي من قدر الله، بدأنا رحلتنا ونحن مؤمنون بأمر واحد، بأنه لا راد لقضاء الله، وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، أحمدي الله يا سعاد على أن امتحننا الله بأحد أبنائنا وترك لنا ثلاثة منهم، فكري بأولادك يا سعاد، فهم يستمدون القوة منك الآن.

هدأت سعاد بعض الشيء، ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من الاستمرار بالبكاء، توجهت هي وزياد بشكل هادئ حيث ترك زياد جثة فاطمة، ما أن وصلت لها حتى ارتمت عليها بشكل عشوائي ما أدى لغمرهما بماء البحر، فزع زياد من منظرها فمد يده ساحباً إياها من تحت الماء وهو يحتويها مهدئا لها هامسا في أذنها:

– ادعي لها بالرحمة والقبول، فهي عند الله شهيدة بإذن الله، ولن يقدم أو يؤخر جزعك أي شيء.

بقيت سعاد في ذهولها، أدارت وجه فاطمة تجاهها شيئاً فشيئاً، ما إن رأتها حتى شهقت شهقة كاد أن يتوقف لها قلبها، أمسكت رأس فاطمة بين يديها وشرعت في تقبيلها وهي تصيح وجلة بصوت فقد ملامح الحياة:

– آه يا ابنتي الصغيرة، آه يا يا فرحة عمري، آه يا فلذة كبدي، آه يا عروسة الغد، اختارك الله من بين إخوتك لتكوني حورية من الحواري عنده.

كان زياد يسمع هذه الكلمات ودموعه تغسل وجهه، عاد لينظر إلى أبنائه وهو يرى زهرة وهبة تبكيان، أما أحمد فكان صامتاً لا يبدي أي ردة فعل، سحب زياد الحبل الذي يربطهم بعضهم ببعض شيئاً فشيئاً ليقربهم حيث تحتضن سعاد أختهم، ما أن رأت هبة وزهرة وجه أختهما فاطمة والزرقة التي تلفه حتى علا صوتهم بالبكاء وهم يصرخون باسمها، حاول زياد احتضانهم وتهدئتهم قدر إمكانه، فالإعياء أخذ منه كل ما بقي لديه من قوة، وبلحظة عابرة، قرر أن يتركهم يعبرون بطريقتهم عن حبهم لأختهم، اطمأن أن الجميع يحيطون به، استلقى على ظهره متمدداً على سطح

البحر دون أن ينبس ببنت شفة، فقط أبقى يده معلقة بالحبل الذي يربطهم جميعاً، وغاب بعدها للحظات عن عالمه وهو ينظر إلى السماء.

لا يدري زياد كم استغرق على هذه الحالة، عاد إلى واقعه بشكل فزع عندما سمع ابنه أحمد يخاطبه بأذنه مباشرة وهو يهزه منادياً عليه، استجمع شيئاً من قواه، نظر حوله ليطمئن على سعاد وبناته، رأى سعاد تحتضن جثة فاطمة، وحولها زهرة وهبة، عاد لينظر إلى أحمد كي يجيبه على استفساره، سمع أحمد وهو يسأله قائلاً:

- بابا، لِم تبكي أمي وأختاي وهن يحتضن فاطمة؟ ولم فاطمة نائمة بهذا الشكل؟ ولماذا تحول لون وجهها ويديها للون الأزرق؟ هل حقاً ماتت فاطمة يا أبـي؟ أمي وهبة وزهرة لا يجبنني. ألم تكن فاطمة معنا أنا وأنت عندما انقلب بنا المركب؟ لقد سمعتها وهي تقول قبل انقلابه بلحظات أنها تريد أن تموت، كنت أسمعها وهي تدعو الله بأن يميتها يا أبـي.

احتضن زياد ابنه وهو يقول له بصوت باك:

- إياك أن تقول هذا الكلام أمام أمك وأختيك يا أحمد، أنت رجل، أريدك أن تعدني بذلك يا حبيبـي، فاطمة ذهبت للجنة عند الله، قد اختارها الله كي تصبح حورية عنده في جنان الخلد يا ولدي، حيث لا يوجد هناك خوف أو تعب، لقد رحلت أختك يا ولدي حيث أراد لها الله ذلك، كل ما علينا الآن أن نفعله هو أن ندعو الله لها بالرحمة والقبول.

أجابه أحمد بشكل تلقائي.

- هل معنى ذلك يا أبـي بأن الله لا يحبني؟

فجع زياد من سؤال ابنه، فرد عليه مستفسراً:

- لا يا ولدي، لم تقول ذلك يا حبيبـي؟ على العكس، فرحمة الله بنا أن أنجانا جميعاً من الغرق وأخذ منا فاطمة فقط.

قاطعه الصغير بصوت يملؤه الإرهاق:

- إذاً لماذا لم يأخذني مع فاطمة والجدة أم خالد عنده؟ فأنا خائف يا أبـي.

احتضن زياد ابنه وهو يقبله ويقول له:

- لا تقل هذا الكلام كي لا تغضب الله عليك، فقط قل الحمد لله، وتمدد على ظهرك وادعُ الله بالرحمة لأختك وللخالة أم خالد.

استجاب أحمد بشكل تلقائي لتوجيهات أبيه وهو يقول:

- حاضر يا أبـي، لكني عطش جداً.

انتبه زياد لكلام ابنه وتذكر أنه أحضر معه بعض قوارير الماء، أخرج من معطفه إحدى قوارير الماء، فتحها بهدوء كي لا تسقط منه في البحر، قرّبها لفم ابنه وأخذ يجرعه منها جرعات صغيرة، ما أن أحس بأن أحمد أخذ كفايته من الماء حتى أعاده للوضع السابق، ثم توجه بهدوء حيث سعاد والبنات، اقترب من سعاد، وحاول أن يفلت يدها من حول جثة فاطمة، وجدها نائمة على هذه الوضعية، بدأ يهمس في أذنها كي لا يفزعها:

– سعاد، سعاد، قومي يا حبيبتي، أفلتي يدك من حول فاطمة قليلاً، لن يفيد أحداً تعلقك بها بهذا الشكل.

فتحت سعاد عينيها منتبهة لكلام زياد، أفلتت يديها بهدوء من حول ابنتها، قام زياد من فوره بربط طرف الحبل الأخير بسترة النجاة التي ترتديها فاطمة كي لا تبتعد عنهم، ثم مدّ يده داخل معطفها وأخرج قارورة ماء، فتحها بهدوء وقربها من فم سعاد وهو يقول لها:

– اشربي بعضاً من الماء بما يصبرك، فلربما طال بقاؤنا هنا حتى نجد من ينقذنا إن كتب الله لنا النجاة.

فعلت سعاد ما قاله لها زياد، ثم سحبت الحبل بهدوء لتقترب من زهرة التي كانت مستلقية على ظهرها، أيقظتها بهدوء كي تعطيها شيئاً من الماء، وفعلت الشيء عينه مع هبة.

عاد الجميع لوضعهم السابق بالاستلقاء على سطح البحر، كانت الشمس شديدة عليهم، والدقائق تمر عليهم بطيئة مؤلمة حارقة، راح الجميع في نوم عميق لعدة ساعات.

استيقظ زياد فجأة بشكل فزع على حركة بجواره، تأمل ما حوله ليدرك أنه ما زال مع أولاده في عرض البحر، وأن الليل قد خيم على المكان بعتمته، انتبه لسعاد وهي تشير له حيث تتمدد جثة ابنته فاطمة، كان ابنه أحمد يحتضنها واضعاً رأسه على صدر أخته، وكانت ابتسامة بريئة مرسومة على وجهه، كان يغط في نوم عميق، فزع من هذا المنظر، تمالك أعصابه وسحب الحبل بهدوء كي لا يفجعهم، وضع يده على رأس ابنه وحرّكه بهدوء وهو يناديه، تنفس الصعداء عندما رأى أحمد يفتح عينيه، قبّله وأخرج قارورة من الماء وأعطاه جرعة منها، استيقظت هبة وزهرة على حركة الماء حولهما، شرب الجميع قدراً بسيطاً من الماء، التف الجميع حول أبيهم وكأنهم ينتظرون منه أن يوجههم لشيء ما. استجمع زياد بعضاً من همته، أمسك بيد زوجته وهو ينظر تجاه أبنائه، ثم قال:

– يا أولادي، أول شيء علينا فعله الآن أن نحمد الله ونشكره على أن أنجانا من هذا الابتلاء، ثم علينا الدعاء بأن يرحمنا ويعطف علينا وينجينا مما نحن فيه، وأنا على يقين بأنه لن يخذلنا، وإن كان قد أخذ منا فاطمة، فهذا لأنه اصطفاها من بيننا وجعلها الأكرم والأقرب إليه، فالحمد لله على كل حال، وما علينا الآن سوى أن نحافظ على هدوئنا ونوفر كل جهد وطاقة، وأن نقتصد قدر استطاعتنا في شرب الماء، فلا نعلم كم سيطول بقاؤنا على هذا الحال، لا أريد أن أثقل عليكم بتوجيهاتي. عودوا لاسترخائكم وانظروا إلى جمال السماء وإبداع الله في خلقها.

أنهى زياد كلماته ولم ينتظر أي ردة فعل منهم، بل عاد لما كان عليه من حال في

الاستلقاء على ظهره، كان ينصت لأبنائه وهم يتحاورون فيما بينهم حول السماء والنجوم وحركة النيازك، وينصت لهمهمات سعاد ودعائها، كان وحده ينظر إلى ما فوق السماء وقلبه يدعو رب هذا الكون أن ينجيهم مما هم فيه.

بدأ الفجر بالبزوغ، أيقظ زياد زوجته وأبناءه طالباً منهم أن يقتدوا به لصلاة الفجر على ما هم عليه، بدأ يرفع يده بالتكبير، ويكمل باقي أركان صلاته بالإيماء برأسه، أطال الدعاء لله تعالى بأن يفرج كربهم، ما أن انتهى من صلاته حتى توجه لأبنائه ولزوجته بالكلام قائلاً:

- ستشرق الشمس الآن، وفي أقل من ساعة ستصبح حرارتها حارقة لنا جميعاً، لذا علينا أن نستتر بأي شيء لدينا كي نحمي وجوهنا من لهيبها.

قالت هبة بشكل تلقائي:

- لم لا نخلع شيئاً مما نلبسه يا أبي ونحتمي به من شدة الشمس، فملابسنا لا فائدة منها والمياه تغمرنا.

وافق زياد على اقتراح ابنته وطلب من فوره من سعاد أن تساعده بنزع بعض ملابس الأولاد واحداً واحداً كي لا يسقط من بين أيديهم عند نزع سترة النجاة عنه. أنهى الجميع هذه المهمة وبدأ كل واحد منهم يضع القميص الذي نزعه بشكل يناسبه على وجهه.

بدأت الشمس بالارتفاع، ومع ارتفاعها ازدادت الحرارة وازداد معها الإعياء على الجميع، انتبه زياد لأنين يصدر من ابنته زهرة، استجمع شيئاً من قواه وسحبها لعنده كي يستوضح ما يسمعه، أزاح الغطاء عن وجهها فوجدها نائمة، وهذا الأنين يصدر منها بلا إرادة، أخذ يحركها شيئاً فشيئاً وهو ينادي باسمها، لكن دون جدوى، انتبهت سعاد لزوجها وابنتها فتحركت تجاههما بشكل مباشر، استمر زياد بمحاولة إيقاظ زهرة دون فائدة، فلقد كان مغشياً عليها من شدة الجوع والعطش والإعياء، فزعت سعاد لما رأت، وبدأت تنادي على ابنتها بصوت يملؤه الوهن، وبدأت تهذي بما لا تتحكم فيه:

- يا الله رحمتك، لن أحتمل أن أفقد اثنين من أبنائي في الوقت نفسه، يا رب الطف بحالنا.

استجمعت قواها ورمت بجسدها على زهرة كي تغمرها بماء البحر، نجحت فيما كانت تريده، فلقد استعادت زهرة وعيها بعد أن غمرها ماء البحر، بعد أن رأى زياد ابنته بهذه الحالة أخرج قارورة الماء ووضعها على فم ابنته وهو يمسك رأسها بيده الثانية كي لا تختنق بشربها، اقترب أحمد وهبة من والديهما على إثر الحركة والأصوات التي سمعاها، وهم في هذه الأثناء أحس زياد بيد ابنه أحمد وهي تهز رقبته، التفت إليه نصف التفاتة ليراه يحدق للبعيد وهو يشير بيده الصغيرة نحو الأفق، نظر حيث يشير ابنه، لم يشاهد شيئاً، عاد ببصره لابنه أحمد وهو يسأله:

- ما بك يا أحمد، إلى ما تشير؟

اقترب بأذنه من فم ابنه ليسمع همسه وهو يقول:

- بابا، طائرة، بابا طائرة مروحية.

التفت زياد بسرعة تجاه المكان الذي يشير له أحمد، كانت الكلمة التي قالها أحمد إكسير الحياة الذي أعاد لزياد كل طاقته، أخذ يحدق بشدة، ثم بدأ يصرخ بقوة في أبنائه:

- نعم، إنها طائرة، طائرة مروحية تبدو متجهة ناحيتنا، يا الله ما ألطف أقدارك، أشيروا لها بكل ما تستطيعون، ليرفع جميعكم يديه، لعلهم يتعجلون في رفعنا مما نحن فيه، يا الله، يا الله.

دبت الحياة بالجميع على أثر كلمات زياد، وبدأوا يصرخون ويلوحون للطائرة وهي تقترب منهم شيئاً فشيئاً، كانت الطائرة تقترب منهم ويزداد مع اقترابها الأمل بالحياة عند زياد وسعاد، رأى زياد الطائرة بشكل واضح، كان عليها العلم الإيطالي، يبدو أنهم قريبون حقاً من الشواطئ الإيطالية، ثم رأى الطائرة تتوقف عن الحركة حيث كان تجمع الركام الذي تركه غرق المركب، ورأى بأن الطائرة اقتربت من البحر أكثر، وبدأ من فيها يرمون بعض الأشياء حيث يوجد بعض من نجوا من الغرق، دقائق وهم لا يزالون يصرخون ويؤشرون للطائرة علهم يدركون وجودهم بعيداً عن باقي الناجين. ارتفعت الطائرة مرة أخرى وبدأت بالحركة، ومع حركتها ازداد خوف زياد من عدم رؤية من فيها له ولأولاده، لكن الأمل عاد له عندما وجد الطائرة تقترب منهم بهدوء، انخفضت الطائرة بعض الشيء فوقهم مباشرة، ورمى من فيها بعض الصناديق بجانبهم مباشرة، ثم ارتفعت بهدوء، وعادت أدراجها من حيث أتت بشكل سريع، كان زياد وأبناؤه ما زالوا يصرخون، صار الأولاد يبكون ويصرخون عند ابتعاد الطائرة عنهم، أما زياد فقد هدأ قليلاً، وبدأ يخاطب أبناءه مطمئنا إياهم:

- لا تخافوا، أنا متأكد من أنهم سيعودون، سأحضر الأشياء التي رموها لنا لأرى ما بها، عودوا لهدوئكم.

أفلت الحبل المربوط بينهم وسبح باتجاه الأشياء التي رمتها الطائرة. كانت بعيدة عنهم بضعة أمتار، أمسك بها وعاد حيث أولاده وزوجته، بدأ يتفحص ما بها، كانت عبارة عن إطار مطاطي للإنقاذ، مثبت فيه ضوء متقطع، وجهاز يصدر إشارة لاسلكية لتحديد مكانهم بدقة، أما القطعة الأخرى فكانت صندوق من الفلين محكم الإغلاق، بدأ زياد بفتحه بهدوء، وجد به عدة علب للعصير والماء، بالإضافة لبعض البسكويتات، أخذ علب العصير وأعطاها لأبنائه وهو يطلب منهم بأن يشربوها بهدوء شديد، وأخذ واحدة منها وبدأ يتشاركها مع سعاد، أنهى زياد وأهله كل محتويات العلبة خلال ساعة، ثم استلقى الجميع على ظهورهم بعد أن أحسوا بشيء من الراحة واستعادوا بعضاً من قواهم.

مرت عدة ساعات وهم على هذه الحالة حتى بدأت الشمس بالمغيب، عندها أخذ الجميع يسمعون صوتاً آتياً من البعيد، نظر زياد إلى جهة الصوت حيث توقع قدوم الإنقاذ منه، فرأى قارباً سريعاً يتجه ناحيتهم بشكل مباشر، ابتسم ابتسامة رضى ثم عاد واستلقى على ظهره وهو ينظر إلى السماء ويشكر الله على فضله.

لم يمض أكثر من نصف ساعة حتى وصل قارب الإنقاذ لزياد وعائلته بعد أن توقف وقتاً ليس بالقصير عند ما بقي من حطام المركب حيث تجمع معظم الناجين، كان يحيط بالقارب ثلاثة قوارب طرادة صغيرة عليها رجال مسلحون بزي عسكري، وكان معهم كشّفات إنارة قوية جداً، اقترب قارب الإنقاذ من زياد بحذر شديد، كان زياد وأولاده ملتفين بعضهم حول بعض يمسك كل منهم الآخر، وكانت سعاد تحتضن فاطمة بشدة، ما أن توقف القارب بجوارهم، حتى سمع أحد المنقذين يصرخ على زياد بلغة لا يفهمها وهو يشير بالإضاءة التي بيده على أبنائه، فهم زياد بأن الرجل يطلب منه أن يعطيه الأطفال أولاً، شرع زياد من فوره بفك الحبل الذي يربط به ستر النجاة، بدأ بأحمد أول الأمر، إلاّ أن سعاد أمسكت بيده وأشارت إلى فاطمة، فهم زياد ما تقصد، فك الوثاق عن سترة فاطمة وقدمها للمنقذ ليسحبها أولاً، صرخ به المنقذ مرة أخرى وهو يردد عبارات لا يفهمها وهو يشير له بالإضاءة على أحمد، وزياد يتجاهل قوله ويرفع له يد فاطمة ليسحبها، علا صوت الرجل أكثر وهو يصرخ على زياد، فما كان من زياد إلا أن صرخ في وجهه بعلو صوته علّه يفهم ما يقصد وهو يشير لابنته فاطمة:

- لن أُخرج أحداً من الماء قبل أن تأخذوا فاطمة معنا، هل تفهم، لن نخرج من الماء ونتركها خلفنا، إما أن نخرج جميعاً أو نفنى جميعاً، لا يهمني صراخك، أخرج ابنتي أولاً، وبعدها نخرج معكم جميعاً.

وكأن إنسانية الرجل المنقذ قد تحركت وفهم ما يرمي له زياد، مدّ يده بمساعدة رجل آخر، وسحبا جثة فاطمة بهدوء شديد، أصعداها للقارب ومدداها على أحد أطرافه، ثم عاد أحدهما ليساعد الأطفال واحداً واحداً بعد أن فكّ زياد الحبل الذي يربطهم جميعاً. دقائق وأصبح الجميع في قارب النجاة، احتضن زياد أبناءه وزوجته التي وضعت رأس فاطمة في حجرها فور أن صعدت لقارب النجاة، كان زياد يحتضنهم راسماً لوحة يعجز أي رسام عن رسمها، لوحة تضم في جنباتها كل معاني الحزن والألم والأمل في نفس الوقت، بدأ قارب النجاة سيره مبتعداً عن الحطام، استمر زياد على وضعه لعدة دقائق، بعدها فتح عينيه وبدأ ينظر في وجوه من حوله، كان عدد الناجين لا يتجاوز الثلاثين شخصاً، يا إلهي، هل مات الجميع سوانا، كان من بين الباقين أربعة أطفال فقط، وثلاث نساء، والباقي كلهم رجال، ومن بينهم كان حمادة والدكتور ضياء. انتبه بأن الجميع بمن فيهم ملاحو القارب كانوا ينظرون إليه وإلى عائلته بشكل مباشر، كانت فاطمة هي الوحيدة التي لا تتنفس على هذا القارب، إصرار زياد على سحبها للقارب هو السبب الوحيد الذي أجبر قارب الإنقاذ على حملها معهم، فهناك القوارب الصغيرة ما زالت تعمل على انتشال الجثث التي طفت على سطح البحر.

مرّ أكثر من ساعتين من الزمن والقارب يسير باتجاه اليابسة، ومع اقترابه من اليابسة كانت نهاية الرحلة تقترب بالنسبة إلى هؤلاء الهاربين من الموت، ما إن رسا القارب على الشاطئ حتى وجدوا مجموعة من الفريق الإسعافي المنتظر يصعد إلى القارب، كانوا يرتدون معاطف بيضاء وأقنعة تنفس واقية وقفازات طبية، بدأوا يساعدون الناجين للانتقال للشاطئ بشكل متأنٍ، اتجه شاب وفتاة من بينهم لزياد وعائلته، ساعدوهم على الوقوف مبتدئين بالأطفال، وعندما حاولت الفتاة مساعدة سعاد على النهوض، أشارت سعاد بيدها إلى ابنتها لتتنبه الفتاة على وجود جثة معهم، استغربت الفتاة وبدأت تكلم أحد أصدقائها بنفس اللغة التي لا يفهمها زياد أو سعاد، بقي الجميع واقفين بجوار سعاد ليروا ماذا سيحدث، شاهدوا أحد أعضاء الفريق الطبـي يجري حاملاً

معه شيئاً أسود، ما إن اقترب منهم حتى فرد ما بيده، فإذا به كيس بلاستيكي خاص بحمل الجثث، اقتربت الفتاة من سعاد ورفعت من على حجرها رأس فاطمة وهي تحاول مساعدتها على النهوض، بدأت سعاد تبكي وهي تخاطب زياد قائلة:

- لا تدعهم يأخذونها يا زياد، لن أتركها لهم، أريد أن أودعها وأن أدفنها بنفسي، أريد أن أجعل لها نصباً تذكارياً يكون ذكرى لما عانت منه في حياتها القصيرة.

قالت سعاد هذه الكلمات وهي تعيد تشبثها بابنتها فاطمة. أدركت الفتاة ما يعتمل في صدر سعاد فابتعدت عنها قليلاً وهي تخاطب أحد زملائها مشيرة إلى جهة سيارة الإسعاف، ما هي إلا دقائق حتى حضرت إلى حيث تجلس سعاد فتاة شابة تلبس حجاباً فوق معطفها الأبيض، أخذت الفتاة تتكلم مع زميلتها المحجبة وكأنها تشرح لها ما عليهم أن يفعلوه، أومأت لها الفتاة المحجبة موافقة على ما قالت، اقتربت من سعاد حتى جلست بجوارها، أمسكت بيدها وهي تنقل بصرها بين وجه سعاد ووجه فاطمة، ثم خاطبتها بصوت يملؤه العطف:

- السلام عليكم يا أختي، أنا اسمي ندى، وأنا من الفريق الطبي الإيطالي، نحن هنا لنساعدكم، الحمد لله على سلامتكم جميعاً، ورحم الله عروستك، هي شهيدة بإذن الله يا أختي، الحمد لله أن حفظ لك بقية أبنائك، نحتاج منك يا أختي أن تساعدينا في حمل ابنتك في هذا الكيس كي ننقلها لليابسة، ثم نعمل على دفنها في أقرب مقبرة للمسلمين، تركها لفترة أكثر بهذه الطريقة سيؤدي لتعفن الجثة، ومن المؤكد أنك لا تريدين لابنتك بعد أن أصبحت بين يدي الله إلا أن يتم إكرامها بأفضل شكل، وإكرام الميت دفنه يا أختي.

انتهت من كلامها وأخذت من فورها بيد سعاد لتساعدها على النهوض بعد أن رفعت رأس فاطمة عن حجر أمها ووضعته على مهل على أرضية القارب، وقفت سعاد ونظراتها لم تفارق وجه ابنتها ولو للحظة، وبمجرد وقوفها، بدأ اثنان من الفريق يضعان جثة فاطمة بالكيس الأسود بعد أن فردوه بشكل مناسب جوارها، كان جميع أفراد العائلة يقفون ملتفين حول جثة فاطمة وهم يرونها تتوارى عنهم شيئاً فشيئاً، وقبل أن يتم إغلاق الكيس بشكل كامل، لمس زياد كتف الشاب الذي يقوم بإغلاق الكيس مشيراً له بأن يتوقف قليلاً، أطاعه الشاب بصمت وتنحى عن الجثة، نظر زياد إلى سعاد وهو يرى دموعها التي تغرق وجهها وصمتها المخيف، نقل بصره بين أبنائه ليرى الدموع تنهمر من أعينهم، خاطبهم بهدوء وهو يمرر يده على رؤوسهم قائلاً:

- هيا يا أحبابي، ودعوا أختكم فاطمة، هي حقاً من سبقتنا إلى الراحة في هذه الرحلة، هي من اصطفاها الله من بيننا ليرحمها من هذه الحياة، ودعوها وادعوا لها بالرحمة.

أنهى زياد كلماته، وبدأت هبة بتقبيل وجه أختها وجبينها بهدوء، لحقتها زهرة بشكل تلقائي، وما أن انتهيا حتى انكب أحمد على أخته حاضناً إياها وهو يبكي بصوت ضعيف، لم يقبّلها، بل احتضنها بشدة، كانت هي الأم الأقرب بالنسبة إليه، كان كطفل ذاق اليتم من فوره، وما زال يتعلق بأي أثر لأمه، استمر هذا الوضع لثوانٍ والجميع يحترم مشاعر هذا الطفل البريئة، انحنى عليه زياد، حمله واحتضنه وهدأ من روعه، بعدها انحنت سعاد على ابنتها وقبلتها قبلة واحدة سريعة، ثم أشاحت بوجهها عنها وابتعدت عنها باكية بردة فعل عنيفة، وبقي زياد كي يودع ابنته، انحنى ببطء، أمسك برأس ابنته وقبّله وهو يتمتم بأدعية لم يعِ حينها ما هي، أعاد رأس ابنته

لمكانه، ثم أغلق بيده الكيس الأسود ليكون هو من أنهى آخر لحظة له مع ابنته. وقف وتأمل من حوله ليرى الدموع تغطي وجوه جميع من حضر هذا الموقف، كان مشهداً مهيباً بكل ما تعنيه الكلمة من معان، رجلان يحملان الكيس الأسود الذي يحوي جثمان فاطمة، عن يمينهما يسير زياد ممسكاً بيد ابنه أحمد، ووراءهما رجل وامرأة من الطاقم الصحي، وعن يسارهما تسير سعاد ممسكة بيدي زهرة وهبة، وخلفهن تسير الفتاة المحجبة، الكل يسير بهدوء لا يسمع فيه سوى تصاعد الأنفاس وهبوطها، يسيرون على اليابسة، لقد أتموا رحلتهم، واستطاعوا النجاة من جحيم رافقهم خلال سنتين أو أكثر، واستطاعوا الهروب من خوفهم ومعاناتهم للأمل بالحياة الإنسانية. لكن فاطمة وحدها من هربت، هربت إلى الموت.

انتهى...

Notes

[1←]
الخالدية: أحد أحياء مدينة حمص العريقة، سمي بهذا الاسم لوجود قبر الصحابي خالد بن الوليد (سيف الله المسلول) داخل مسجد له الاسم نفسه، ويعتبر الحي من الأحياء القريبة من أسواق حمص القديمة والحديثة في الوقت نفسه، ويسكنه المسلمون السنة.

[2←]
ص: تعتبر ثالث أكبر المدن السورية بعد مدينتي "دمشق" و"حلب"، تقع على نهر "العاصي"، وتعتبر حلقة الوصل بين المدن الجنوبية والشمالية، وبين المدن الشرقية بالساحل السوري، تبعد ما يقارب 160 كلم شمال العاصمة السورية "دمشق"، وتعتبر من أقدم المناطق المأهولة، حيث سكنها الإنسان منذ القرن الرابع قبل الميلاد. وفيها تقع قلعة الحصن، التي تعتبر من التراث العالمي المحمي من اليونسكو. صار يُطلق عليها "عاصمة الثورة السورية" بعد قيام الثورة في سوريا.

[3←]
ب البعث العربي الاشتراكي الذي تأسس في عام (1947م) على يد كل من ميشيل عفلق وصلاح البيطار.

[4←]
ـة الساعة: تتوسط مدينة "حمص"، يُطلق عليها هذا الاسم لوجود برج الساعة الكبير وسطها، صار يطلق عليها اسم "ساحة الحرية" بعد أن بدأت الثورة السورية 2011م كونها أصبحت رمزاً للمظاهرات في المدينة.

[5←]
ع عبد المنعم رياض: أحد الشوارع الرئيسية المرتبطة بـ "ساحة الساعة" من جهة الشمال الغربي. أطلق عليه هذا الاسم تخليداً لذكرى الفريق "محمد عبد المنعم رياض" والذي يعتبر من أشهر العسكريين المشاركين في الحرب العالمية الثانية ضد الألمان والإيطاليين وفي حرب فلسطين وفي العدوان الثلاثي.

[6←]
قصيدة أبو القاسم الشابي: إذا الشعب يوماً أراد الحياة.

[7←]
ـيث رواه أحمد وابن ماجه وأبو يعلى والطبراني وغيرهم، والحديث صحّحه الإمام الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

[8←]
. الترمذي، وصحّحه الألباني.

[9←]
. خربة السودا: قرية تابعة لمحافظة حمص، تقع شمالي غرب حمص.

[10←]

رام جبل: قرية صغيرة تقع غربي حمص.

[11←]
ة حديدة: مدينة صغيرة تقع في أقصى غرب مدينة حمص، وتعتبر أقرب المدن شرقي الحدود اللبنانية.

[12←]
خلاق: قرية صغيرة تقع في منطقة وادي خالد التابع لقضاء عكار أقصى شمال شرقي لبنان.

[13←]
قة وادي خالد: تقع منطقة "وادي خالد" على الحدود الشمالية الشرقية للبنان، في قضاء عكار، تتألَف من أكثر من عشرين قرية.

[14←]
ة طرابلس: مدينة لبنانية، عاصمة محافظة الشمال تكنى بالفيحاء. ثاني أكبر مدن لبنان بعد بيروت. نسب إليها اسم "طرابلس الشام" لتمييزها عن طرابلس الغرب، تقع طرابلس على بعد 85 كيلومتراً إلى الشمال من بيروت. يمتزج فيها الحاضر بالتاريخ. عرفت طرابلس منذ القدم بموقعها الجغرافي المميز لأنها صلة الوصل ما بين الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط والداخل السوري والعربي، ما جعلها مركزاً تجارياً مهماً على مستوى المنطقة.

[15←]
احية الجنوبية: تقع الضاحية الجنوبية بين ساحل بيروت الجنوبي وبداية جبل لبنان شرق بيروت. معظم ساكنيها من الطائفة الشيعية، وتضم العديد من الكنائس التي تلاصق المساجد في بعض المناطق مما يعتبر تنوعا وغنىً لهذه المنطقة التي لا تخلوا من التعايش الإسلامي المسيحي.

[16←]
رة الحولة:

ولة): سهل زراعي خصب وسط سورية، يقع بين محافظتي حمص وحماة غرب وادي نهر العاصي وشرق جبل الحلو.

زرة الحولة): مجزرة وقعت يوم الجمعة بتاريخ 25 أيار2012م. في بلدة الحولة، راح ضحيتها عشرات الأشخاص منهم أطفال ونسوة وشيوخ من أهالي بلدة الحولة، تواترت الروايات والشهادات عن أن دوافع المجزرة طائفية، وأنها تمت بمشاركة الشبيحة وعناصر أمنية وبعض سكان القرى العلوية المحيطة بالقرية. وقد اقتحم المنفذون البلدةَ السنية تحت غطاء ناري من قذائف دبابات الجيش السوري حسب ما أكد الجنرال روبرت مود رئيس بعثة المراقبين الدولية.

[17←]
سير: إحدى المدن في في سوريا. تتميز بمساحتها الكبيرة، وقربها من نهر العاصي، تبعد عن مدينة غرباً حوالى 35 كلم، وعن الحدود اللبنانية 15 كلم.

[18←]
مل: إحدى القرى اللبنانية في قضاء الهرمل في محافظة بعلبك – الهرمل، تقع في شمال شرقي لبنان. تبعد كلم عن بيروت.

[19←]

شة: حي سكني وتجاري في بيروت عاصمة لبنان. وهو مركز مهم للمطاعم والمقاهي، كما أن الروشة تشكل جزءاً مهماً من كورنيش بيروت. في ساحل الروشة هناك علامة طبيعية بارزة تسمى صخرة الروشة.

[20←]

ع الحمرا: أحد الشوارع الرئيسية في بيروت وأحد المحاور الرئيسية الاقتصادية والدبلوماسية فيها. يرجع ذلك لوجود العديد من المقاهي فيه، ولوجود المسارح اللبنانية المشهورة فيه، كان شارع الحمرا مركز النشاط الفكري في بيروت، كما يوجد في الشارع العديد من الفنادق والشقق المفروشة.

[21←]

ورديون آلة موسيقية تُحمل باليد. وتتألف من منفاخ هوائي وأزرار ومفاتيح شبيهة بمفاتيح البيانو لإنتاج النغمات المختلفة.

[22←]

نة 6 أكتوبر: مدينة السادس من أكتوبر، (وتُنطق في العامية المصرية ستة أكتوبر) هي مدينة في محافظة الجيزة بمصر، إحدى المدن الجديدة المصرية التي تم بناؤها للتقليل من الكثافة السكانية لمدينة القاهرة، تقع على بعد 38 كم من القاهرة وتتميز بانخفاض كثافتها السكانية وأيضاً انخفاض درجة حرارة الجو عن القاهرة وذلك لارتفاعها عن سطح البحر سميت المدينة بهذا الاسم تيمناً بنصر السادس من أكتوبر عام 1973م.

[23←]

وان المسلمون: هي جماعة إسلامية، تصف نفسها بأنها "إصلاحية شاملة" تعتبر أكبر حركة معارضة سياسية في كثير من الدول العربية، أسسها حسن البنا في مصر في مارس عام 1928م كحركة إسلامية، وسرعان ما انتشر فكر هذه الجماعة، فنشأت جماعات أخرى تحمل فكر الإخوان في العديد من الدول.

[24←]

رة حماة: هي أوسع حملة عسكرية شنها النظام السوري ضد الإخوان المسلمين في حينه، وأودت بحياة عشرات الآلاف من أهالي مدينة حماة. بدأت المجزرة في 2 فبراير 1982م واستمرت 27 يوماً. حيث قام النظام السوري بتطويق مدينة حماة وقصفها بالمدفعية ومن ثم اجتياحها عسكريا، وارتكاب مجزرة مروعة كان ضحيتها عشرات الآلاف من المدنيين من أهالي المدينة. وكان قائد تلك الحملة العقيد رفعت الأسد شقيق الرئيس حافظ الأسد.

[25←]

ب الكنبة: مصطلح "حزب الكنبة" من المصطلحات السياسية المستحدثة التي اكتسبت أهمية وزخماً كبيراً في الفضاء السياسي المصري خصوصاً في مرحلة ما بعد الثورة، ولذلك تعددت تعاريفه وتوصيفاته. فهو عند البعض مصطلح يعبّر عن الأغلبية الصامتة من الشعب العازفة عن السياسة بأشكالها كافّة. ومنهم من يحصرها في قطاع من الشعب يتجاهل كل نداءات الانخراط في الأحزاب أو المشاركة في الحياة السياسية.

[26←]

ن رابعة العدوية: أحد ميادين مصر ويقع في مدينة نصر شرقي القاهرة، واتخذ شهرة واسعة بعد اعتصام مؤيدي الرئيس الأسبق محمد مرسي في الميدان قبل وبعد الانقلاب العسكري في يوليو 2013. وقد سمي لهذا الاسم لوجود مسجد رابعة العدوية وهي متصوفة عاشت في القرن الثاني الهجري.

[27←]

ماعيلية: مدينة مصرية، إحدى مدن القناة، وهي عاصمة محافظة الإسماعيلية. بنيت المدينة على الضفة الغربية من بحيرة التمساح – والتي تُعتبر جزءًا من ممر قناة السويس – تقريباً في منتصف المسافة بين بورسعيد شمالا والسويس جنوبًا، لكي تكون مركزاً لشركة قناة السويس العالمية للملاحة في عهد الخديوى

إسماعيل.

[28←]
صورة: مدينة مصرية، عاصمة محافظة الدقهلية، وكذلك عاصمة مركز المنصورة. تطل على الضفة الشرقية لفرع دمياط بنهر النيل.

[29←]
يدوزا: أكبر الجزر البلاجية المعزولة أقصى جنوب إيطاليا، تقع في البحر المتوسط بين مالطة وتونس على بعد 170 كم جنوب غرب جزيرة صقلية، وهي تتبع إدارياً إيطاليا ضمن مجموعتها التي تعتبر جزءاً من مقاطعة جرجنت في صقلية.